الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية

تأليف

أ.د. عبد الله عبد الغني سرحان

أستاذ البلاغة والنقد - كلية اللغة العربية بالقاهرة

وكلية العلوم الإنسانية - جامعة الملك خالد - أبها

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

الناشر

مركز التدبر للاستشارات التربوية والتعليمية.

الطبـعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

المملكة العربية السعودية.

الرياض - الدائري الشرقي - مخرج ١٥

هاتف ٢٥٤٩٩٩٣ - تحويلة: ٣٣٣

ناسوخ ٢٥٤٩٩٩٦

ص.ب.٩٣٤٠٤ الرمز: ١١٦٨٤

البريد الحاسوبي tadabbor@tadabbor.com

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

سرحان، عبدالله عبدالغني

الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية. / عبدالله عبد الغني سرحان

- الرياض ، ١٤٣٣ هـ

٣٢٥ ص ، ١٧ × ٢٢سم

ردمك: ٩ - ٠٦١٨ - ٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - البلاغة العربية أ. العنوان

ديوي ٤١٤ ١٤٣٣ / ٧١٤١

رقم الإيداع : ١٤٣٣ / ٧١٤١

ردمك : ٩ - ٠٦١٨ - ٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨

الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الـذي أنزل القرآن بلسان عـربي مبين، تحدى به الإنس والجن أجمعين، فعجزوا عن مجاراته، وانقمعوا أمام فصاحاته وبلاغاته، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وأفصح الخلق أجمعين، وعلى آله، ومن سار على نهجه إلي يوم الدين.

أما بعـدُ...

فالقرآن الكريم هو كتاب الله الخالد الذي لا تنقضي عجائبه، ولا تنفد غرائبه، ولا تتناهى لطائفه، ولا ينقطع مدده وعطاؤه على مر الدهور، وكر الأعوام.

وقد أنزله اللطيف الخبير بميزان حكيم، وقسطاس مستقيم يلائم جلالـه وكماله فجاء في قمة الإعجـاز، وذروة البيـان معنى ونظمًا ومفردات، فكل لفظة فيه بل كل حرف قد وضع في موضع سديد، ومكان رشيد، لو حاولتَ أن تضع حرفًا

آخر مكانه لما تأدى المعنـى المراد، وفات الغرض المقصود، واختل الأسلوب، وتغيـر نظمه الفريد، وانتثر نضده المونق البديع، وهذا يعني أن اصطفاء حروفه ومفرداته قد بلغ الغاية، وشارف النهاية.

من هذا المنطلق أخذت أطوف في رحاب الذكر الحكيم، فعثرت من ضمن ما عثرت على أحد كنوزه المتراكمة، ولآلئه الجمة المتزاحمة، وهي الألفاظ الفرائد التي ذُكرت مرة واحدة في القرآن لم يتكرر جذرها اللغوي على أي صورة من الصور، من حيث مادتها وصيغتها وهيئتها، وكان بوسع الذكر الحكيم أن يستعيض عن هذه الألفاظ، أو تلك الفرائد بألفاظ أخرى - وردت في القرآن وكلام العرب - تحتوي على معناها وتشتمل على فحواها، لكنه لما آثر التعبير بتلك الفرائد دون ما يقاربـها كان وراء الإيثار سر من الأسرار التي سيكشف عنها هذا البحث بمشيئة الله ﷻ.

هـذا، وقد عكفـت على استقصاء المادة العلميـة لهذا البحـث من (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) للأستاذ / محمد فؤاد عبد الباقي وهو المصدر الأكمل والأوفى في هذا المجال، وبعد استقصائها وجدتها قد زادت على أربعمائة فريدة.

وقد وقفت أمام تلك الفـرائد الكثيرة فترات طويلة لأتخير الخطة الملائمة في دراستها فعنَّ لي عند ذاك أكثر من خطة.

الأولى: دراسة هذه الفرائد على حسب ترتيـب سور القرآن مبتدئًا بسورة البقرة ثم آل عمران، منتهيًا بسورة الناس.

الثانية: دراسة هذه الفرائد بعد تجريـدها من الزوائد وفق الترتيب الألفبائي أي: مبتدئا بالفريدة المستهلة بالهمزة، ثم المبتدئة بالباء، ثم التاء، إلى الياء.

الثالثة: تقسيـم الفرائد إلي مجموعات متماثلة، وطوائف متناظرة بمعنى دراسة الفرائد الفعلية بأنواعها المختلفة ماض ومضارع وأمر مجردًا ومزيدًا كل على حدة معًا، ثم دراسة الصيغ المشتقة بأنواعها المختلفة معًا، ثم المصادر بأنواعها المختلفة علـى النحو السابق، ثم الأسماء المشتقة والجامدة على اختلاف مسمياتها كل على حدة معًا.

الرابعة: دراسة هذه الفرائد دراسة موضوعية تعتمـد علي ضم كل مجموعة من الفرائد المندرجة حول موضوع واحد معًا، بمعنى دراسة الفرائد التـي وردت في قصة نوح مثلًا، والـواردة في قصة صالح وإبراهيم ويوسف وموسى معًا، وهكذا دواليك.

وبعد معالجة ومعايشة طويلة لهذه البدائل كلها وجدت أن دراسة الفرائد وفق الخطة الأخيـرة هي الأنسب والأرحب؛ لأنها تضم في طياتها محاسن البدائل الأخرى؛ ولأنها ستعطي نتائج غزيرة وكثيرة كما سيتضح في خاتمة الدراسة إن شاء الله تعالى.

هذا، وقد تنوعت الموضوعات التي وردت فيها الفرائـد تنوعًا كثيرًا، وقد حصرت هذه الموضوعات فوجدت أن الفرائد وردت بكثرة في ثنايا القصص النبوي وغيرها من القصص القرآني، كما وردت في ثنايا الحديث عن المؤمنين والكافرين والمنافقين واليهـود والنصارى، كما وردت خلال الحديث القرآني عن يوم القيامة والبعـث والنشور والجنة والنار والشياطين، كمـا جاءت كذلك في سياق الحديث

عن الحيوانات والنباتات والجمادات والمياه والجبال والبلدان والسموات والأرض وغيرها من مظاهر الطبيعة المختلفة، كما وردت فرائد عن القرآن وبدايات سوره، وعن الملائكة، وأخيرًا عن رب العالمين سبحانه وتعالى.

هذا، وسيقتصر البحث هنا على دراسة الفرائد الواردة في القصة القرآنية؛ لأنها من الغزارة والكثرة بمكان؛ ولأنها تنصب على موضوع واحد مترابط متماسك الأجزاء، وسوف نؤجل دراسة بقية الفرائد على حسب تلك الخطة للجزء الثاني من هذه الدراسة إن شاء الله تعالى.

ومن ثم فقد بُنيت خطة الدراسة في هذا الجزء على مقدمة، وتمهيد، واثني عشر مبحثًا، وخاتمة.

المقدمة: وفيها تعرضت لأسباب اختيار الموضوع، وخطة الدراسة، ومنهجها.

التمهيد: وفيه تحدثت عن معنى الفريدة، وأبنت عن سر تسمية البحث بهذا الاسم، وذكرت الأقوال والدراسات التي دارت حول هذا الموضوع قديمًا وحديثًا.

المبحث الأول: أسرار التعبير بالفرائد في قصة نوح عليه السلام.

واحتوى هذا المبحث على ست فرائد فحسب.

المبحث الثاني: أسرار التعبير بالفرائد في قصة هود عليه السلام.

وورد فيه ست فرائد فقط.

المبحث الثالث: أسرار التعبير بالفرائد في قصة صالح عليه السلام.

ويضم هذا المبحث ثلاث فرائد فحسب.

المبحث الرابـع: أسرار التعبير بالفرائد في قصة إبراهيم وإسماعيل ولوط عليهم السلام، ويشتمل على سبع فرائد.

المبحث الخامس: أسرار التعبير بالفـرائد في قصة يوسف عليه السلام، ويحوي هذا المبحث ثلاث عشرة فريدة.

المبحث السادس: أسرار التعبير بالفـرائد في قصة موسى عليه السلام، ويضم ثمانيًا وثلاثين فريدة.

المبحث السابع: أسرار التعبير بالفرائـد فـي قصة داود وسليمان عليهما السلام، وقد احتوى على تسع فرائد.

المبحث الثامن: أسرار التعبير بالفرائد في قصة يونس عليه السلام .

ويضم أربع فرائد.

المبحث التاسع: أسرار التعبير بالفرائد في قصة زكريا عليه السلام.

ويحوي فريدتين فحسب.

المبحث العاشر: أسرار التعبير بالفرائد في قصة عيسى عليه السلام.

وفيه فريدتان أيضًا.

المبحث الحادي عشر: أسرار التعبير بالفرائد في الحديث عن المصطفى صلى الله عليه وسلم، ويضم أربع عشرة فريدة فقط.

المبحث الثاني عشر: أسرار التعبير بالفرائد في قصص قرآني متنوع، ويشتمل على أربع عشرة فريدة فحسب.

هذا، وقد سرت في تحليل تلك الفرائد على نهج لاحب متلئب يتمثل في الخطوات التالية:

١- ذكرت في بداية كل مبحث نبذة موجزة عن القصة محل الدراسة، ثم أعقبتها بذكر الفرائد مُجَمَّعَةً بين يدي كل مبحث مرتبة على حسب دراستها.

٢- ذكر الفريدة مصحوبة برقم الآية، واسم السورة.

٣- ذكر ما ورد في كتب اللغة والتفسير من معان لهذه الفرائد، وقد اعتمدت في بيان معنى الفريدة -غالبًا- على كتاب عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ للسمين الحلبي؛ لأنه أوعب وأشمل وأكثر تخصصًا في الحديث عن ألفاظ القرآن الكريم كما ينبئ عنوانه وأحلت القارئ على المراجع اللغوية الأخرى التي عدت إليها وفي كتب التفسير اعتمدت - في الغالب أيضًا - على كتاب فتح البيان للشيخ صديق خان؛ لأنه من أكثر المراجع التفسيرية إيفاء بالمعنى المراد للفرائد، وأحلت القارئ كذلك على كثير من كتب التفسير الأخرى.

٤- ذكر ما يسمى بمترادفات الفرائد المنصوص عليها في كتب اللغة والتفسير سواء وردت في القرآن أم لم ترد، ثم الموازنة الدقيقة بين الفريدة، وهذه الألفاظ وصولًا إلى إبراز اللمحات الفنية واستشفاف الخصائص الجمالية، واستنباط الأسرار البلاغية وراء اصطفاء تلك الفرائد دون غيرها.

٥- النظر إلى الفريدة من نواحٍ عديدة، من ناحية وسـوسة حروفها وصورة لفظها، وإيحاءاتها في سياقها، وكذا النظر إليها من ناحية صيغتها، ومادتها، ودلالاتهـا، وأثـر هذه الأمور على أداء المعنـي المراد بدقة متناهية فاقت الوصف، وبلغت أقصى الحد من الجمال والكمال والإعجاز.

٦- الحرص -ما أمكن- علـى ذكر سياق الفـريدة بإيجـاز، واستصحاب السيـاق العام للقصة كلهـا حتـى يتضح أثر هذه الفرائد في تلك السياقات، وبيـان أن هذه الفـرائد قـد اقتضاها سيـاق الكلام واستدعاها المعنى العام.

٧- دراسة الآيات التي ترد فيها أكثرُ من فريدة معًا في موطن واحد مثل قوله تعالى: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات:١٠٣]، وقوله: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ [هود:٤٤] كي لا يتجزأ سياق الآيات.

٨- استخلاص النتائج المختلفة من التعبير بهـذه الفرائد المتنوعة صيغة ومادة ودلالة.

وبعـدُ...

فهذا ما هُديتُ إليه فإن وفقت فالفضل لله وحده، وإن كانت الأخرى فحسبي أني اجتهدت، وبذلت قصارى ما عندي، وعبدت هذا الطريق الذي لم يسلكه أحد قبلي على هذا النحو.

وأدعو إخواني الباحثين أن يسيروا على الدرب، ويصححـوا ما يرونه من عيب،

وما يطلعون عليه من نقص فإن القرآن لا يتوقف عطاؤه على شخص دون آخر.

والله ولي التوفيق وعليه التكلان.

الدكتور

عبد الله عبد الغني سرحان

أبها – السعودية

التمهيد

لفظة الفـرائد التي وردت في عنوان هذا البحث هي جمع فريدة، وهذه المادة في المعاجم يدور معناها حول الشيء المنقطع الشبيه الذي لا مثيل له ولا نظير.

يقول ابنُ منظور في مادة (فرد): «والفـرد بالفتح والضم هو منقطع القرين لا مثل له في جودته، واستفرد الشيء: أخرجه من بين أصحابه، وأفرده: جعله فردًا... والفـريد والفـرائد: الشذر الذي يفصل بين اللؤلؤ والذهب واحدته فريدة... وقيل: الفـريد بغير هاء الجوهرة النفيسة كأنهـا مفردة في نوعها، والفرَّاد صانعها، وذهب مفرد مفصل بالفريد»[1].

وبالقياس على ما ذكره ابن منظور تُعدُّ اللفظة التي وردت في القرآن، ولم تتكرر قط على أي صورة من صورها اللفظية كالياقوتة التي هي فريدة العقد وعين القلادة، ومِنْ ثَمَّ فإن تسمية هذه الألفاظ بالفرائد تسمية صحيحة تتفق في مدلولها العام مع ما ورد عن تلك اللفظة في المعاجم.

---

(١) لسان العرب (فرد).

ولستُ بدعًا في إطلاقها فقد وردت في عناوين مؤلفات كثيرة قديمة لوحظ فيها هذا المعني ذكرها حاج خليفة في كشف الظنون [(١)]، منها على سبيل المثال لا الحصر: الفـرائد السنية في حل الفوائد الفنارية لأبي بكر بن عبد الوهاب الحلبي، وبـدائع الفرائد لابن قيم الجوزية، وبغيـة الرائد في الدرر الفرائد لابن الرَّفَّا، وغرر الفرائـد ودرر القلائـد للشريف مرتضى البغدادي، وقيد الشرائد ونظم الفرائد للشيخ عبد الوهاب بن أحمد بن وهبان الدمشقي، وغير ذلك كثير تركناه خشية الإطالة.

هذا، وقد وقع الاختيار على تلك الفرائد دون غيرها من ألفاظ القرآن؛ لأن الحديث عن عامة الألفاظ يحتاج إلي مجلدات ومجلـدات فضلًا عن أن كثيرًا من المفسرين واللغويين والبلاغيين قد تناولوا ألفاظ القرآن من نواح شتى.

أما هذه الفرائد فلم يدرسها -على حد علمي، والله أعلم- أحد قبلي من الناحية الجمالية والفنية والإبداعية، أقول هذا؛ لأن هناك أقوالًا ومؤلفات قديمًا وحديثًا عرضت للفـرائـد من جهات مختلفـة لكنها لم تعرض لها ألبتة فنيًّا وبلاغيًّا على حسب المنهج الذي نسير عليه هنا.

أما في القديم فلم أجد مؤلفًا مستقلًا جمع هذه الفرائد، وتحدث عنها على أي وجه كان، اللهم إلا أقوال مرسلة لا تتجاوز بضعـة أسطـر. فالسيوطي في الإتقان يقول: «الفرائد مختصة بالفصاحة دون البلاغة لأنها الإتيان بلفظة تتنزل منزلة الفريدة من العقد وهي الجوهرة التي لا نظير لها تدل على عظم فصاحة هذا الكلام، وقوة عارضته، وجزالة منطقه، وأصالـة عربيته بحيث لو أُسقِطت من الكلام عزت علـى

(١) كشف الظنون لحاج خليفة ١/ ٢٠٧، ٢٣٠، ٢٤٨، ٢/ ١٢٠١، ١٨٦٥.

الفصحاء غرابتهـا، ومنـه لفظ: ﴿حَصْحَصَ﴾ في قولـه: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾، و﴿ٱلرَّفَثُ﴾ في قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾، ولفظة ﴿فُزِّعَ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾، و﴿خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ في قولـه: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ وألفاظ أخرى كقولـه: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾، وقوله: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾»[1].

فكما يلاحظ عرف الفرائد تعريفًا دقيقًا ينطبق على ما ذكرناه، ولكنه عند التطبيق وضرب الأمثلة خلط بين الفرائد وبين غيرها من الألفاظ التي تكررت موادها في القرآن الكريم مثل: ﴿ٱلرَّفَثُ﴾، و﴿فُزِّعَ﴾، و﴿خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾، ﴿خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾؛ فإنَّ هذه الكلمات قد تكررت بنفسها وبصيغ أخري من مادتها.

وتحدث ابنُ الأثير عن سر التعبير بالفريدة ﴿ضِيزَىٰٓ﴾ فقال: «حضر عندي في بعض الأيام رجل متفلسف، فجرى ذكر القرآن الكريم، فأخذت في وصفه، وَذِكْرُ ما اشتملت عليه ألفاظه ومعانيه من الفصاحة والبلاغة، فقال ذلك الرجل: وأي فصاحة هناك، وهو يقول: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾، فهل في لفظة ﴿ضِيزَىٰٓ﴾ من الحسن ما يوصف؟ فقلت له: اعلم أن لاستعمال الألفاظ أسرارًا لم تقف عليها أنت ولا أئمتك، مثل ابن سينا والفارابي، ولا من أضلهم مثل أرسطاليس وأفلاطون وهذه اللفظة التي أنكرتها في القرآن وهي لفظة ﴿ضِيزَىٰٓ﴾ فإنها في موضعها لا يسد غيرها مسدها، ألا ترى أن السورة كلها التي هي سورة (النجم) مسجوعة على حرف الياء فقال تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾، وكذلك إلى

(١) الإتقان للسيوطي ٢/ ٢٥٠ .

آخر السورة، فلما ذكر الأصنام وقسمة الأولاد وما كان يزعمه الكفار قال: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ﴾، فجاءت اللفظة على الحرف المسجوع الذي جاءت السورة جميعها عليه، وغيرها لا يسد مسدها في مكانها، وإذا نزلنا معك أيها المعاند على ما تريد قلنا: إن غير هذه اللفظة أحسن منها ولكنها في هذا الموضع لا ترد ملائمة لأخواتها ولا مناسبة؛ لأنها تكون خارجة عن حرف السورة، وسأبين ذلك فأقول: إذا جئنا بلفظة في معنى هذه اللفظة قلنا: قسمة جائرة أو ظالمة ولا شك أن (جائرة) أو (ظالمة) أحسن من ﴿ضِيزَىٰٓ﴾ إلا أنا إذا نظمنا الكلام فقلنا: (ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ظالمة) لم يكن النظم كالنظم الأول وصار الكلام كالشيء المُعوزِ الذي يحتاج إلى تمام، وهذا لا يخفى على من لـه ذوق ومعرفة بنظم الكلام، فلما سمع ذلك الرجل ما أوردته عليه رَبَا لسانه في فمه إفحامًا، ولم يكن عنده في ذلك شيء سوى العناد الذي مستنده تقليد بعض الزنادقة الذين يكفرون تشهيًا، ويقولـون ما يقولونه جهلًا، وإذا حققوا عليـه ظهر عجزهم وقصورهم»[(١)].

كما تحدث الحموي في خزانة الأدب عن الفرائد فقال: «الفرائد نوع لطيف مختص بالفصاحة دون البلاغة لأن المراد منه أن يأتي الناظم أو الناثر بلفظة فصيحة من كلام العرب العرباء تتنزل من الكلام منزلة الفرائد من العقد، وتدل على فصاحة المتكلم بها بحيث أن تلك اللفظة لو سقطت من الكلام لم يسد غيرها مسدها كقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡ﴾، فقوله تعالى: ﴿ٱلرَّفَثُ﴾ فريدة لا يقوم غيرها مقامها، وكقوله تعالـى: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ

(١) المثل السائر لابن الأثير ١/ ١٧٦ ـ ١٧٧ .

﴿غَنَمِى﴾، فقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾ فريدة يعز على الفصحاء أن يأتوا بمثلها في مكانها»[1].

فكما ترى عَرَّفَ الفرائد تعريفًا دقيقًا ينسجم مع ما ذكرناه عنها، ولكنه عند التطبيق أدخل كلماتٍ ليست فرائد -كما فعل السيوطي- مثل كلمة ﴿ٱلرَّفَثُ﴾ فقد وردت في القرآن في موضعين.

كذلك تحدث ابنُ تيمية عن ذلك فقال: «والقرآن نزل بلغة قريش الموجودة في القرآن فإنها تفسر بلغته المعروفة فيه إذا وجدت لا يعدل عن لغته المعروفة مع وجودها وإنما يحتاج إلى غير لغته في لفظ لم يوجد له نظير في القرآن كقوله: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ﴾، ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾، ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾، و﴿قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ ونحو ذلك من الألفاظ الغريبة في القرآن»[2]؛ حيث ذكر بعض الفرائد وهي (﴿مَنَاصٍ﴾، ﴿دِهَاقًا﴾، ﴿وَأَبًّا﴾، ﴿ضِيزَىٰٓ﴾)، وعدها لا نظير لها في القرآن، وقد وفِّق في ذلك أيما توفيق ماعدا كلمة ﴿وَيْكَأَنَّ﴾ فقد ذكرت في القرآن مرتين.

هذا ما وقع تحت يديَّ من أقوال عن الفرائد لدي القدماء بالمعني الذي قررناه.

أما ما ورد **عند المحدثين** فقد عرضوا لهذه القضية على النحو التالي:

١- نحا الرافعي -رحمه الله- منحى ابن الأثير حين أبان عن أسرار إيثار التعبير بالفريدة ﴿ضِيزَىٰٓ﴾ على ما يقاربها من ظالمة أو جائرة فقال: «في القرآن لفظة غريبة هي من أغرب ما فيه، وما حسنت في كلام قط إلا في موقعها منه، وهي كلمة

---

(١) خزانة الأدب للحموي ٢/ ٢٩٧ .

(٢) كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في التفسير ١٥ / ٨٨ .

﴿ضِيزَىٰٓ﴾ من قوله تعالـى: ﴿تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ﴾، ومع ذلك فإن حسنها في نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه، ولو أدرت اللغة عليها ما صلح لهذا الموضع غيرها، فإن السورة التي هي منها - وهي سورة النجم - مفصلة كلها على الياء، فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل، ثم هي في معرض الإنكار على العرب إذ وردت في ذكر الأصنام، وزعمهم في قسمة الأولاد؛ فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام بنات الله مع وأدهم البنات فقال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ﴾ فكانت غرابـة اللفظ أشد الأشيـاء ملاءمة لغرابـة هذه القسمة التي أنكرها»[(١)].

٢- وقفت د/ بنت الشاطئ أمام عدد قليل من الفرائد الواردة في قصار السور في كتابها (التفسير البياني للقرآن الكريم)[(٢)] بجـزأيه الأول والثاني؛ حيث ذكرت أنها من الصيغ الوحيدة مادة وصيغة، ومستها مسًّا لغويًّا خفيفًا.

كما علقت تعليقًا لغويًّا سريعًا على الفرائد الواردة في (مسائل ابن الأزرق) فـي كتابها: (الإعجاز البيـاني للقرآن ومسائـل ابن الأزرق دراسة قرآنية لغوية وبيانية[(٣)].

٣- ومن هذه الدراسات أيضًا رسالة (مفاريد الألفاظ في القـرآن دراسة لغوية) وقد تناولت الدراسة الفرائدَ دراسة صوتية وصرفية ومعجمية بحتة بعيدة كل البعد عن الدراسة الفنية الجمالية للفريدة في إطار سياقها كما أبان هو عن منهجه في مقدمة رسالته، وقد أوصى الباحث في خاتمتها بدراسة هذه الفرائد من الناحية البلاغية

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

(٢) التفسير البياني للقـرآن الكريم ١ / ٣١، ١٠٦، ١١١، ١١٦، ٢ / ٣١، ٥٩، ٦٣، ١٣٩.

(٣) انظر على سبيـل المثال ص٣١١، ٣٣٣، ٣٤٥، ٣٨٧، ٤٢٢، ٤٣٦، ٤٩٧، ٥٣٥.

الجمالية[1].

وقد كنتُ شرعتُ -بتوفيق الله ﷻ- في جمع المادة العلمية لهذا البحث ودراستها دراسة فنية جمالية قبل أن أطلع على هذه الرسالة بزمنٍ، وحين اطلعت عليها زادني ذلك تصميمًا على مواصلة البحث من الناحية البلاغية حتى تكتمل دراسة الفـرائد من شتي الجهـات والمحاور[2].

وللأمانة العلمية ينبغي أن أُشير هنا إلى إفادتي من هذه الرسالة في تثبيت عدد الفرائد التي جمعتها، وقد استدركت عليه بعضها كما سيأتي بعد.

٤- وأحدث ما صدر مـن مؤلفـات في هذا المجال بحـث بعنـوان (الألفاظ الوحيدة في القرآن وسر إعجازها)[3] وهو كتيب صغير ذكر فيه الباحث أكثر فـرائد القـرآن حوالي (٣٧١) فريدة كل فريدة مصحوبة بذكر معناها المعجمي بإيجاز شديد، ولم يتطرق ألبتة لأي لمحـة بيانية أو خصيصة جمالية في تلك الفرائد، وهذا يتناقض مع عنوان البحث الذي يشير بأنه درس هذه الألفاظ دراسة بلاغية مُبينًا عن أسرار

---

(١) مفاريد الألفاظ في القرآن دراسة لغوية رسالة (ماجستير) للباحث محمود يونس مخطوطة بكلية اللغة العربية بالقاهرة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م .

(٢) ولكنى قد شغلتُ عن مواصلة السير في هذا البحث بالرغم من توافر مادته العلمية لديَّ ببحث آخر هو (مصر في القرآن دراسة بلاغية) الصادر عام ١٤٢١هـ بمناسبة مرور ١٤٠٠عام على دخول الإسلام مصر، وقد عرضتُ فيه لبعض الفرائد المتصلة بذلك الموضوع، وهاأنا ذا أعود من جديد لدراسة هذا الموضوع الجديد في بابه بعد انقطاعي فترة عنه.

(٣) راجع بحث الألفاظ الوحيدة في القرآن وسر إعجازها د/ عاطف المليجي - دار حورس للطباعة والنشر عام ٢٠٠٢م - القاهرة.

إعجازها، وهذا ما لم يحدث، ومن ثَمَّ فلن ألتفت إليه في هذا البحث، لأن مادته العلمية لا جديد فيها.

وبعد هذا العرض المفصل حول الحديث عن الفرائد قديمًا وحديثًا نبدأ بعون الله وتوفيقه في تحليل تلك الفرائد، وبيان أسرار التعبير بها وفق المنهج الذي انتهجناه.

فأقول وبالله التوفيق ومنه العون والسداد:

المبحث الأول

أسرار التعبير بالفرائد القرآنية في قصة نوح عليه السلام

نبي الله نوح عليه السلام [1] من الرسل المذكورين في القرآن الكريم، وقد ذكرت قصته في القرآن في أكثر من سورة طويلة وقصيرة، كما سميت باسمه سورة تكريمًا له وتعظيمًا.

وباستقراء قصته عليه السلام في هذه السور المباركة وجدتها قد اشتملت على ست فرائد لم تتكرر مطلقا مادة وصيغة، هي على ترتيب [2] دراستها: (نَسرا - تزدري -

(١) بدأت بالفرائد في قصة نوح لأنه لم ترد في قصة آدم عليه السلام فرائد؛ لأنه لم يكن مسبوقًا بأحد من البشر يتفرد عليه، كما أن خلقه من تراب كان في حد ذاته معجزة فريدة، كما لم ترد في قصة إدريس عليه السلام فرائد لقلة الآيات الواردة عنه في القرآن، ولعدم احتواء قصته على عجائب وغرائب تومئ إليها تلك الفرائد، وهكذا الحال في قصص بقية الأنبياء المذكورين في القرآن الذين لم ترد في قصصهم فرائد مثل إسحاق - يعقوب - اليسع - إلياسين - ذا الكفل، والله أعلم.

(٢) ترتيب دراسة الفرائد خاضع لاعتبارات مختلفة تفرضها الدراسة في كل مبحث حسبما يتراءى للباحث.

منهمر - دُسـر - ابلعـي - أَقلعي).

وسوف نركز على دراسة تلك الفرائـد، ولن نعرض للألفاظ التي تجاورها في الآيات إلا بقدر ما يقتضيه سياق البحث والدرس.

فنبدأ وبالله التوفيق:

الفـريدة الأولـى: ﴿وَنَسْرًا﴾، وقـد وردت فـي قـولـه تعالـى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

وقد أجمع اللغويون والمفسرون على أن (وَدًّا - وسواعا - ويغوث - ويعوق - ونسرا) أسماء أصنام كان يعبدها قوم نوح عليه السلام وقد كانت هذه أعظم أصنامهم؛ لذا خُصت بالذكر بعد ذكر أصنامهم بوجه عام في قوله تعالى: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾، وما يهمنا هنا هو بيان السر وراء مجيء الفريدة ﴿وَنَسْرًا﴾ مرة واحدة لم تتكرر على أي صورة أو صيغة من الصيغ، وقبل بيان ذلك نعرج على ما ورد لدى أهل اللغة والتفسير حول معنى هذه اللفظة.

يقول السمين الحلبي في عمدة الحفاظ: «﴿وَنَسْرًا﴾ قيل: هو اسم صنم، وكان ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر أصنامًا تعبد من دون الله... وكان ود على صورة رجل، وسواع امرأة، ويغوث أسدًا، ويعوق فرسًا، ونسر نِسْرًا»[1].

وإلى ذلك ذهب المفسرون، ولكنهم فصلوا القول في نشأة تلك الأصنام أرجحها

---

(١) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ ٤/ ١٩٦، ومفردات الراغب ٥١١، ولسان العرب (نسر) .

ما ورد عن «محمـد بن كعب: أن هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح فنشأ بعدهم قوم يقتدون بهم في العبادة، فقال لهم إبليس: لو صورتم صورهم كان أنشط لكم وأشوق إلى العبادة ففعلوا، ثم نشأ قوم من بعدهم فقال لهم إبليس: إن الذين من قبلكم كانوا يعبدونها فاعبدوهم، فابتداء عبادة الأوثان كان من ذلك الوقت»[1].

أما لماذا جاءت هذه الكلمة في القرآن فريدة وحيدة فلذلك أسرار عديدة منها:

- أن حروف هذه الفريدة الثلاثة مجهورة، والجهر من صفات القوة في الحروف، وكأن هذا الصنم لديهم كان عنوان القوة والجبروت. وهذه القوة المفهومة من حروف هذه الفريدة تتواءم مع معنى النسر في اللغة «فالنسر طائر من الجوارح حاد البصر قوي سريع الخطى»[2] مع ملاحظة دلالة حرف الراء الذي يدل على تكرار الحدث مما يوحي بأنهم كانوا يداومون على عبادتـه، ويكررون الخضوع والخنـوع له أكثر من غيره، والله أعلم.

- ومنها الإشارة إلى أن هؤلاء القـوم قد أتوا بفعلة شنيعة، وجريرة خطيرة لم يُسبقوا بها من قبل، تفردوا بها بيـن الأمم، يؤكد هذا أن القـرآن لم يذكر أن أحدا من أولاد آدم، وأتباع إدريس قد عبدوا الأصنام، وأول من خصهم بعبادة الأوثان كانوا قوم نوح الذين سنوا سنة سيئة عليهم وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، وقد ألمح إلى ذلك الشيخ صديق خان كما مر في قوله: (فابتداء عبادة الأوثان كان من ذلك الوقت).

---

(١) فتح البيان في مقاصـد القرآن ١٠/ ٨١، وانظر على سبيل المثال: تفسير الطبري ٢٢/ ٢٧٧، وتفسير القرطبي ١٨/ ٣١٠، والفتوحات الإلهية للجمل ٤/ ٤١٣ .

(٢) المعجم الوسيط ٢/ ٩٥٤ .

- ومنها أن هذا الصنم ربما كان أعظم معبوداتهم الباطلة التـي كانت متفاوتة في العظم - كما يقول الألوسي [(١)] - يدل على ذلك أنـه كان على صورة النِّسْرِ - كما سبق - والنِّسْرُ من أقوى الطيور وأعظمها وأطولها عمرًا فخصوه بمزيد من التبجيل والتوقير.

- ومنها أن هذه الفريدة تحكي تفرد موضعها في القرآن إذ لم يرد في موطن آخر في الذكر الحكيم مثل هذا العدد من الأصنام منسوبًا لأي أمة من الأمم إلا لقوم نوح، فعكست هذه الفريدة تفردهم بتلك الأمور العديدة، والله أعلم.

❊ ❊ ❊

الفريدة الثانية: ﴿تَزۡدَرِيٓ﴾، ووردت فـي قـوله تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:٣١].

وقد جاءت على لسان نوح عليه السلام في سياق رده على قومه أنه لن يطرد من مجلسه المؤمنين الذين يحتقرهم هؤلاء السادة الكبـراء، ولن يقول إرضاء لهم لن يؤتيَهم الله خيرًا؛ لأن الله يعلم بما في نفوس الجميع، ويحاسب كلًّا على قدر عمله.

والفريدة ﴿تَزۡدَرِيٓ﴾ أصلها: «تزتري على وزن تفتعل إلا أنه اجتمعـت الزاي مع تاء الافتعال، والتاء مهمـوسة، والزاي مجهـورة فأبدل من التاء دالًا لقرب مخرجها، ولِتجانس الـزاي فـي الجهر، فقالوا: تزدري نحو يزدجر ويزدهي»[(٢)].

---

(١) تفسير الألوسي ١٨/ ٧٥.

(٢) البيان في غريب إعراب القرآن للأنباري تحقيق د/ طه عبد الحميد طه ٢/ ١٢.

هذا عن أصل تلك الفريدة.

أما عن دلالتها فقد أورد لها اللغويون عدة معانٍ متقاربة، ففي عمدة الحفاظ يقول: «قوله تعالى: ﴿تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ﴾ أي تعيب يقال زريت عليه: أي عبته، وأزريت به قصَّرت به، وكذا ازدريت به.

وقيل في قوله: ﴿تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ﴾ تقديره تزدريهم أعينكم أي: تهينهم وتستقلهم، وقيل: تحتقرهم وتستخسهم، والمعاني مقاربة»[(١)].

وفي لسان العرب: «الازدراء: الاحتقار والانتقاص والعيب وهو افتعال من زريت عليه زراية: إذا عبته»[(٢)].

ولم يخرج المفسرون عما قاله اللغويون في حديثهم عن دلالة تلك الفريدة، يقول ابن الجوزي: «﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ﴾ أي تحتقر وتستصغر المؤمنين، قال الزجاج: تزدري تستقل وتستخس يقال: زريت على الرجل: إذا عبت عليه، وخسست فعله»[(٣)].

إذن لماذا عبر المولى عز وجل بهذه الفريدة دون غيرها من الألفاظ التي ذكر

---

(١) عمدة الحفاظ ٢/ ١٥٧، ومفردات الراغب ٢١٧.

(٢) لسان العرب، والقاموس المحيط (زرى)، وانظر معه المصباح المنير ٩٦، ومختار الصحاح ١١٤، والمعجم الوسيط ١/ ٤٠٧.

(٣) زاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٩، وانظر معه على سبيل المثال تفسير الطبري ٧/ ٣٥ والكشاف ٢/ ٢٦٧، ومفاتيح الغيب ١٦/ ٥١٤، وتفسير القرطبي ٩/ ٢٧، وتفسير أبي السعود ٤/ ٢٠٣، والألوسي ٧/ ٥٨٩، والتحرير والتنوير لابن عاشور ١٢/ ٥٨، وتفسير المنار ١٢/ ٥٨.

اللغويون والمفسرون أنها بمعناها، ومنها ما ورد في القرآن كالعيب والقلة والانتقاص والإهانة [1]، ومنها ما لم يرد فيه ألبتة مثل الاحتقار والخسة ؟

أرى أنَّ ذلك راجعٌ -والله أعلم- إلى أن في الفريدة أسرارًا لا توجد في تلك الألفاظ السابقة منها:

- أن حروف هذه الفريدة تحكي المعنى بوضوح شديد، تأمل حرف الراء المكسورة الممدودة التي تبين عن أن ازدراء الكافرين لهؤلاء المؤمنين أمر مركوز في طبائع قوم نوح، كما يحكي حرف الراء المكرر بطبعه أن هذا الازدراء يتردد في نفوسهم في كل وقت وحين ومن يجر على لسانه بقية الحروف يجدها كلها تتراوح بين الجهر والشدة، ولها في نطقها قوة تنبئ عن شدة احتقار هؤلاء الكافرين المكذبين للمؤمنين، والله أعلم.

- هذه الفريدة أكثر ثراء، وأغنى دلالة؛ لأنها تحمل في طياتها معانيَ الألفاظ التي تقاربها، ناهيك عن أن كثرة المبنى تدل على وفرة المعنى إذ لم يقل: (للذين تزريهم) من أزرى، ولكنه أتى بها من الخماسي (ازدرى) وفي هذا إيماء إلى قوة الازدراء والاستخفاف، وأنهم بلغوا في ذلك مبلغًا كبيرًا وخطيرًا، ثم استمرارهم ومداومتهم على هذا السلوك المشين مع طول الأمد والعهد، ولهذا عبر بالمضارع إلفاتًا إلى هذا الملحظ، والله أعلم.

- تومئ هذه الفريدة إلى أن تلك الخصلةَ المرذولة في هؤلاء الكافرين قد

---

(١) يراجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٦٢٨ ـ ٧٠٠ ـ ٧٠١ ـ ٨٨٨ ـ ٩٠٨ فقد وردت هذه الألفاظ تحمل دلالات أخرى .

ترسخت في نفوسهم، وانطبعت في عقولهم حتى صارت ديدنًا لهم تفردوا بها -على هذا النحـو المقيـت- بين مكذبي الأمم جميعـًا، وصار هذا الوصف في القرآن خاصًا بهم لا يشركهم فيه غيرهم، ومن ثَمَّ كان هذا هو الموضع الوحيد في القرآن العظيم كله الذي ذكر فيه هذا اللفظ الفريد.

- تعكس هذه الفريـدة -بدقة- مدى قصر نظر هؤلاء المكذبيـن الضالين؛ لأن ازدراءهم للمؤمنين لم يصدر عن روية وتدبر، وإنعام نظر بل عن نظرة عجلى وغرور مقيـت وعنجهية مرذولة بما عاينوه من رثاثة حالهم، وقلة مالهم، وكان الأجدر بهم أن يلتفتوا إلـى كمالاتهم الباطنيـة، وفضائـلهم النفسانيـة، وذاك يفسر سر إسنـاد الازدراء إلى عيونهم على سبيل المجاز العقلي دون ذواتهم، وهذا -من طرف خفي- رد على أن المؤمنين لم يكونوا أراذل وحقراء كما زعم هؤلاء؛ لأن الازدراء -في حقيقته- لا يعدو أن يكون رؤية عينية دون تأمل وتدبر في إيمانهم الوثيق، وسيرتهم العطرة، وسلوكهم المحبب الجميل، كما أنَّ في اللفظة ردًّا على أن الازدراء لا يرفع من قيمة المزدرِي، ولا يحط من شأن المزدَرى به، والله أعلم.

* * *

الفريـدة الثالثـة: ﴿مُّنْهَمِرٍ﴾، ووردت في قولـه تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ [القمر:١١].

وقد ذكر اللغويون أن ﴿مُّنْهَمِرٍ﴾ بمعنى مُنصَبٍّ، يقول السمين الحلبي: «قوله تعالى: ﴿بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾، الهمر: صبّ الماء والدمع

يقال: همرت الماء فانهمر، وهمرت الدمع»[1].

وزاد المفسرون فذكروا أن ﴿مُّنۡهَمِرٖ﴾ أيضًا بمعنى كثير غزير

يقول القرطبي: «﴿مُّنۡهَمِرٖ﴾ أي: كثير قاله السدي، قال الشاعر:

أَعَيْنَيَّ جُودَا بالدُّمُوعِ الهَوَامِرِ ** عَلَى خَيْرِ بَادٍ مِنْ معَدٍّ وَحَاضِرِ

وقيل: إنه المنصب المتدفق، ومنه قول امرئ القيس يصف غيثًا:

رَاحَ تُمْرِيهِ الصَّبَا ثُمَّ انْتَحَى ** فِيهِ شُؤْبُوبُ جَنُوبٍ مُنْهَمِرْ[2].

ويقول الشيخ صديق خان في فتح البيان: «﴿مُّنۡهَمِرٖ﴾ غزير نازل بقوة، أي منصب انصبابًا شديدًا في كثرة وتتابع لم ينقطع أربعين يوما»[3].

وقد فضل الذكر الحكيم التعبيرَ بهذه الفريدةِ دون غيرها من الألفاظ التي تقاربها في المعنى نحو منصب وكثير وغزير لسمات بلاغية عديدة منها:

- هذه الفريدة أبلغ وأوجزُ لأنها تضم في ثناياها المعانيَ السابقةَ كلَّها، ولا منافاةَ بينها جميعها فالماء النازل من السماء كان مصبوبًا ومتدفقًا بكثرة وغزارة.

- حروف هذه الفريدةِ - لمن يُجريها على لسانه بدقة وتأمل - توحي بانهمار الماء ونزوله بكثرة ووفرة، تأملْ جرسَ الهاء المفتوحة الخارجة من الحلقِ، وهي تحمل

---

(١) عمدة الحفاظ ٤/ ٣٠٠، ومفردات الراغب ٥٤٣، ومقاييس اللغة لابن فارس ٦/ ٦٥ والقاموس المحيط ٢/ ١٦٢، ولسان العرب (همر)، ومختار الصحاح ٢٩١.

(٢) تفسير القرطبي ١٧/ ١٣١ ـ ١٣٢، والدر المنثور للسيوطي٧/ ٧٥، وتفسير النسفي ٤/ ١٩٥، وروح المعاني للألوسي ١٧/ ١٨٥.

(٣) فتح البيان للشيخ صديق خان ٩/ ١٩٩.

دفقةً هوائية دون عائق، وما فيها من سلاسة وسهولة تحكي تدفق الماء النازل من السمـاء وانسيابه، ثم صوتَ الراء المنونة في حالة الوصل، الساكنةِ في حالة الوقف عـلاوةً على ما في طبيعتها من تَكرار؛ كل ذلك يصور وقع نـزول المطر على الأرض بشدة وقوة وتتابع وكأنك تسمع صوته عند نزوله.

- تتساوق هذه الفريدة مع سياقها أتم تساوق: فانهمار الماء من السماء كان نتيجة لدعاء نوح ﷺ علي قومه كما يظهرُ من السياق السابق مباشرة في قوله تعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ﴾ فاستجاب الله ﷻ لدعائه على الفور، كما تدل عليه الفاء في قوله: ﴿ فَفَتَحۡنَآ ﴾ فنزل الماء كثيرًا غزيرًا على صورة غير معهودة في تاريخ البشر. ونظمُ الآية الرائع يؤكد ذلك حيث أسند الفتح إلى ضمير العظمة مباشرةً، وما في هذا الإسنـاد من قوة ورهبـة وفخامة، ثم التعبيرُ بالجمع ﴿أَبۡوَٰبَ﴾، والتنكيرُ المفيد للكثرة في (ماء منهمر).

إذا كان الحالُ كذلك فكيف يكون انصباب الماء؟ لابد أن يكون قويـًّا شديدًا كثيرًا غزيـرًا بلغ أقصى الحد ومنتهى الوصف، كما هو مفهوم من هذه الفريدة وسياقها بدقة، فجاءت في موضعها الأشكل بها وتناسبت مع سياقها أتم تناسب، ولو وُضعَ غيرُها مكانَها لَلَفَظَها سياقُ الكلام، ورفضَها المعنى العام، فكأنما خلقت لهذا المكان وخُلق لها.

- مجيء هذه الفريـدةِ -على تلك الصيغةِ- فيه رعايةٌ للفاصلةِ المبنيةِ على حرف الراء في السورةِ كلها، وأثرُ ذلك في الحفاظ على الجرس النغمي، والانسجـام الصوتي الذي يسري في أوصال تلك السورة الكريمة باطراد واضح.

- تومئ هذه الفريدةُ إلى تفرد موضعها في القرآن بهذا الأسلوب الفخم وذاك النظمِ العجيب، كما ترشدُ إلى أن نزول الماء على تلك الصفة كان أمرًا فريدًا عجيبًا مُذ خلق الله الأرض إلى يوم القيامة تلبيةً لدعاء نوح ﵇ تفرد به بين الأنبياء قاطبة.

- تشيرُ هذه الفريدةُ إلى أن عذابَ قوم نوح ﵇ كان بالغرق في الماء الذي هو سببُ النماء والحياة والخير والبركة، وكان نبيهم نوحٌ ﵇ يعِدُهم إن آمنوا واتقوا أن يُنزل الله عليهمُ الماءَ مدرارًا ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح ١٠- ١١]، ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [هود:٥٢]، فلما لم يستجيبوا، ويستغفروا ربهم عاقبهم بماء منهمر فُتحت فيه أبوابُ السماء على مصراعيها فجاءهم العذاب من جنس ما كانوا يؤملون من الخير والنعمة، والله أعلم.

* * *

الفريدة الرابعة: ﴿وَدُسُرٍ﴾ وقد ذُكرت في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر:١٣].

وهذه الفريدة ترتبط بالسابقة أشد ارتباط؛ لأن المولى ﷿ حين فتح أبواب السماء بماء منهمر، وفجر الأرض عيونا كثيرة التقى فيها الماءان على أمر قد قُدِر أمرَ سبحانه نوحًا ﵇ أن يركب السفينة التي كان قد صنعها قبل الطوفان، تلك السفينة العجيبة الغريبة التي جاء التعبير عنها هنا - كما يقول البلاغيون - بالأسلوب الكنائي في قوله: ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾.

وقد اشتمل أسلوب هذه الكناية البليغة على الفريدة ﴿وَدُسُرٍ﴾.

وقد اختلف اللغويون في المراد منها على أقوال عديدة: «قيل الدسر: المسامير، الواحد دسار... وقال الحسن: الدسر صدر السفينة؛ لأنها تدسر الماء أي تدفعه بصدرها، وقيل: هي أضلاعها، وقيل: شُرُطها التي تُشد بها كما تشد بالمسامير، وقيل: أصلها وطرفاها»[1].

وقد نَحَتْ كتبُ التفسير منحى كتب اللغة يقول ابن الجوزي: «في الدسر أربعة أقوال: أحدها: أنها المسامير رواه الوالبي عن ابن عباس، والثاني: أنه صدر السفينة؛ سمي بذلك لأنه يدسر الماء أي يدفعه رواه العوفي عن ابن عباس، الثالث: أن الدسر أضلاع السفينة قاله مجاهد، الرابع: أن الدسر طرفاها وأصلها، والألواح جانباها قاله الضحاك»[2].

ولم يخرج أحد من المفسرين[3] عما قاله ابن الجوزي، مع اختلافهم في ذكر هذه الوجوه الأربع كلها أو بعضها.

والراجح من هذه الآراء -والله أعلم- أن (الدسر) -هنا- هي: المسامير، وليس صدر السفينة، أو أضلاعها، أو طرفاها وأصلها؛ لأن صدر السفينة

(١) عمدة الحفاظ ٢/ ٧، ولسان العرب (دسر)، ومختار الصحاح ٨٦، وبصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي ٢/ ٥٩٩، وانظر الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق د/ بنت الشاطئ ٥٣٥-٥٣٦.

(٢) زاد المسير لابن الجوزي ٨/ ٩٣.

(٣) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٤٠، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ١٠٦، وتفسير الطبري ١١/ ٥٩٩، والكشاف للزمخشري ٤/ ٣٨، وتفسير القرطبي ١٧/ ١٣٢-١٣٣، وتفسير الجمل ٤/ ٢٤٤، وفتح البيان ٩/ ٢٠٠.

وأضلاعها وأصلها لا يكون إلا من الألواح الخشبية وقد سبق ذكرها في قوله: ﴿ذَاتِ أَلْوَاحٍ﴾، فبقي النص على ما يربط هذه الألواح، ويؤلف بينها بقوة وشدة وإحكام وهي المسامير.

أما لماذا استعاض عن ذكر المسامير وجاء بدسر، ولو ذُكرت المسامير لكانت فريدة أيضًا فذلك يعود لأمور كثيرة منها:

- أن حروفها وحركاتها تصور المعنى أتم تصوير وأوفاه: فحرف الدال شديد مجهور، وقد زادته الضمة شدة وقوة، ثم السين المضمومة والراء المجهورة المنونة ضاعف ذلك كله من القوة والشدة والإحكام، وصورت الدسر وهي تمتد وتتعمق في ألواح السفينة لتزيد من شدة إحكامها وقوتها نظرًا لما ينتظرها من أهوال الموج وشدة العواصف.

وهكذا دلت الفريدة على المطلوب دلالة وافية بإيقاع أصواتها، وقوة حركاتها، ومن ثَمَّ عبر بالجمع (دُسُرٍ) دون المفرد (دسار)؛ لأن هذه المعاني لا تُفاد إلا من هذا الجمع فحسب، ولفظة المسامير لا توحي ألبتة بتلك المعاني، والله أعلم.

- في التعبير بـ (دُسُرٍ) دلالة صريحة على المسامير مع قوة اللفظة ووجازتها؛ لأن «أصل الدسر: الدفع الشديد بقهر سمي به المسمار لأنه يدق فيدفع بشدة»[(١)].

- في الفريدة (دُسُرٍ) إيماء إلى أن هذه السفينة ربما تكون أول سفينة صُنعت في التاريخ كما ذكر ابن عاشور[(٢)]، أو أنها أول سفينة تصنع من الألواح

(١) روح المعاني للألوسي ١٧/ ١٨٧ .
(٢) التحرير والتنوير ٢٧/ ١٨٤ .

الْمُثْبتة بالمسامير، ولم يكن ذلك معروفًا من قبلُ فأشارت الفريدة إلى تفرد هاتين الحالتين، والله أعلم.

- كما تدل هذه الفريدة على تفـرد صناعة هذه السفينة؛ لأنها صنعت بوحي من الله ﷻ وتحت رعايته وعنايته كما قال سبحانه: ﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا ﴾ [المؤمنون:٢٧]، والمصنوع بأمره ووحيه لابد أن يكون في قمة الجودة والمتانة والحذق والمهارة، ومِن ثَمَّ استطاعت هذه السفينة استيعاب صنوف شتى من الخلائق فكانت أعجوبة زمانهـا وفريدة عصرها، ولا توجد سفينة غيرها في الكون قديمًا وحديثًا صُنعت هكذا، فتفردت بهذه الصفة في تاريخ النبوة والإنسانية جميعًا.

- عكست هذه الفريدة من طرف خفي المهنةَ التي تفرد بها نوح عليه السلام عن باقي الأنبياء وهي مهنة النجارة - كما تفـرد غيره من الأنبياء بمهن أخرى سيأتي ذكرها - وهكذا فإن تلك الفـريدة أوفى غرضًا وأدق وضعًا، ولا يمكن أن تحل لفظة أخرى محلها أو تسد مسدها.

فلله در كلمات القرآن ما أروعها، وما أكثر إيحاءاتها، وأعظمَ إشاراتها فهي كنز لا ينفد، وعطاء دائم مستمر لا ينقطع.

* * *

الفريدة الخامسة والسادسة: ﴿ٱبۡلَعِي﴾ ﴿أَقۡلِعِي﴾، وقد وردتا فـي قـوله تعالـى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود: ٤٤].

بعدما ركب نوح عليه السلام ومن آمن معه في الفلـك، وغرق من

كذب به، أمر الله ﷻ الأرض أن تبلع ماءها، والسماء أن تمسك مطرها حتى يعود الكون إلى سيرته الأولى، هذا هو سياق الآية التي حوت فريدتين لم يردا إلا في هذا الموطن.

وقد ذهب اللغويون والمفسرون في معناهما مذاهب شتى نعرضها بإيجاز ثم ندلي بدلونا إن شاء الله تعالى.

ونبدأ بالفريدة ﴿ٱبۡلَعِي﴾:

يقول ابن فارس: «الباء واللام والعين أصل واحد وهو ازدراد الشيء، تقول: بلعت الشيء أبلعه»[(١)].

وفي لسان العرب: «بلع الطعام وابتلعه: لم يمضغه»[(٢)].

وفي عمدة الحفاظ: «البلع: تغييب الشيء في الجوف ثم يطلق على كل تغييب على سبيل التشبيه، يقال: بلعت الشيء أبلعه بلعًا، ومنه البالوعة»[(٣)].

وفي المعجم الوسيط: «بلع الماء والريق يبلع بلعًا جرعه»[(٤)].

وهذه المعاني الحقيقية هي التي تردد الحديث عنها في كتب التفسير.

يقول الطبري: «﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾، أي: تشربي، من قول القائل: بلع فلان

(١) مقاييس اللغة ١/ ٣٠١.
(٢) لسان العرب (بلع).
(٣) عمدة الحفاظ ١/ ٢٦٠.
(٤) المعجم الوسيط ١/ ٧٢.

كذا يبلعه: إذا ازدرده»[1].

ويقول الفخر الرازي: «بلع الماء يبلعه بلعا إذا شربه، وابتلع الطعام ابتلاعًا: إذا لم يمضغه»[2].

ويقول الشيخ صديق خان: «البلع: الشرب وتغوير الماء ومنه البالوعة، وهي الموضع الذي يشرب الماء، والازدراد يقال بلع ما في فمه من الطعـام: إذا ازدرده»[3]، وهكذا فإن البلع لدى اللغويين والمفسرين يطلق حقيقة على ازدراد الشيء، وجرعه وعدم مضغه وتغييبه في الجوف، وكلها معان متقاربة.

ولكن البلع في الآية لا يراد منه هذا المعنى الحقيقي بل هو مستعار للنشف كما يقول الشيخ صديق خان: «استعير البلع الذي هو من فعل الحيوان للنشف دلالة على أن ذلك ليس كالنشف المعتاد الكائن على سبيل التدريج، قال الخفاجي: (النشف) من نشف الثوب العرق كسمع وبصر إذا شربه، قال المدقق: هذا أولى من جعل السكاكي البلع مستعارًا لغور الماء في الأرض لدلالته على جذب الأرض ما عليها، كالبلع بالنسبة إلى الحيوان؛ ولأن النشف فعل الأرض، والغور فعل الماء، فلله دره ما أكثر اطلاعه على حقائق المعاني، وقال عكرمة: ابلعي هو بالحبشية ازدريه، وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال معناه: اشربي بلغة الهند، أقول: وثبوت لفظ البلع وما يشتق منه في لغة العرب ظاهر مكشوف فما لنا وللحبشة والهند والمعنى انشفي

---

(١) تفسير الطبري ١٢/ ٤٦، تفسير المنار ١٢/ ٦٧ .

(٢) مفاتيح الغيب ١٦/ ٥٣٧ .

(٣) فتح البيان٤/ ٣٥٩، والفتوحات الإلهية للجمل ٢/ ٣٩٩ .

وتشربي»[1].

إذن لماذا آثر النظم الكريم هذه الفريدة على غيرها من الألفاظ التي تقاربها معنى؟

أرى أن ذلك راجع - والله أعلم - إلى أمور منها:

- أنَّ التعبير بهذه الفريدة -دون غيرها- هو عنوان الإيجاز وقمة الإعجاز؛ لأن المولى ﷻ لا يريد من الأرض أن تمتص مياهها هنيهة هنيهة، كما يفعل الآكل عند مضغه لطعامه، بل يريدها أن تزدرد ماءها بسرعة كما يبلع الجائع المنهوم اللقمة فتصل إلى جوفه من أول وهلة دون أن يمضغها مضغًا، فجمال اللفظة وسحرها يعود إلى أنها استعارة -كما مر- حيث شبه الأرض في ابتلاعها الماء دون تأخير وإبطاء بإنسان يبلع الطعام بلعًا دون مضغه مضغًا على سبيل الاستعارة المكنية، وذلك -بلا شك- يكون أسرع لجفاف الماء مما لو قال: نشفي أو جففي، وكأن الأرض «لما اتجهت إليها إرادة العزيز الخبير انقلبت مسامها وشقوقها إلى أفواه فاغرة تبتلع بها المياه ابتلاعًا فهي لم تنفذ الأمر بالطبيعة المألوفة لها، وإنما بالانقياد لأمر خالقها جل جلاله»[2].

وهذا يدل على فضل هذه اللفظة التي لا يمكن لغيرها أن يغني غناءها، ورحم الله عبد القاهر[3] حين لم يجعل لهذه اللفظة -مفردة- موضعًا في الفصاحة و البلاغة إلا من خلال النظم الواردة فيه.

---

(١) فتح البيان ٤/ ٣٥٩ .

(٢) جماليات المفردة القرآنية ٥٣ .

(٣) دلائل الإعجاز ٤٥ ـ ٤٦ .

وقد رأينا من خلال هذا التحليـل أن هذه اللفظة قد بذت غيرها من الألفاظ التي تقاربها جرسًا وصوتًا ومعنى، وعذر الشيخ في ذلك أنه كان يرد على من ينسب الفضل كل الفضل للفظ دون النظم.

– أن في هذه الفريدة إيمـاءً إلى أن ابتلاع الأرض للماء الكثير الذي تفجر منها لم يكن له نظير ولا مثيل، فهو كما قال المفسرون: ليس كالنشف المعتاد التدريجي، بل كان شيئًا عجيبًا فريدًا في ذاته لم تألفه الأرض مذ ذلك التاريـخ إلى يوم القيامة فقد بلغ حد الإعجاز، ومثلما كان خروج الماء من باطن الأرض بكثرة وغزارة على غير المعتاد كما يفهم من النظم المبـارك في قولـه: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ كذلك كان دخول الماء في جوفها على غير المعتاد، فتمّ التلاؤم بين الإدخال والإخراج، والله أعلم.

– أن في التعبير بهذه الفريدة إشارة إلى تفرد ذلك الموضع في القرآن الكريم، وتفرد تلك الحالة في تاريخ النبوة والإنسانية، والله أعلم.

* * *

أما الفريدة ﴿أَقْلِعِي﴾ فقد ذهـب اللغويون والمفسرون إلى أن الإقلاع بمعنى: الإمساك والكف والإزالة يقول السمين الحلبي: «قوله تعالى: ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي﴾ أي: أمسكي ماءك، من قولهم: أقلعت الحمى إذا زالت، والإقلاع الإزالة»[1].

ويقول الفخر الرازي: «قوله تعالـى: ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي﴾، يقال: أقلع الرجل عن

(١) عمـدة الحفـاظ ٢/ ٣٢٩، وانظر لسان العرب (قلع)، ومختار الصحاح ٢٢٩، والمعجم الوسيط ٢/ ٧٨٤ .

عمله إذا كف عنه، وأقلعت السماء بعـدما أمطرت إذا أمسكـت»[1]، وكلها ألفاظ متقاربة المعنى كما ترى، ولكن الظاهر أن «إقلاع السماء مستعار أيضًا لكف نزول المطر منها لأنه إذا كف نزول المطر لم يخلف الماء الذي غار في الأرض، ولذلك قدم الأمر بالبلع لأنه السبب الأعظم لغيض الماء»[2].

هذا، وقد انتقى الذكر الحكيـم هذه الفريـدة دون غيرها من الألفـاظ السابقـة التي من الممكن أن تحل محلها -عند من يقـول بالترادف- لأن في الفريدة أسرارًا ليست في تلك الألفاظ منها:

- أنها ترشد بدقة إلى أن السماء قد كفت عن إنزال المطر في التوِّ واللحظة ثم عودة الأمور إلى طبيعتها، واستمرار الحياة على وتيرتها.

أما لو قال: يا سماء أمسكي، لتوهم منه انحباس الماء ومنعه والضن به، وعدم إنزاله كما يفهم من الإمساك في اللغة، وهذا غير مراد؛ لأن فيه بوارًا وهلاكًا للحيـاة على الأرض، ولو عبر بلفظة أخرى من الألفاظ السابقة وهي مذكورة في القرآن في أكثر من موضع لَما أوحت بالمعاني المطردة في التعبير بالفـرائد، وهي تفرد هذا الموضع في القرآن الكريم، وعدم تكرره، وتفرد نبي الله نوح ﵇ من بين الأنبياء بمعجزة انفتاح أبواب السماء بإنزال الماء بكثرة ووفرة على غير العادة ثم أمر السماء بالإقلاع عن الماء بسرعة ودون مهلة علـى حد قولـه للشيء: كن فيكون، وتفرد هذه الحالـة في تاريـخ الإنسانية مذ كانت حتى يوم القيامة، والله أعلم.

(١) مفاتيـح الغيب ١٦/ ٥٣٧، وينظر تفسيـر الطبري ٧/ ٥٢، والكشـاف ٢/ ٢٧١، وتفسير أبي السعود ٤/ ٢١١، وتفسير الألوسي ٧/ ٦٢١ .
(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٢/ ٧٨ .

- ولا يخفى ما في هذه الفريدة والتي قبلها من إيقاع صوتي ناجم من حروفهما، وبخاصة حرف العين الذي يحكي استجابة الأرض والسماء بسرعة شديدة للأمر المتوجه إليهما، ناهيك عما في هاتين الفريدتين من تصوير بارع رائع أضفى على الكلام أبهة وجمالًا «وخلع الحياة على المحسوسات الجامدة والظواهر الكونية فجعلها ذات انفعال وتفكير وعاطفة»[1]، ثم «تأمل التجانس والإيقاع الموسيقي بين ابلعي وأقلعي كما أن القرآن اختار لفظ ﴿ٱبۡلَعِي﴾ على (ابتلعي) لكونه مختصرًا، وأكثر تجانسًا مع ﴿أَقۡلِعِي﴾، وتأمل كيف أن القرآن لم يقل يا أرض ابلعي فبلعت، ويا سماء أقلعي فأقلعت؛ لأن ذلك يوهم إمكانية المخالفة والتمرد على العظمة الإلهية بل قال فقط: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾؛ لأن الأمر الإلهي لا يُرد، والكون كله خاضع لكلمته ﴿كُن فَيَكُونُ﴾»[2].

هذا، وفي نظم الآية لطائف أخرى جمة فهي كما قال القرطبي «لو فُتش كلام العرب والعجم ما وجد فيه مثل تلك الآية على حسن نظمها، وبلاغة رصفها واشتمال المعاني فيها»[3]، ولا نطيل بعرضها هنا لأنها لا تدخل في صميم بحثنا فلتراجع في مظانها[4].

❁ ❁ ❁

---

(١) المشاهد في القرآن الكريم ٣٧٤ .
(٢) مع الأنبياء في القرآن الكريم ٧٦ .
(٣) تفسير القرطبي ٩/ ٤٠ .
(٤) ينظر على سبيل المثال خزانة الأدب للحموي ٢/ ٢٩١، المثل السائر لابن الأثير ١/ ١٦٦، صبح الأعشى للقلقشندي ٢/ ٢٨١ ـ ٢٨٢، تفسير الصابوني ٢/ ٦٠٢ .

المبحث الثاني

أسرار التعبير بالفرائد في قصة هود عليه السلام

خلف قومُ عادٍ قومَ نوحٍ كما قال تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩]، ولكن مع تطاول الزمان عاد القومُ إلى عبادة الأوثان، فأرسل الله ﷻ إليهم هودًا لينذرهم، ويخوفهم عاقبة أمرهم وارتكاسهم في ردغة الخبال، وقد حكى القرآن الكريم ما دار بين هود عليه السلام وقومه في أكثر من سورة من طوال السور وقصارها، كما سميت باسمه سورة تشريفًا له وتعظيمًا.

وباستقراء سياقات هذه القصة في تلك السور وجدتها قد احتوت على ست فرائد هي على ترتيب دراستها: (الأحقاف - ريع - إرم - منقعر - حسومًا - صرعى).

ونبدأ بالفريدة الأولى: ﴿الأَحْقَافِ﴾ التي سُلكت في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ

﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأحقاف:٢١].

والأحقاف جمع تكسير مفرده (حقف)، «وهو: الكثيب من الرمل المائل، قال امرؤ القيس:

فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وَانْتَحَى ** بِنَا بَطْنُ خَبْتٍ ذِي حِقَافٍ عَقَنْقَلِ

وقال الأزهري: الحقف: الرمل المستطيل، وقال الهروي: ما عظم واستدار»[(١)].

ولم يخرج المفسرون في معنى الأحقاف على ما ذكره اللغويون يقول الشيخ صديق خان في فتح البيان: «﴿بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾ هي ديار عاد جمع حقف، وهو الرمل العظيم المستطيل المعوج قاله الخليل وغيره»[(٢)].

ويحدد ابن عاشور مكانها فيقول: «الأحقاف جمع حقف بكسر فسكون، وهو الرمل العظيم المستطيل، وكانت هذه البلاد المسماة بالأحقاف منازل عاد، وكانت مشرفة على البحر بين عُمان وعدن وفي منتهى الأحقاف أرض حضر موت»[(٣)].

يلحظ مما سبق أن اللغويين والمفسرين مجمعون على أن الأحقاف هي: ما استطال من الرمال العظيمة ومال وأشرف واعوج كما يلاحظ أن هذه الفريدة لم يرد

---

(١) عمدة الحفاظ ١/ ٥٠٣، ومفردات الراغب ١٢٥ـ ١٢٦، وانظر لسان العرب، ومختار الصحاح، والمصباح المنير (حقف)، ومعجم البلدان ١/ ١١٥ .

(٢) فتح البيان ٨/ ٤٩٧، وتفسير الألوسي ١٦/ ٥١٧ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٦/ ٤٥، وانظر صبح الأعشى للقلقشندي ١/ ٣٦٤، وقصص الأنبياء والتاريخ ١/ ١٤٧ .

لها مترادفات منصوص عليها في كتب اللغة، أو القرآن، بل إن ما ذكر عنها لا يعدو أن يكون تفسيرًا لمعناها اللغوي.

ونحن بدورنا نتساءل ما هو سر مجيء هذه اللفظة فريدة وحيدة في القرآن مادة وصيغة؟

والجواب -والله أعلم- أن لتلك الفريدة أسرارًا جمة منها:

- أنها أوجز وأخصر مما فُسرت به، فلو قال (إذ أنذر قومه بالرمال المستطيلة المعوجة من أرض كذا) لطال الكلام، وسمُج، وبعُد عن الفصاحة والجزالة، وهما من أسرار إعجازه.

- الإشارة إلى أن تلك الرمال العظيمة المعوجة التي كانت مساكن لقوم عاد ربما لم يعهد لها نظير أو شبيه في بلاد الجزيرة العربية، أو أنها قد تفردت بتلك الصفات التي سبق الإشارة إليها، يرجح هذا -والله أعلم- تعريف الفريدة ﴿الأَحْقَافِ﴾ بأل العهدية؛ للإشارة إلى أنها كانت معروفة بتلك الصفات، وهاتيك الخصوصيات لدى المخاطبين عند نزول القرآن، كما يرجحه أيضًا مجيء الفريدة جمعًا؛ أي أنها كانت رمالًا متنوعة شكلًا وحجمًا، لا يكاد يوجد لها مثيل، وقد يستشف هذا أيضًا من قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ [العنكبوت:٣٨]، أي: وقد ظهر لكم من مساكنهم الأعاجيب والغرائب، والله أعلم.

- الإيماء إلى أن هذه الأماكن -على غير المعتاد والمتعارف في أمثالها- لم تكن قريبة من الطبيعة الصحراوية البدوية كما يفهم من هذه الفريدة عند إطلاقها، بل كانت فيها الأودية المليئة بالخيرات والجنات الكثيرة والعيون الغزيرة كما قال

تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ۝١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء:١٣٢-١٣٤]، كما كانت زاخرة بحضارة باذخة ذات أعمدة شاهقة، ومبان رائعة، ومصانع عديدة، وقصور تليدة مما جاء وصفها في القرآن في أكثر من آية، كما سيأتي.

- لم يعين القرآن موقع تلك الأحقاف اكتفاء بمعرفة المخاطبين بهذا الموقع كما يفهم من قوله: ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡ﴾ أو تجاهلًا لهذا المكان الذي غضب الله على أهله الكفرة فأبادهم عن بكرة أبيهم، وطمر حضارتهم الزائفة تحت هذه الكثبان الرملية العظيمة أو أن تعيين المكان ليس محلًا للعظة والعبرة.

- الإلماع إلى تفرد الحديث عن هذا الموضع في القرآن، فلم يرد الحديث ألبتة في أي موطن آخر عن ذاك المكان بعينه، والله أعلم.

* * *

الفريدة الثانية: ﴿رِيعٍ﴾، وقد وردت في قوله تعالى: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ﴾ [الشعراء:١٢٨]، وجاءت في مساق تقريع هود عليه السلام قومه لانشغالهم ببناء الأبنية الشامخة في كل مكان من أرضهم عبثًا ولهوًا لا عن ضرورة وحاجة ملحة.

والريع -كما ذكر اللغويون- يطلق على أكثر من معنى، يقول السمين الحلبي: «قوله تعالى: ﴿بِكُلِّ رِيعٍ﴾ الريع: كل طريق مشرف، قاله ابن عرفة، وأنشد للمسيب بن علس:

فِـي الآلِ يَخْفِقُهَا وَيَرْفَعُهَا ** رِيعٌ يَلُـوحُ كَأَنَّهُ سَحْلُ

وقيل: كل مكان مرتفع يبدو من بعيد، الواحـدة (ريعة)، وللارتفاع قيل: ريع البئر للجثوة المرتفعة حواليها»[(١)].

وزاد ابن فارس معاني أخرى للريـع، فقال: «الراء والياء والعين أصلان أحدهما: الارتفاع والعلو، والآخر: الرجوع، فالأول الريع، وهو الارتفاع من الأرض... فعلم مما تقدم أن كلمة الريع من الأصل الأول، وهو الارتفاع والعلو، والريع الطريق، وقيل: الجبل وقيل: المكان المرتفع، والريع: السبيل سُلك أم لم يسلك، والريع: برج الحمام»[(٢)].

وذكر المفسرون للريع أقوالًا قريبة من هذه المعاني السابقة مع الاختلاف في ذكرها كلها أو بعضها، يقول الألوسي: «﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾، أي: طريق، كما روي عن ابن عباس وقتادة، وأخرج ابن جرير وجماعة عن مجاهد أن الريع الفج بين الجبلين، وعن أبي صخر أنه الجبل، والمكان المرتفع عن الأرض، وعن عطاء أنه عين ماء والأكثرون على أنه المكان المرتفع»[(٣)].

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يعبر الذكر الحكيم بلفظ من هذه الألفاظ، وجاء

---

(١) عمدة الحفاظ ٢/ ١٤٩، ومفردات الراغب ٢١٤، ولسان العرب (ريع) .

(٢) مقاييـس اللغـة لابن فارس ٢/ ٤٦٧ ـ ٤٦٨، وانظر مختـار الصحـاح ١٢٢، والمصباح المنير ٩٤ .

(٣) تفسير الألوسي ١٣/ ٢٦٨، وانظر على سبيل المثال: مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٨٨، والكشاف ٣/ ١٢١، ومفاتيح الغيب ٢٣/ ١٥٣، وتفسير القرطبي ١٣/ ١٢٢، وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٥٦ .

بتلك اللفظة فريدة وحيدة؟

أرى - والله أعلم - أن ذلك يعود إلى أمور منها:

- أن حروف هذه الفريدة دون غيرها تشير إلى كثرة وتنوع وامتداد الأمكنة التي يبنون فيها، فالراء بما تفيده من جهر وتكرار، والياء المديدة المكسورِ ما قبلها، ثم حرف العين المنون بما له من صوت قوي مجهور يحكي ذلك كله بوضوح.

- تحمل هـذه الفريدة في طياتـها جميع المعانـي السابقة التي ذكرها اللغويون والمفسرون؛ لأنهم كانوا يبنون بكل طريق مشرف، وجبل، ومرتفع من الأرض يساعدهم في ذلك قوة بُنْيَانِهِمْ، وطول أجسامهم، يؤكد ذلك التعبير بكلمة (كل)، ولم يقل أتبنون بالريع أو بريع مما يدل على أن حركة البناء لديهم كانت على أشدها في كل ما يسمى ريعًا ولا توجد لفظة بديلة تنهض بحمل هذه المعاني كلها مع وجازتها وقلة حروفها، فجاءت الفريدة في موضعها الأشكل بها الذي لا يغني غيرُها غناءها.

- الإشارة إلى أن هؤلاء القوم قد تفردوا بالبناء في هذه الأماكن على غيرهم من الأمم السابقة، أو أنهم أول من بنى في تلك الأمكنة - أي في كل ما يطلق عليه ريع - مبانيَ فخمةً، وقصورًا ضخمة، لا لضرورة وحاجة ملحة «بل لمجرد اللعب، وإظهار القوة، ولهذا أنكر عليهم نبيهم عليه السلام ذلك؛ لأنه تضييع للزمان، وإتعاب للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة»[1].

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٤١، وانظر في ظلال القرآن ٥/ ٦٠٩، والتحرير والتنوير١٩/ ١٦٥، وقصص الأنبياء والتاريخ ١/ ١٤٩ .

وهذا منهم كان عجيبـًا غريبًا؛ لأنهم لم ينفقوا أموالهم فيما هو مفيد ونافع، بل أنفقوه في التيه والمباهاة والزينـة وإظهار البراعة والمهارة، والله أعلم.

- تومئ تلك الفريدة إلى تفرد موضعها في الذكر الحكيم إذ لم يتكرر هذا السياق بنصه وفصه في موضع آخر ألبتة.

* * *

الفريدة الثالثة: ﴿إِرَمَ﴾، وقد وردت في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [الفجر:٦-٨]، والخطاب في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ موجه لرسولنا الكريم تسلية لـه بما حدث لقـوم عاد الذين كانوا أشد من قريـش قوة وكفرانًا وطغيانًا.

وقد اختلف اللغويون في معنى ﴿إِرَمَ﴾ على آراء عدة، يقول السمين الحلبي: «قال تعالى: ﴿بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ﴾، قيل: هو سام بن نوح، وقيل: هو أبو عاد، وقيل: قبيلـة من عاد، وقيل: هو اسم قرية، وقيل: أمة من الأمم، وقيل: هي عاد الأولى، والإرم أيضًا: علم يبنى من الحجـارة جمعـه آرام، والحجارة أُرَّم، وإرم: بلدة عاد، ومعنـى قولـه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ أي: أعـلامها المرفوعة العتيدة المزخرفة»[1].

واختلف المفسرون كذلك في معنى إرم يقول الشيخ صديق خان «قرأ الجمهـور بتنويـن (عاد) على أن يكون قولـه: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ عطف بيان لـ (عاد)، والمراد بـ (عاد) اسم أبيهم، وإرم اسم القبيلة، أو بدلا منه، وامتناع صرف

---

(١) عمدة الحفاظ ١/ ٩٥، ومفردات الراغب ١٢، ومختار الصحـاح ٦، والمعجم الوسيط ١/ ١٩.

﴿إِرَمَ﴾ للتعريف والتأنيث.

وقيل: المراد بعاد أولاد عاد وهم عاد الأولى، ويقال لمن بعدهم عاد الأخرى... ولابد من تقدير مضاف على كلا القولين، أي أهل إرم أو سبط إرم؛ فإن إرم هو جد عاد لأنه عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح»[(١)].

والراجح -والله أعلم- أن ﴿إِرَمَ﴾ من الألفاظ الأعجمية المُعربة، وهي -كما يذهب أحد الباحثين- اسمٌ للمدينة التي كانت تقطنها عاد، وليست اسمًا للقبيلة؛ لأن «القرآن إذا أراد القبيلة جاء بضمير الجمع المذكر ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا﴾، وإذا أراد المدينة أي الموضع استخدم ضمير المؤنث ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾»[(٢)].

يرجح ذلك أيضًا وصف إرم بذات العماد وهو وصف لموضع وليس وصفًا لقبيلة فهي تعني: مدينة ذات أبنية عالية مرتفعة، يزيده ترجيحًا نعتها بوصف آخر وهو قوله: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ أي: في ذاك الوقت والأوان.

ولكن يبقى السؤال الأهم لماذا جاءت هذه اللفظة فريدة وحيدة في القرآن؟

أرى -والله أعلم- أن لذلك أسبابًا عدة منها:

- الإشارة إلى المكان بأخصر لفظ وأوجزه؛ لأن العرب المخاطبين كانوا على دراية كاملة بمعناه؛ بدليل أنه لم يرد ما يدل على عدم معرفتهم به، وقد كانوا على

---

(١) فتح البيان ١٠/ ٣٣٥-٣٣٦، وتفسير الألوسي ١٨/ ٤٨٨، وانظر تفسير القرطبي ٢٠/ ٤٤، والدر المنثور ٥/ ٤٣٤، والتحرير والتنوير ٣٠/ ٣١٨، والتفسير البياني للقرآن الكريم د/ بنت الشاطئ ١/ ١٣٨-١٣٩.

(٢) من إعجاز القرآن في أعجمي القرآن ١/ ٢٤١.

علم بأنساب العرب وقبائلها البائدة والباقية وهذا السر -أعني الإيجاز والاختصار- يطرد في الفرائد كلها، ثم تختص كل فريدة بخصوصيات وسمات خاصة بها.

- الإشـارة إلى تفرد قوم عاد بتلك الأبنيـة الفخمة -ذات الأعمدة الضخمة، والقصور المشيدة المرتفعة- عن غيرهم من الأمم السابقة عليهم والمجاورة والمعاصرة لهم، يدل على ذلك السياق المكتنف بالفريدة من دلالة على أنه لم يكن لهذه المدينة نظير ألبتة في دنيا الناس آنذاك، وذلك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ فـ (لم) إذا دخلت على المضارع تقلب معناه إلى المضي، فالنفـي منصب على الماضي والحاضر، ولا ينصب على المستقبل، كما هو مفهوم بوضوح من نظم الآية؛ لأن الحضارات المتعاقبة حتى يومنا هذا لم تخل من الأبنية المرتفعة الشاهقة، وهي من سمات كل حضارة وكأن تلك الحضارة البائدة قد تميزت على غيرها آنذاك بما حكاه الذكر الحكيم، والله أعلم.

- وهنا ملحوظة بادية للمتأمل وهي التجانس الواضح بين هذه الفريدة، وبين الفريدتين السابقتين؛ فإن ﴿الأحْقَافِ﴾ اسم للموقع الذي أقاموا فيه، وكان ذا سمات خاصة به كما سبق ذكره، وكذلك ﴿رِيعٍ﴾ اسم لأمكنة عديدة متميزة كانوا يبنون فيها كما بينا، ثم جاءت ﴿إِرَمَ﴾ عَلَمًا على مدينتهم ذات الأبنية الرفيعة العالية الشاهقة فتم التجانس بين هذه الفرائد الثلاث من ناحية كونها تتصل بالمباني من قريب، أو بعيد.

وهذا كله يتلاءم مع طول أجسامهم وقوة بنيانهم التي مكنتهم من تشييد المباني الشاهقة التي غدت شاهدًا على قوتهم وثرائهم، وكان هذا من أهم ما يميـز قوم عاد عن غيرهم كما عكسته تلك الفرائد، والله أعلم.

الفريدة الرابعة: ﴿مُّنقَعِرٖ﴾، ووردت في قولـه تعالى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ [القمر:٢٠].

وجاءت فـي معرض الحديـث عن كيفية هلاك قوم عاد حيث سلط الله عليهم ريحًا صرصرًا في يـوم نحـس مستمر اقتلعتهم من جذورهم، واستأصلتهم من أرضهم فتركتهم كأعجـاز نخـل منقعر، والنخل المنقعر: هو المنقلع من أصله.

يقول السمين الحلبي: «قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ أي: مجتث، قُلِع من قعره أو ذهب في قعر الأرض، وقعر الشيء: نهاية أسفله، فمعنى ﴿مُّنقَعِرٖ﴾ ذاهب في قعر الأرض، وفي الحديث: «أن رجلًا تقعر من ماله»، أي: انقلع من أصـله، أراد تعالى أن هؤلاء قد اجتُثوا كما يجتث النخل الذاهب في قعر الأرض فلم يبق لهم رؤوس ولا أثر»[1].

وفي لسـان العرب: «المنقعر: المنقلع من أصله، وقعرت النخلة: إذا قلعتها من أصلها حتى تسقط»[2].

وقد نحا المفسرون نحو اللغوييـن فلم يخرجوا عن هذا المعنى يقول العلامة أبو السعود: «روي أنهم دخلوا الشعاب والحفر، وتمسك بعضهم ببعض فنزعتهم الريح وصرعتهم موتى ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾، أي: منقلع عن مغارسه، قيل: شبهوا بأعجاز النخل وهي أصولها بلا فروع؛ لأن الريح كانت تقلع رؤوسهم فتبقى

(١) عمدة الحفاظ ٣/ ٣٨٤ ـ ٣٨٥، ومفردات الراغب ٤٢٤ .
(٢) لسان العرب (قعر) .

أجسادًا وجثثًا بلا رؤوس»[1].

وإذا كانت منقعر بمعنى منقلع - كما رأينا فيما مضى - فلماذا آثر ﴿مُّنقَعِرٖ﴾ عليها؟ لابد أن يكون وراء هذا الإيثار أسرار منها:

- تتناسب هذه الفريدة - دون (منقلع) - مع فواصل سورة القمر المبنية على حرف الراء، وفي هذا إشارة جلية إلى أن المحافظة على رؤوس الآي غرض أصيل من أغراض القرآن في أساليبه وتراكيبه مادام المعنى قد استُوفي حقه أتم استيفاء، ولا يجب أن نقلل من شأن هذه القضية؛ لأن المحافظة على رؤوس الآي بتلك الصورة يعمل في النفوس عمل السحر، ويضفي على العبارة جودة وفخامة، ولو حاولت أن تضع (منقلع) مكانها فسوف تذهب الانسيابية والحيوية، وتتلاشى اللذة والحلاوة التي تسري في أعطاف الآية، ومما يؤكد ذلك أن الذكر الحكيم في القصة نفسها في سورة الحاقة استخدم لفظة أخرى هي ﴿خَاوِيَةٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾؛ لأنها هناك أمس رحمًا بفواصل الآي قبلها وبعدها «فإن كلمة ﴿خَاوِيَةٖ﴾ معناها ساقطة، وناسبت هذه الفاصلة ما قبلها دون ﴿مُّنقَعِرٖ﴾ في هذا المقام؛ لأن القوم صرعى ألقت بهم الريح الخاوية على الأرض... فهنا يقصد مجرد السقوط، وعندما قصد البيان الإلهي خفتهم أمام قوة الريح ذكر كلمة ﴿مُّنقَعِرٖ﴾، وفي هذا يتضح التمكن في أقصى غاياته»[2] فبان من ذلك أن الذكر الحكيم يضع كل لفظة

(١) تفسير أبي السعود ٨/ ١٧١، وانظر النسفي ٤/ ١٩٦، وتفسير الألوسي ١٥/ ١٩٤ وفتح البيان ٩/ ٢٠٤.

(٢) جماليات المفردة القرآنية ٣١٤.

في مكانها الملائم لها الذي لا يمكن لأي لفظة أخرى أن تحل محلها بأي وجه من الوجوه، وفي هذا وغيره تكمن عظمة القرآن وإعجازه.

- هذه الفريدة تدل على أن عذاب الله ﷻ لهؤلاء القوم كان فريدًا في شكله ونوعه لا نظير له في مصارع الأمم المكذبة، فلم يحدث في تاريخ الإنسانية الغابر حتى ساعتئذ أن هلك قوم بمثل مهلك قوم عاد فكان «وجه الوصف بـ ﴿مُّنقَعِرٍ﴾ الإشارة إلى أن الريح صرعتهم صرعًا تفلقت منه بطونهم، وتطايرت أمعاؤهم وأفئدتهم فصاروا جثثًا فُرُغا»[1] كالنخل الذي قُعِرت دواخله، فصار فارغًا.

وهكذا تفرد هؤلاء القوم بذلك العذاب في تواريخ النبوة والإنسانية قاطبة، كما تفرد قوم نوح قبلهم بعذاب اختصوا به.

- وهنا لطيفة تستنبط من هذا التشبيه، وهي أنهم شبهوا بأصول نخل منقعر ولم يشبهوا بشجر منقعر مثلًا؛ لأن الله ﷻ قد زادهم في الخلق بسطة فكانوا أطول الأمم أجسادًا فناسب أن يذكر في هلاكهم أطول النباتات وهي النخيل المنقعر.

وضرب المثل بالنخل هنا كما أنه يتلاءم مع طول قاماتهم فهو أمسُّ صلة، وأكثر التصاقًا بحياة العرب الذين نزل فيهم القرآن، فهو تصوير تقريبي لهم كي يعقلوا كيفية مقاتل هؤلاء فيرتدعون ويتعظون، وفيه أيضًا دلالة على أن هؤلاء الذين كانوا يتعالون ويتشامخون بأنفسهم، ويغترون بأطوالهم، وقوة بنيانهم هم أضعف خلق الله؛ لأن الريح حين أتت عليهم لم تُبْقِ منهم باقية، كما لا يبقى للنخل المنقلع من أصله باقية بالرغم من تمكنهم في الأرض حضارة وعمرانًا وبنيانًا، وفي هذا تحذير لفراعين

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٧/ ١٩٣ .

العصر -وكل عصر- بأن يسلط الله عليهم عذابًا يتوافـق مع جبروتهم وعنادهم وطغيانهم، والله أعلم.

❊ ❊ ❊

الفريـدة الخامسة والسادسة: ﴿حُسُومًا﴾ - ﴿صَرْعَىٰ﴾، ووردتا في قوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة:٧].

وجاءتا في مساق الحديث عن هلاك عاد بريح صرصر عقيم استمرت سبع ليال وثمانية أيام، وما حدث لهم من جراء ذلك.

ونبدأ بالفريـدة ﴿حُسُومًا﴾ التي ذكر اللغويـون لها أكثر من معنى ففي مفردات الراغب: «الحسم: إزالة أثر الشيء يقال: قطعه فحسمه، أي: أزال مادته، وبه سمي السيف حسامًا، وحسم الداء: إزالة أثره بالكي»[١].

وفي لسان العرب: «الحسم القطع حسمه يحسمه حسما فانحسم قطعه، وحسم العرق قطعه ثم كواه لئلا يسيل دمه وهو الحسم...، وقيل: الأيام الحسوم الدائمة في الشر خاصة، وعلى هذا فسر بعضهم هذه الآية التي تلوناها، وقيل: هي المتوالية، قاله ابن سيده، وأراه المتوالية في الشر خاصة، قال الفراء: الحسوم التباع إذا تتابع الشيء فلم ينقطع أوله عن آخره قيل له حسوم»[٢].

أما حديث المفسرين عن هذه اللفظة فقد جاء أكثر تفصيلًا وإيضاحًا، يقول

(١) مفردات الراغب ١١٧ .

(٢) لسان العرب (حسم) .

الشيخ صديق خان: «الحسوم لا يخلو أن يكون جمع حاسم كشاهد وشهود، أو مصدر كالشُّكـور والكُفور، فإن كان جمعًا فمعنى قوله: ﴿حُسُومًا﴾ نحسات حسمت كل خير، واستأصلت كل بركة، أو متتابعة هبوب الريح ما خفت ساعة تمثيلًا لتتابعها بتتابع فعل الحاسم في إعادة الكي على الداء كرة بعد أخرى حتى ينحسم، وإن كان مصدرًا فإما أن ينتصب بقول مضمر، أي: تحسمهم حسومًا، أي تستأصلهم استئصالًا، أو يكون مفعولًا له أي: سخرها عليهم للاستئصال قال الشهاب: حسومًا أي متتابعات فهو مجاز مرسل من استعمال المقيد وهو الحسم الذي هو تتابع الكي لمطلق التتابع، أو استعارة بتشبيه تتابع الريح المستأصلة بتتابع الكي القاطع للداء انتهى، والحسوم التتابع فإذا تتابع الشيء لم ينقطع أوله عن آخره قيل: له الحسوم، قال الزجاج: الذي توجبه اللغة في معنى قوله: ﴿حُسُومًا﴾ أي: تحسمهم حسومًا تفنيهم وتذهبهم، قال النضر بن شميل: حسمتهم: قطعتهم وأهلكتهم»[1].

والسؤال الذي يطرأ على الأذهان الآن: لماذا اختار المولى ﷻ هذه الفريدة دون غيرها من هذه الألفاظ السابقة التي تحمل معناها؟

لابد أن يكون في الفريدة أسرار لا توجد في تلك الكلمات منها:

- التعبير بـ ﴿حُسُومًا﴾ أكثر وفاء بالدلالة من غيرها لأنها تحمل في مضمونها كل المعاني السابقة التي لا يرفضها سياق الكلام، ولا يأباها المعنى العام، ولا منافاة بين

---

(١) فتح البيان ١٠/ ٤٥، والنسفي ٤/ ٢٧٤، والألوسي ١٨/ ٥، وانظر مع اختلاف في التفصيل الطبري ٢٩/ ٥٢، وابن كثير٤/ ٤١٣، والبيان في تفسير غريب القرآن ١/ ٤٢٣، والدر المنثور ٨/ ٢٦٥.

هذه المعاني جميعها ما كان منها على وجه الحقيقة أو المجاز، ومن ثَمَّ كانت هذه اللفظة أوسع دلالة، وأكثر ثراء، وهذا ما أشار إليه العلامة ابن عاشور بعد أن استعرض المعنى الحقيقي والمجازي للفريدة فقال: «وكل هذه المعاني صالح لأن يذكر مع هذه الأيام، فإيثار هذا اللفظ من تمام بلاغة القرآن وإعجازه»[1].

- في التعبير بتلك الفريدة أيضًا معنى ربما لا يوجد في (متتالية) و(متتابعة)؛ لأن ﴿حُسُومًا﴾ - كما نص عليه ابن منظور فيما مر - بمعنى المتوالية في الشر خاصة، فلو عبر بمتوالية أو متتابعة لم يفهم منهما تلك الزيادة الحسنة، وهذا مكمن الفرق بينهما، وهو يرجح ما نذهب إليه بأن الترادف لا يوجد في القرآن بمعنى التطابق التام، والتماثل الشامل، بل بمعنى التقارب واشتراك لفظين في أصل المعنى ثم تنفرد كل لفظة بهوية خاصة بها تميزها عن غيرها، كما يشترك التوأمان في صفات كثيرة، ويتميز كل منهما ببصمة وميزة يمتاز بها.

- ترشد الفريدة إلى أن هذه الريح كانت متفردة في جريانها وهبوبها وشدتها ومُدتها مذ خلق الله الكون إلى يوم القيامة فهي ريح عقيم صرصر عاتية، امتدت دون انقطاع سبع ليال وثمانية أيام - كما ذكر القرآن - تجاوزت في صفتها الرياح الشديدة المتعارف عليها بين الناس، ولا يوجد في القرآن ريح أخرى لها هاتيك الصفات المدمرة إلا تلك الريح التي اختص الله بها هؤلاء المكذبين من قوم عاد.

- تومئ الفريدة إلى تفرد موضعها في القرآن وتاريخ النبوة والإنسانية جميعا، ولا

(١) التحرير والتنوير ٢٩/ ١١٧، وأشار ابن عاشور إلى أن المعنى الاستعاري في «حسومًا» من مبتكرات القرآن، فراجعه.

يمكن للفظة أخرى لها نظير في القرآن من مادتها وصيغتها أن يستنبط منها هذه الأمور الثلاثة أو بعضها، فدل ذلك على أن لكل الفرائـد إيحاءات وإشارات عديدة يلحظها كل متأمل مدقـق، وهذه الإشارات هي ما يطلق عليه البلاغيون المعاني الثواني، أو مستتبعات التراكيب، أو ما يطلق عليه الأصوليون فحوى الدلالة ومفهومها.

* * *

أما الفريدة ﴿صَرۡعَىٰ﴾: فقد عرض اللغويـون لأصل معناها فحسب، يقول السميـن الحلبي: «قوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ﴾ جمع (صريع)، وهو من أصابه داء صرعه، أي: ألقاه... وقيل: أصل الصرع: الطرح، وأصاب المجنون صرع؛ لأنه يطرح غالبًا»[1].

أما المفسرون فقد نصوا على أن صرعى بمعنـى موتى يقول القرطبي: «صرعى جمع صريع يعني موتى»[2] وهذا هو المراد هنا.

إذن لماذا عدل المولى ﷻ عنها، وهي على وزنها ومعناها كما يقولون، ولو أُتي بها فلن يختل النسقُ القرآني، كما أنها وردت في القرآن في أكثر من موضع؟

لابد أن يكون وراء العدول سببٌ يعـود إلى أن هـذه الفريدةَ تتسم بسمات فنيةٍ عديدةٍ، لا تتوافر لغيرها في هذا الُمقام منها:

---

(١) عمدة الحفـاظ ٢/ ٣٨٤، ومفردات الراغب ٢٨٧، والمصباح المنير ١٢٩، ولسان العرب (صرع).

(٢) تفسير القرطبي ١٨/ ٢٦١، وانظـر البيضاوي ٥/ ٣٧٩، وتفسير الألوسي ١٨/ ٥، وفتح البيان ١٠/ ٤٥، والتحرير والتنوير ٢٩/ ١١٨.

- أن ﴿صَرْعَىٰ﴾ تصـور بدقة هيئةَ هؤلاءِ القوم بعـد أن اقتلعتهم الريحُ الشديدةُ من جذورهم، وألقتهم على الأرض مهملين مطروحين لاحول لهم ولا قوة جزاءَ غيهم وعنادهم وعتوهم، وهذا معنىً لطيفٌ لا يوجد في (موتى) أو (قتلى) مما قد يؤدي المعنى إذ لم يُهلَكُوا في معركة أو مشاجـرة أو عـن طريق الخطأ بل هلكوا بريح صرصر عاتية حاولوا مصارعتَها فصرعتهم، وطرحتهم كأصول نخل خاويةٍ خالية الأجواف بعدما كانوا أشداء أصحاء أقوياء يغتـرون بقوتهـم وبأجسـادهم الطويلة قائلين: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، ولو عبـر بـ (قتلـى)، أو (موتى) لما فُهـم منهما الطرحُ على الأرض مع الانتقام؛ لأن هذين اللفظين لا يدلان على معنى الانتقام الشديد والعذاب المريع الفظيع أثناء الموت، وهو ما حدث لهم.

- حرفُ الصاد في ﴿صَرْعَىٰ﴾ يحكي بصفيره صوت صرير الريح العاتيـة التي هبت عليهم، وقلعتهم من أساسهم كما نحسّه بوضوح، كما تحكـي الراء بتكرارها تَكرار الريـح واستمرارها ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾، كما أن المد في آخر الفريدة، وما يتطلبه من طول زمن النطق بها يحكي طول المدة التي استغرقتها الريح العقيم في صرعهم، كما تبين أيضا أن الصرع أحاط بالقوم حتى شملهم جميعًا، ولو وُضعت (قتلى) أو(موتى) مكانها لفُقـد هذا الصخب الشديد الذي يبث في روع السامع والقارئ رهبة العذاب وشدة الانتقام، وهكذا نجـد في صرعى من ناحية دلالتها وجرس حروفها خصائصَ لا توجد في (قتلى) أو (موتى) ألبتة، ففـي حروف الفريدة تناسبٌ صوتي وتجاوبٌ إيقاعي مع سياقها، والله أعلم.

- في الفريدة ﴿صَرۡعَىٰ﴾ إيماءٌ إلى أن مصرعهم كان فريدًا عجيبًا لم يحدث قطُّ لغيرهم من الأمم المكذبة لأنبيائهم، فلما تفردوا بهذا العذاب ألمعت هذه الفريدةُ إلى ذاك التفرد في تاريخ عذاب المكذبين عبر التاريخ الإنساني كله، والله أعلم.

المبحث الثالث

أسرار التعبير بالفرائد في قصة صالح عليه السلام

أرسل الله عز وجل صالحًا إلى ثمود الذين خلفوا قوم عاد زمانًا لا مكانًا، وقد أمد الله عز وجل هؤلاء القوم بآلاء كثيرة، ونعم وفيرة، ولكنهم بغوا وطغوا، وظلوا في طغيانهم يعمهون، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، وحُكيت قصتهم هذه في أكثر من سورة، وقد اشتملت هذه القصة على ثلاث فرائد فحسب هي على ترتيب دراستها: (سهولها - فارهين - دمدم).

الفريـدة الأولى: ﴿سُهُولِهَا﴾، وقد وردت في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:٧٤]، وجاءت في سياق تذكير صالح عليه السلام لقومه بالنعم الكثيرة التي خصهم الله بها كما هو واضح في تلك الآية.

يقول الراغب في مفرداته: «السهل ضد الحزن وجمعه سهول قال: ﴿مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾، وأسهل: دخل في السهل»(١).

ولم يتوقف المفسرون أمام مدلول الفريدة نظرًا لتداول معناها على الألسنة، لكن يبقى السؤال المهم: لم خُصت هذه الفريدة بالذكر دون غيرها مما قد يقاربها في المعنى مثل (أودية) المذكورة في القرآن في أكثر من آية؟

أرى والله أعلم أن لذلك أسرارًا كثيرة منها:

- أنها أكثر الألفاظ دلالة على المراد بحروفها السهلة اللينة الرخوة التي تنم عن استواء هذه الأرض وانبساطها، وانقيادها لهم، مما مكنهم من بناء القصور فيها، كما أن معناها يومئ - من طرف خفي - إلى سهولة أحوالهم ويسر معيشتهم وكثرة أرزاقهم، وأنهم كانوا يعيشون في بُلهنية ورغد من العيش كما قال تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء ١٤٦-١٤٨]، وهذا -لا شك- يكون ألصق بحياة من يعيشون في السهول، فالسهول مشهورة بخصوبة تربتها، وكثرة زراعتها وتنوعها ما بين حدائق غناء، وبساتين فيحاء، وزروع ناضرة، ونخيل باسقة مثمرة وعيون كثيرة، وجداول رقراقة، ومن ثم بنوا القصور الكثيرة في كل موضع من تلك السهول المحفوفة بالجنات والعيون والزروع والنخيل، كما هو مدلول ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن سُهُولِهَا﴾ لدى كثير من المفسرين.

ولذلك قيل: «كانوا يسكنون السهول في الصيف، والجبال في الشتاء، وهذا يدل

---

(١) مفردات الراغب ٢٥٢، وعمدة الحفاظ ٢/ ٢٦٣، والمصباح المنير ١١١، ولسان العرب (سهل).

على أنهم كانوا متنعمين مترفهين»[(١)].

- تدل الفريدة على تفرد هذه السهول وتميزها بسمات وخصوصيات لا توجد في غيرها كما بينا سلفًا، يؤكد هذا مجيء لفظة (سُهُول) جمع تكسير للكثرة، مما يدل على كثرتها وتنوعها، واتساعها، وامتلائهـا بالخيرات والنعم التي لا تحصى كما حكاه القرآن عنهم مما يـدل على تفردهم بحضارة عمرانية وزراعيـة رائعة، كما أن لفـظ (سهول) أكثر التصاقًا، وأشد اتصالًا بكلمة (القصور)؛ فإن القصور المبنية في الأرض السهلة تكون أمكن وأثبت وأروع وأفخم وأجمل.

- تتلاءم هذه اللفظة مع سياقات القصة أشد تلاؤمًا؛ لأن التعبير بالسهول دون الوديان يتفق مع كثرة الزروع والثمار التي ذكرها الله لهم كما في الآية السابقة؛ فالسهول إذا أُطلقت يفهم منها -بالفحوى- أنها أرض منبسطة مليئة بالحدائق والثمار، ومختلف أنواع الأشجار، أما إذا عبر بلفظة (أودية) فلن يفهـم منها ذلك؛ لأن الأودية - كما في المعجم الوسيط - هي الأماكن المنفرجة بين الجبال والتلال والآكام، وقد لا تكون فيها زروع كما قال تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ [ابراهيم:٣٧]، وقد تكون مزروعة، ومما يؤكد ما ذكرناه عن لفظة (سهول) أن (الوادي) ذكرت مفـردة في قوم ثمود في قوله تعالى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ﴾ [الفجر:٩] أي: قطعوه من الواد الأجرد غير المنزرع، وأحضروه إلى السهول لبناء القصور العامرة، والله أعلم.

---

(١) فتح البيـان ٣/ ٣٦٠، وتفسير أبي السعود ٣/ ٢٤٣، وتفسيـر الواحدي ١/ ٤٠٠، والتحرير والتنوير ٨/ ٢٢٠.

- تشير الفريدة إلى تفرد موضعها، فلم يرد في الذكر الحكيم عن قوم آخرين أنهم اتخذوا من السهول قصورا إلا قوم صالح خصيصة اختصوا بها على غيرهم من الأمم كما أثبتها لهم القرآن في موضع واحد لم يتكرر.

* * *

الفريدة الثانية: ﴿فَرِهِينَ﴾، وقد جاءت في قوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ [الشعراء:١٤٩]، وفي معنى فارهين يقول السمين الحلبي: «قوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾، أي: أشرين بطرين، والجمع فُرَّه، وقرئ فارهين، وفرهين، فقيل: بمعنىً نحو: (بار وبر)، وقيل: فارهين: حاذقين وفرهين: أشرين مرحين»(١).

ومن المفسرين الذين عرضوا لها الشيخ صديق خان يقول: «قُرئ (فرهين) قال أبو عبيد وغيره: وهما بمعنى واحد، والفره النشاط وشدة الفرح، وفرق بينهما أبو عبيد وغيره فقالوا: ﴿فَرِهِينَ﴾ حاذقين بنحتها قاله ابن عباس، وقيل: متجبرين، وفرهين بطرين أشرين، وبه قال مجاهد وابن عباس وغيره، وقيل: شرهين، وقال الضحاك: كيسين، وقال قتادة: معجبين ناعمين آمنين، وبه قال الحسن، وقيل: فرحين قاله الأخفش»(٢).

---

(١) عمدة الحفاظ ٣/ ٢٦٧، ومقاييس اللغة ٤/ ٤٩٦، ومفردات الراغب٣٩٢، ولسان العرب (فره).

(٢) فتح البيان ٧/ ٤١، وتفسير الألوسي ١٣/ ٢٧٧، ومفاتيح الغيب ٢٣/ ١٥٦، والقرطبي١٣/ ١٢٩، والتحرير والتنوير١٩/ ١٧٦ .

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن لماذا آثر الذكرُ الحكيم هذه الفريدةَ دون غيرها من هذه الألفاظ ؟

أرى -والله أعلم- أن لهذه الفريدةِ خصائصَ فنية، وسمات تعبيرية لا توجد في غيرها من تلك الألفاظ منها:

- أنها تحمل في طياتها هاتيك الدَّلالات كلَّها؛ لأن المعنى أن ثمود كانوا ينحتون بيوتهم من صخور الجبال - كما يفهم من هذه الآية - وينحتون بيوتهم في هذه الصخور كما في قوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ حالة كونهم حاذقين بأصول هذه الصنعة، أشرين بطرين بتلك البنايات، متجبرين مستعلين فيها، معجبين فرحين بتشييدها ظانين أنهم آمنين ناعمين فيها، ولا منافاة بين هذه المعاني وهذا ما أكد عليه ابنُ كثير قائلًا: «ولا منافاة بينها فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوتِ المنحوتة في الجبال أشرًا وبطرًا وعبثًا من غير حاجةٍ إلى سكناها، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها كما هو الشاهد من حالهم لمن رأى منازلَهم»[1]، ولا ينهضُ لفظٌ آخرُ بتلك المعاني كلِّها، فبان أن القرآن يصطفي اللفظة الأدق في المعنى، والأكثرَ ثراء في الدلالة.

- ألفُ المد في ﴿فَٰرِهِينَ﴾ وما فيه من استطالة بعد الفاء اللينة الناعمة، والراءُ وما فيها من تَكرار، ثم الهاءُ المهموسة، وبعدها مد الياء الرخيم الجميلِ، ثم غنةُ النون اللذيذةِ الرائعة كل ذلك يحكي فراهة تلك الأبنية واستطالتها وحسنها وجمالها، وتناغمها مع بعضها.

- في مجيء الفريدة على تلك الصياغة لفتة جمالية رائعة كما يرى بعض الباحثين

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٤٤ .

حيث يقول: «في التعبير باسم الفاعل ﴿فَرِهِينَ﴾ إعجاز معنوي؛ لأن الفعل يختلف معناه باختلاف بابه، ففرُه من باب كرُم معناه حذق، ومن باب فرح معناه أشر وبطر كما فـي القاموس واسم الفاعل يدل على المعنيين جميعًا»[1].

- هذه الفريـدة من الألفاظ الغريبـة الفصيحة التـي لا تستعمل كثيرًا، وهذه الغرابة تتلاءم مع غرابة تلك الأبنية المنحوتة في صخور الجبال، والتي تتطلب جُهدًا خارقًا، وعملًا شاقًّا مضنيًا متواصلًا، وهي تومئ إلى أن قوم ثمود قد تفردوا في بنائهم لمساكنهم على تلك الصفة فهم في فن العمارة قد تقدموا على قوم عاد خُطوة للأمام، فعادٌ كانوا يبنون في كل ريع آية يعبثون، ويتخذون مصانع لعلهم يخلـدون، أما هؤلاءِ فكانوا يَنْقُبُون بيوتهم في الجبال أشرًا وبطرًا وخيلاء واستعلاء فتفردوا بتلك السمة، واخْتُصوا بها عمن سواهم، وهكذا تُبرزُ الفريدةُ الملامحَ السلوكيةَ لتلك القبيلة التي تفردوا بها عن غيرهم، وهذا من أهم ما تدل عليه الفرائد في هذا المقام، والله أعلم.

❊ ❊ ❊

الفريدة الثالثة: ﴿دَمْدَمَ﴾، ووردت في قولـه تعالـى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ [الشمس:١٤]، وسياق الفـريدة يحفه السرعة الخاطفة نلمح ذلك من توالـي الفاءات المتعاقبة، وكأن لم تكن هناك مهلة بين التكذيب والعقر والدمدمة.

وقد ذكر اللغويون لهذه الفريدة دلالات عدة يقول السمين الحلبي: «﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾ أي: أطبق عليهم العذاب، وأصله دمم فأبدل الوسطى من جنس

(١) مع الأنبياء في القرآن ٩٧ .

الفاء، نحو: كفكف ولملم الأصل كفف ولم، وهذا رأي الكوفيين يقال: دممت على الشيء: أطبقت عليه فإذا كررت الإطباق قلت دمدمت عليه، وقيل: الدمدمة: الإهلاك والإزعاج، وقيل: حكاية صوت الهزة التي أخذتهم، ومنه دمدم في كلامه ودمدمت الثوب، ودممته: طليته بصبغ، والدمام ما يطلى به، وقال الفراء: الدمدمة والدمدام: الهلاك»[1].

أما المفسرون فقد أوعبوا القول في معنى الفريدة يقول الشيخ صديق خان: «﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾، أي: أهلكهم وأطبق عليهم العذاب، وحقيقة الدمدمة تضعيف العذاب وترديده يقال: دمدمت على الشيء، أي: أطبقت عليه، ودمدم عليه القبر، أي: أطبقه، وناقة مدمومة إذا ألبسها الشحم، والدمدمة إهلاك باستئصال كذا قال المؤرج. قال في «الصحاح»: دمدمت الشيء إذا ألزقته بالأرض وطحطحته، ودمدم الله عليهم أهلكهم، ودمدمت على الميت التراب: سويته عليه. قال ابن الأنباري: دمدم أي: غضب، والدمدمة: الكلام الذي يزعج الرجل، وقال ابن الأعرابي: دمدم: إذا عذب عذابًا تامًا»[2].

مما سبق يتضح أن اللغويين والمفسرين أوردوا في ﴿دَمْدَمَ﴾ عدة معان هي: غضب -أطبق عليهم العذاب- أهلك وأزعج -ألزقه بالأرض وطحطحه- حكاية صوت الهزة فأي هذه المعاني هو المراد؟ أرى -والله أعلم- أن من أسرار التعبير بتلك الفريدة:

(١) عمدة الحفاظ ٢/ ٢٠ ـ ٢١، ومفردات الراغب ١٧٣، ولسان العرب (دمدم).

(٢) فتح البيان ١٠/ ٣٦٤، وتفسير الألوسي ١٨/ ٥٣٠، وانظر تفسير القرطبي ٢٠/ ٧٩، وفتح القدير ٥/ ٤٥٠.

- أنهـا تشتمل على كل هذه المعاني السابقة، ولا منافاة بيـن تلك المعاني جميعها، فثمود قد غضب الله عليهم غضبًا شديدًا، وثمود قد أطبق الله عليهم العذاب، وثمود قد أزعجهم الله، وأهلكهم بالصيحة، وثمود قد ألزقـهم الله بالأرض، وطحطحهم؛ لأن هذا نتيـجة طبعية لهلاكهم، وثمود أهلكهم الله بصاعقـة لها هزة شديدة، وصوت قوي مدوي فلا مناقضة إذن بين تلك الدلالات، وكلها تنسجم مع السياق العام للقصة في أي موضع حكى الله فيه عذابهم، فبان أن في هذه الفريدة إيجازًا وإعجازًا حيث حملت معاني كثيرة، ودلالات غزيرة لا يمكن لغيرها أن تقوم مقامها، وتلك سمة جلية في الفرائد القرآنية حيث تُعبر لفظة واحدة عن معانٍ كثيرة، فيا لدقة هذا القرآن، وروعة لفظه وجمال نظمه، وإحكام تراكيبه.

- في تركيب هذه الفريـدة من أربعة أحرف لطيفـة قرآنية دقيـقة لا تصدر إلا من الخبير العليم سبحانه؛ لأنها تومئ إلى أن ثمود قد عذبها الله ﷻ - بخلاف من سبقها من الأمم - بأربعة أشياء مُجَمَّعة: (الرجفة - والصيحة - والصاعقة - والطاغية) [(١)] كما هو مذكور في أكثر من آية، وهي مسميات شتى لشيء واحد اختصهم الله ﷻ بذلـك دون غيـرهم من الأمم، وهذا ينسجم مـع حـروف ﴿دَمْدَمَ﴾ الأربعة، وكأن كل حرف يشير إلى نوع من العـذاب، أو صفة من صفاته، أي: دمدم الله عليهم بالصيحة والرجفة والصاعقة والطاغية، ففي دمدم اختصار لهذه الأربعة.

- في التعبير بهـذه الفريدة دلالة على تكرار العذاب وتضعيفه عليهم كما يفهم من كلام كثير من المفسرين يقول القرطبي: «حقيقة الدمدمة تضعيف العذاب

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٣٨٤ـ٥١٨ـ٥٢٩ـ٥٤١ .

وترديده»[1]، وفي هذا دلالة على فظاعة العقاب وشناعة العذاب الذي نزل بهم.

- ومن أسرار التعبير بتلك الفريدة أيضًا: «ما توحيه لفظة دمدم عن طريق جرسها وثقل نطقها عندما يرددها القارئ على لسانه، ويتروى ويقف عندها كل مرة، فجرسها وصوتها يدمدم كدمدمة الدبابات... إن قوة جرس دمدم يقوم وحده بتأدية المعنى؛ لأنه يحدث ثقلًا وضغطًا داخل الفم، ويحمل نغمة تهز النفس. إن إيحاءها يبرز هول الصورة، وقوة الخالق»[2].

ومن هنا كان التعبير بدمدم أقوى وأبلغ من دمم، ومن دهدم[3] التي يقول بعض العلماء أنها مرادفة لها؛ لأن جرس الدال مع الميم أقوى من جرس الدال مع الهاء، ومن هنا كان دمدم أوفى في إيصال المعنى، وبيان قوة العذاب، وشدة إطباقه عليهم.

- هذه الفريدة تعكس تفرد موضعها في القرآن، وفي تاريخ النبوة والإنسانية على نحو ما قررنا سلفًا من أن الفرائد القرآنية ترمز إلى هذه الأمور الثلاثة كلها، أو اثنين منها، أو أمر واحد من هذه الأمور الثلاثة على الأقل، يطرد هذا الأمر في جميع الفرائد لا يتخلف ألبتة، وهذا من الأسرار العامة للفرائد في الذكر الحكيم، ثم تستقل كل فريدة بخصيصة، ولمحة بيانية تميزها عما سواها، والله أعلم.

* * *

(١) تفسير القرطبي ١٠/ ٤١٧ .

(٢) الإعجاز الفنـي في القرآن عمر السلامي ١٠٠ـ١٠١، وانظر في ظلال القرآن ٦/ ٣٩١٩.

(٣) المحرر الوجيز لابن عطية ٥/ ١٨٩، والبحر المحيـط ١٠/ ٤٩٠، ولسان العـرب (دهدم).

المبحث الرابع

أسرار التعبير بالفرائد في قصة إبراهيم وإسماعيل ولوط [(٤)] عليهم السلام

وقصص هؤلاء الأنبياء تعدد ورودها في القرآن الكريم مفصلة ومجملة في كثير من مواضعه، وقد تميزت قصة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام بأنها وردت في سور مكية ومدنية، وباستعراض المواضع المختلفة لهذا القصص المبارك وجدتها قد ضمت سبعة فرائد هي على ترتيب دراستها (يزفون - حنيذ - صكت - الروع - تفضحون - تله - للجبين)

ونبدأ الحديث بالفريدة الأولى: ﴿يَزِفُّونَ﴾ من قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ [الصافات:٩٤].

---

(٤) أدخلت الحديث عن الفرائد التي وردت في قصة إسماعيل عليه السلام هنا، ولم أجعلها في مبحث خاص؛ لأنها وردت خلال الحديث عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام معًا، وكذا الحال في قصة لوط فقد ورد الحديث عن الفريدة الوحيدة خلال الحديث عن قصة إبراهيم المتصلة بها.

واو الجماعة في ﴿يَزِفُّونَ﴾ عائدةٌ على قوم إبراهيم ﷺ، وكان قومه ينحتون الأصنام ثم يعبدونها من دون الله، وقد نهاهم خليل الله ﷺ مرارًا وتَكرارًا، ولكنهم عانـدوا واستكبروا، ولجوا في طغيانهم يعمهون، فانتهز إبراهيم ﷺ فرصةَ انشغالهم بعيدٍ لهم، وهم بعيدٌ عن أصنامهم، وراغ عليها ضربـًا باليمين، وحيـن عادوا فوجئوا بما حدث لأصنامهم فاستبد بهم الغيظ، واشتط بهم الغضب بعد أن عرفوا أنه هو، فجاءوا إليه مسرعين.

وقد أجمع اللغويون على أن ﴿يَزِفُّونَ﴾ بمعنى يسرعون يقول السمين الحلبي: «قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ أي يسرعون، يقال: زف الظليم يزف زفيفًا إذا ابتدأ في عدوه... وأصل الزفيف في هبوب الريح، وسرعة النعام الذي يخلط طيرانه بمشيه»[(١)]، وفي لسان العرب: «الزفيف هو سرعةُ المشي مع تقارب خَطو وسكون، وقيل: هو أولُ عَدْوِ النعامة وآخِرُ مشيها»[(٢)].

ولم يختلف معنى ﴿يَزِفُّونَ﴾ لدى المفسرين عما سبق ففي فتح البيان يقول: «﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ أي: أقبل إليه عبدة تلك الأصنام يسرعون لما علموا بما صنعه بها فقالوا نحن نعبدها، وأنت تكسرها، و﴿يَزِفُّونَ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل أقبلوا، قرأ الجمهور بفتح الياء من زف الظليم يزف إذا عدا بسرعة، وقرئ بضم الياء من أزف يزف أي دخل في الزفيف أو يحملون غيرهم على الزفيف»[(٣)].

---

(١) عمدة الحفاظ ٢/ ١٥٩، ومفردات الراغب ٢١٧.

(٢) لسان العرب (زفف).

(٣) فتح البيان ٨/ ١١٢، وفتح القدير للشوكاني ٤/ ٤٠٢، وتفسير الطبري ٢٣/ ٧٤، وتفسير أبي السعود ٧/ ١٩٨، وتفسير الألوسي ١٥/ ٣٦٩، والتحرير والتنوير ١٣/ ١٤٤.

فإذا كان الأمر كذلك فلماذا آثر الذكر الحكيم الفريدة ﴿يَزِفُّونَ﴾ على يسرعون، وهي بمعناها كما يذهب اللغويون والمفسرون؟

لابد أن تكون في الفريدة معانٍ عديدةٌ، ودَلالاتٌ كثيرةٌ لا توجد في هذه اللفظة البديلة منها:

- أن هذه الفريدة أقدرُ بحروفها على تصوير هيئة إقبالهم إليه تصويرًا جليًّا، تأملْ صوت الزاي المكسورةِ بعد الياء المفتوحةِ ثم الفاءِ المشددة المضمومةِ، وما فيها من حفيف وقوة وعنفوان تجدها تحكي القوة والتجبر والعنفوان الذي كان عليه هؤلاء القوم، وتبرز ما كان يعتمل في نفوسهم من مراجل الحقد والغضب عليه، فالفريدة صورت بجرس حروفها، وإيقاع أصواتها هذا المعنى أتم تصوير وأوفاه، ولا يمكنُ للفظة أخرى أن تصوره بهذه البراعة الفائقة.

والقرآن الحكيم يتأنق في اختيار الألفاظ التي هي أقدر على تصوير المواقف المختلفة ولو ذكرها مرة واحدة فحسب.

- في الفريدة ﴿يَزِفُّونَ﴾ معنى لا يوجد في (يسرعون)، وهو تصوير هيئة هؤلاء القوم، وقد ساروا إليه مسرعين قد استخفهم الطيش، واستبد بهم الغيظُ سيرا يشبه سير الظليم المشهور بالخفة والطيش وعدم الأناة، ولو وُضعتْ أيُّ لفظةٍ أخرى لما استطاعت أن تصور هذه الصورةَ الدقيقةَ لهيئة قدومهم إليه يعتمل في نفوسهم الغضب، ويستكن فيها الحنق.

فكانت الفريدةُ أوفقَ من غيرها لسياق الكلام، يشهد بذلك قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ﴾ [الأنبياء:٦١]، مما يدل على مدى الحنق

والغيـظ الذي ألم بهم عند قدومهم إليه، والذي صورته هذه الفريدة بدَلالتِها تصويرا دقيقًا، كما أضفت هذه الصورة الاستعاريةُ على الأسلوب روعة وجمالًا، وكسته قوة ورونقًا وبهاء.

- غرابةُ هذه الفريدةِ وندرتُها في الاستعمال تتلاءم مع غرابة تصرف هؤلاء القوم، وقلةِ عقولهم، وسخافـةِ أحلامهم؛ إذ كانوا يعبدون ما ينحتونه بأيديهم، ويصنعونـه بأنفسهـم يـدل على ذلك أن قـوم إبراهيم ﷺ هم الوحيدون الذين حكى عنهم القرآن -مستنكرًا- أنهم يعبدون ما ينحتون في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ﴾ [الصافات:٩٥] بمعنـى أنهم كانوا يشكلونها بأيديهم، وهم أخبر الناس بعدم قيمتها وأهميتها، وأنها لا تضـر ولا تنفع، وهذا - لا شك - مسلك عجيب غريب.

- تومئ هذه الفريدةُ إلى تفرد موضعها في الذكر الحكيم فلم ترد في هذا السياق بفصها ونصها إلا في هذا الموضع فحسب، والله أعلم.

* * *

الفريدة الثانية: ﴿حَنِيذٍ﴾، وقد وردت فـي قوله تعالـى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾ [هود:٦٩].

فالآية تحكـي عن مبلغ جود إبراهيم ﷺ، وشدة إكرامه، وحسن وفادته لضيوفه من الملائكة الذين لم يعرفهم في بادئ الأمر.

و﴿حَنِيذٍ﴾ فعيل كجريح بمعنى مفعول، يقول السمين الحلبي: «قوله تعالى: ﴿بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾، أي: محنوذ بمعنى مشوي بالرَّضْف وهي الحجارة المحمـاة يُشوى

عليـها اللحم، وقيل: هو الشَّيُّ بين حجرين وذلك لتسيل عنه اللزوجة، وهو من حنذت الفرس أحنذه إذا استحضرته شوطًا أو شوطين ثم ظاهرت عليه الجـلال ليعرق»[1].

ولم يختلف الأمر لدى المفسرين، يقول القرطبي: «﴿حَنِيذٍ﴾ مشوي، وقيل: هو المشوي بحر الحجارة من غيـر أن تمسه النار، يقال: حنذت الشاة أحنذها حنذًا، أي: شويتها، وجعلت فوقها حجارة محماة لتنضجها فهي حنيذ»[2].

مما سبق يتضح أن الفريدة بمعنى مشوي فلمَ لم يذكر مشويًّا -ومادته مذكورة في القرآن- واصطفى ﴿حَنِيذٍ﴾؟

لابد أن يكون وراء الاصطفاء أسباب منها:

- أن في ﴿حَنِيذٍ﴾ معنى لا يوجـد في مشـوي؛ لأن الحنيـذ كما يقول اللغويون والمفسرون: هو اشتواء اللحم بالحجارة المحماة دون أن تمسه النار، وهو أنظف وأحسن وأجود أنواع الشيء[3]، وألذه طعمًا بخلاف ما لو قال مشويًا فإنه لا يدل على تلك الهيئة بعينها؛ لأن للشيِّ طُرُقًا عديدة وكثيرة، فكانت هذه الفريدة أوفى دلالة على

---

(١) عمدة الحفاظ ١/ ٥٢٨، ومفردات الراغب ١٣٣، ومختار الصحاح ٦٦، والقاموس المحيط ١/ ٤٢٤، وبصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي ٢/ ٥٠٥، والإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق ٥٢٩ ـ ٥٣٠ .

(٢) تفسير القرطبي ٩/ ٦٣، وانظر تفسير ابن كثير ٢/ ٤٥١ـ ٤/ ٢٣٦، وفتح القدير ٢/ ٥١٠، والقصص القرآني إيحاؤه ونفحاته ١٣٦ .

(٣) قصص الأنبياء والمرسلين للشعراوي ١٨، وانظر معه تفسير الشعراوي ١١/ ٦٥٥٤، وتفسير المنار ١١/ ١٠٦ .

المطلوب، ولا يصح وضع غيرها مكانها، علاوة على أنها دون غيرها عكست الحالة الاجتماعية في هذا الزمان، وأبانت أن شواء اللحم بتلك الطريقة كان أمرًا معروفًا مشهورًا، والله أعلم.

- في اختيـار الفريدة ﴿حَنِيذٍ﴾ دون مشوي -وهـي أشهر وأكثر استعمالًا- دلالة على تفرد هذا الحدث بعينه في تاريخ الأنبياء قاطبة، فلم يرد في الذكر الحكيم أن أحدًا آخر من الأنبياء غيـر الخليل عليه السلام حضرت إليه الملائكة زرافات، وهو لا يعرفهم، ولم يلبث مـن شدة جوده وعظيم كرمه أن يُحضر في أسرع وقت ممكن عِجْلًا فتيًّا مشويًّا قبل أن يسألهم عن شأنهم وأسمائهم، فلما كان هذا الموقف فريدًا وحيدًا في تاريخ الأنبياء بل في تاريخ الإنسانية جمعاء استحق أن يعبر عنه بلفظة فريدة وحيدة لتعكس تفرد هذا الموقف في تاريخ النبوة والإنسانية ومن ثم قال القرطبي: «إن إبراهيم عليه السلام هو أول من أضاف»[(١)].

- تشير الفريدة -بجلاء- إلى الكرم المتناهي المتفرد في نبي الله إبراهيم عليه السلام؛ بدليل أنه لم يقل: (فجاء بشاة حنيذ) بل قال: بعجلٍ لبيان أنه لمبلغ كرمه أتى بأكثر مما يحتاجونه في أكلهم، كما أنه لم يقدم لهم عجلًا ضعيفًا نحيلًا هزيلًا بل اصطفى - من كرائم ماله - عجلًا فتيًّا سمينًا كما هو مفهوم التنكير في عجلٍ، وكما نص عليه في آية أخرى في قوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ [الذاريات:٢٦]، وهكذا أومأت الفريدة إلى تفرده في كرمه، ومبالغته في حسن وفادته لضيوفه، والله أعلم.

* * *

---

(١) تفسير القرطبي ٩/ ٦٣، والتحرير والتنوير٢٦/ ٣٥٨.

الفـريدة الثالثة: ﴿فَصَكَّتْ﴾، ووردت في قولـه تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذريات:٢٩]، وسياق الآية يحكي عن رد فعل السيدة سارة عليها السلام عقب سماعها بشارة الملائكة أنها ستنجب ولدًا عليمًا، فأخذها الدهش واستولى عليها العجب، ولطمـت خدها تعجبـًا واستغـرابًا لا رفضًا وإنكارًا؛ لأنها كانت عقيمًا لا تنجب.

وقد أجمع اللغويون على أن الفريدة ﴿صَكَّتْ﴾ بمعنى: لطمت، وضربت.

يقول السمين الحلبي: «قوله تعالى: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي: لطمته، ويقال: إنه ضرب الوجه بأطراف الأصابع تفعله النساء»(١).

وقد اتفقت كلمة المفسرين حول هذه اللفظة مع اللغويين يقول الشيخ صـديـق خان: «﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي: ضـربت بيدها مبسوطة على وجهها كما جرت بذلك عادة النساء عند التعجب، قال مقاتل والكلبي: جمعت أصابعها فضربت جبينها تعجبًا، ومعنى الصك ضرب الشيء بالشيء العريض يقال: صكه أي: ضربه، وقال ابن عباس: في صرة في صيحة فصكت: لطمت»(٢).

إذن لِمَ لَمْ يقل: لطمت أو ضربت، ومادة الثانية موجودة في القرآن؟

الجواب: أن في هذه الفريدة سمات عديدة لا توجد فيما يقاربها منها:

- أن ﴿صَكَّتْ﴾ فيها تصـوير واضح للحـدث بحروفها، وإيقـاع أصواتها، تأمل صوت الصاد، وما فيه من صفير، ثم جرس الكاف المجهورة الشديدة التي

---

(١) عمدة الحفاظ ٢/ ٤٠١، والمصباح المنير ١٣٢، ومختار الصحاح ١٥٤ .

(٢) فتح البيان ٩/ ١٢٥، وتفسير الألوسي ١٧/ ٦٩، والتحرير والتنوير ٢٦/ ٣٦٠.

زادتها الشدة التـي فوقها قوة وشدة، كل ذلك يحكي صوت وقع اليد على الخد بعنف وشدة، ولو قال: ضربت، أو لطمت لما أوحت حروفهما بذلك، والله أعلم.

- ومنها أن ﴿صَكَّتْ﴾ أوفى بالدلالة على المطلـوب؛ لأن معناها ضرب الوجه باليد مبسوطة، وهذه عادة معروفة لدى النساء في كل عصر ومصر عندما يحدث لهـن حادث يُطيِّر ألبابهن، ويفزعهـن، ولو قال ضربت لما أفادت هذا المعنى بدقة؛ لأن الضرب أعم يشمل الضرب باليد، وبأي شيء آخر يُضرب به، كما أن اللطم -وإن كان صريحا في الضرب باليـد على الوجه- يستخدم فـي سياقات الحزن والوله وعدم الرضوخ للقدر، وقد نهي عن ذلـك في الأحاديث الصحيحة، فظهـر أن تلك الفريـدة هي الأحق بهذا الموضع، ولا يمكن لغيرها أن يحل محلها.

- تتسق هذه الفريدة -دون غيرها- مع السياق أتم اتساق، تأمل قوله: ﴿فَأَقْبَلَتِ﴾ وما فيه من إقبال المندهش المتعجب المستغرب، ثم أنعم النظر في قولها: ﴿فِي صَرَّةٍ﴾، أي: في صيحة وجلبة متعجبة مما سمعت، ومدى الانسجام بين إيقاع حرف الصاد هنا مع حرف الصاد في قوله: ﴿فَصَكَّتْ﴾ كل ذلك تعاون على إبراز الحالة الشعورية التي كانت عليها السيدة سارة، وجعل الفريدة تتجاوب مع سياقها أتم تجاوب.

- تعكس الفريدة حالة فريدة في تاريخ الإنسانية قاطبة مذ كانت وحتى يوم القيامة؛ لأن إنجاب السيدة سارة في مثل هذا السن كان مـن قبيل المعجزة الإلهية على غير ما جرت به نواميس الله في خلقـه، فكان صكُّها لوجهها تعبيرًا عن تلك الحالة العجيبة الغريبة في تاريخ البشرية كما أنها حالة فريدة في تاريخ الأنبياء؛ إذ لم تحـدث لزوج نبي قبل الخليل وبعده، ولا يشبهها - من ناحية أخرى - إلا حالة زكريا عليه السلام

كما سيأتي في موضعه، والله أعلم.

* * *

الفريدة الرابعة: ﴿ٱلرَّوۡعُ﴾ وجاءت في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ﴾ [هود:٧٤].

وسياق تلك الفـريدة ينبئ عن الدهشة التي ألمت بخليل الله إبراهيم عليه السلام بعد سماعه بشرى إنجاب إسحاق، ثم بعدما ذهب عنه الروع أقبل على الملائكة يجادلهم في عذاب قوم لوط.

ويرى اللغويـون أن هذه الفريدة بمعنى الفزع يقول السميـن الحلبي: «قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ﴾ هو الفزع وفي الحديث لن تراعوا، وأصله إصابة الروع بالضم، والرُّوع النفس والخلد»(١).

وهذا هو المعنى الذي ورد في كتب التفسير لتلك اللفظة، ولكن مع زيادة الخوف، يقول الشيخ صديق خان: «﴿ٱلرَّوۡعُ﴾ أي: الخيفة التـي أوجسها في نفسه يقال: ارتاع مـن كذا إذا خاف، قال مجاهد: الروع الفرق وهو الخوف، وقيل: الفزع»(٢).

مما مضى يتضح أن المعاجم وكتب التفسير ذكـرت أن الروع بمعنى الفزع، فلماذا آثر الذكر الحكيم هذه الفريدة، والفزع ذُكر في القرآن في كثير من المواضع؟

---

(١) عمدة الحفاظ ٢/ ١٤٣، ومفردات الراغب ٢٢١، ومختار الصحاح ١١٠ـ ١١١، والمصباح المنير ٩٤، ولسان العرب (روع) .

(٢) فتح البيان ٤/ ٣٨٠، وتفسير الألوسي ٧/ ٦٩٩، والقرطبي ٤/ ٣٦٩، والبحر المحيط ٦/ ١٨٥، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٩٣ .

أرى والله أعلم أن للتعبير بهذه الفريدة أسرارا جمة منها:

- أن الروع وإن كان يشتمل على الفزع إلا أنه فزع فيه ثبات ووقار واطمئنان ورباطة جأش كما يليق بخليل الله ﷺ، فهو فزع داخلي تحس به النفس، ويشعر به القلب، ولا يظهر على قسمات الوجه، يؤكد هذا أن الرُّوع بضم الراء -كما سبق- بمعنى القلب والنفس فالفريدة تشير إلى أن إبراهيم ﷺ قد اندهش وتلك الدهشة كان مكمنها النفس الطاهرة النقية لا رفضًا واستبعادًا لكن مفاجأة واستغرابًا لأن ينجب، وهو شيخ كبير مثلما قالت سارة عليها السلام: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود:٧٢].

فالروع دون غيره هو الذي أبرز بجلاء حالة خليل الله ﷺ، وأبان عن أنه كان ارتياعًا داخليًّا لا خارجيًّا مثلما ظهر على السيدة سارة من صك الوجه، وهذا هو الفارق بين فطرة الرجل، وفطرة المرأة حينما يتلقيان نبأ عجيبًا غريبًا، وشتان بين رد فعل كل منهما، ولن تصلح لفظة أخرى -مهما قاربت الفريدة في المعنى- أن تحل محلها؛ لأنها لن تكشف عن هذه الفروق الدقيقة التي أومأنا إليها، والله أعلم.

- هذه الفريدة أشد اتصالًا بمقام الكلام؛ لأن المقام مقام تعجب وفرح ومسرة لا مقام استنكار وحزن وخوف وفزع، ومن ثم لم يستبد به الروع وقتًا طويلًا بل حل بنفسه هنيهة ثم ذهب كما هو مدلول قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾، وفي هذا تصوير بديع حيث جسد الروع وجعله شخصًا ذاهبًا عن إبراهيم دون رجعة، وقد أضفى هذا التجسيد على الفريدة جمالًا، وكسا العبارة بهاء وكمالًا.

- تثبت هذه الفريدة بما لا يدع مجالًا للشك أن الترادف بمعنى التطابق بين

لفظتين مختلفتين في كل جزئيات المعنى لا يوجد ألبتة في القرآن الكريم، ويجب أن يكون هذا بدهية مسلمة كما أثبت هذا البحث في هذه الفريدة وغيرها، أما الترادف بمعنى الاشتراك في أصل المعنى ثم اختصاص كل لفظة بجزئية وهوية معينة فهذا موجود ولا يستطيع عاقل جحده وإنكاره. ومن ثم لا يوجد في القرآن تطابق بين لفظين من شتى الجهات، بل فيه ترادف بالمعنى السابق، وهو اشتراك لفظين في أصل المعنى ثم يختص كل لفظ بسمة لا توجد في نظيره، والله أعلم.

* * *

الفريدة الخامسة: ﴿تَفۡضَحُونِ﴾ وقد وردت في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾ [الحجر:٦٨].

وهذه الفريدة متصلة بما قبلها أشد اتصال؛ لأن إبراهيم عليه السلام لما ذهب عنه الروع أخذ يجادل الملائكة في مصير قوم لوط، وكانت الملائكة ذاهبة للقضاء عليهم جزاء وفاقًا لما يرتكبونه من جرم شنيع، وفعل وضيع، وحينما وصلت رسل الله إلى مدينة سدوم محل هذه الفئة الضالة نزلوا ضيوفًا على نبي الله لوط عليه السلام فعلم أهل القرية بمقدمهم، وهم يظنونهم شبابًا مردًا في غاية الحسن، ونهاية الجمال، ووقع في خاطرهم أنهم عثروا على صيد ثمين لا مثيل له فجروا إلى لوط مستبشرين بالغنيمة في زعمهم فصدهم عن بغيتهم، وطلب منهم عدم فضيحته في ضيفه، وإلحاق العار به، هذا هو سياق الفريدة، فبنا نكشف عن معناها، وسر ورودها وحيدة مادة وصيغة.

يقول السمين الحلبي: «قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾ أي تظهروا لي الفضيحة، وأصل الفضح بيان الشيء وكشفه، والفضيحة ما يُستحى من

إظهاره، ومنـه فضح الصبح أي: ظهر ضوؤه»[1].

وفي مختار الصحاح: «فضحه فافتضح، أي: كشف مساويه وبابه قطع، والاسم الفضيحة»[2].

وفي المصباح المنير: «الفضيحة: العيب، والجمع فضائح. وفضحته فضحًا من باب نفع: كشفته، وفي الدعاء: لا تفضحنا بين خلقك، أي: استـر عيوبنا، ولا تكشفهـا، ويجوز أن يكون المعنى اعصمنا حتى لا نعصي فنستحق الكشف»[3].

كما ترى قد أورد اللغويون معانيَ للفضيحة كلها متقاربة، وهي بيان الشيء وكشفه، أو ما يستحى من إظهـاره، وكشـف المساوئ والعيوب.

وقد ترددت تلك المعاني في كتب التفسير:

يقول الشيخ صديق خان: «﴿فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾، يقال: فضحه يفضحه فضيحة: إذا أظهر من أمره ما يلزمه العار بإظهاره، وفي المختار: فضحه فافتضح أي كشف مساويه، وبابه قطع، والاسم الفضيحة، والفضوح أيضًا بضمتين، والمعنى: لا تفضحوني عندهم بتعرضكم لهم بالفاحشة فيعلمـون أني عاجز عن حماية من نزل بي، أو لا تفضحوني بفضيحـة ضيفـي؛ فإن من فعل ما يفضح الضيـف فقـد فعل ما يفضح المضيف»[4].

(١) عمدة الحفاظ ٣/ ٢٧٩ .

(٢) مختار الصحاح ٢١٢ .

(٣) المصباح المنير ١٨١ .

(٤) فتح البيان ٥/ ١٩٧، وانظر مفاتيـح الغيب ١٨/ ٤٤٥، وتفسيـر الجمل ٢/ ٥٥١، والألوسي ٩/ ٢٢٦ .

ويبقى أن نتساءل لم آثر القرآن تلك اللفظة؟

أرى -والله أعلم- أن لذلك أسبابا عديدة منها:

- أن في الفريدة إيجازًا واختصارًا بيِّنًا؛ لأنك إن قارنت بينها وبين تلك الدلالات التي ذكرها العلماء تجد الفريدة أوجز وأخصر، والإيجاز هدف من أهداف الذكر الحكيم، وغرض أصيل من أغراضه في بناء عبارته وتكوين أساليبه، وهو سر من أسرار إعجازه.

- في الفريدة ﴿تَفۡضَحُونِ﴾ معنى زائد على دلالة هذه الألفاظ المتقاربة فهي تعني الكشف عن المساوئ القبيحة التي يجب سترها، ومحاولة إخفائها، وهم يريدون كشفها، وهذه الألفاظ ليست نصا في تلك الدلالة، ولن تقدر لفظة أخرى من هذه الألفاظ التي بمعناها على القيام بدورها، واحتلال مكانها.

- هذه الفريدة من أوضح ما يكون في أن ذكر الفرائد في القرآن يرمز - كما أشرنا سابقا - إما لموضع فريد وحيد مذكور في القرآن، أو لحالة فريدة حدثت في تاريخ النبي، أو لوضع غريب عجيب غير مسبوق في تاريخ الإنسانية، يدل على ذلك هنا قوله تعالى في وصف تلك الارتكاسة المشينة، والبوهيمية المرذولة: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٨٠] أي: أنهم كانوا هم أول من ارتكبها وأوجدها في هذه الأرض الطاهرة من رجسهم.

ومن هنا قلنا إن تلك اللفظة بالنظر إلى وجودها فريدة وحيدة في تلك القصة توحي -من طرف خفي، وليس هذا من دلالتها بالطبع- إلى استباق هؤلاء القوم بتلك الفعلة الشنعاء، والجريمة النكراء، وأنهم تفردوا بها على من سبقهم، ولا

تكلف ولا تجاوز فيما ذهبنا إليه؛ لأنه بدا لنا من طريق استصحاب السياق العام للقصة محل الدراسة والله أعلم.

- اتساق هذه الفريدة -دون غيرها- مع سياقها أتم اتساق، انظر إلى التوافق في حرفي الضاد في الفريدة، وبين قوله: ﴿ضَيۡفِي﴾، ثم التشاكل في رؤوس الآي بين الفريدة، وما قبلها ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾، وما بعدها ﴿تُخۡزُونِ﴾، وهذه الأمور ليست أغراضا شكلية قصدًا للزينة والحلية -حاشا وكلا- إنما هي مبنية على التناسب والترابط بين ألفاظ الذكر الحكيم. فكل لفظة فيه لها مع صاحبتها مقام، وكل كلمة تنادي على جاراتها، وتأبى أن يأتي غيرها مكانها، وهذا سر آخر من أسرار إعجازه.

- ومن جمال الفريدة أيضًا أنها وردت على صيغة المضارع لإفادة الاستمرار التجددي، أي: فلا تتجدد فضيحتي عبر الزمان جيلًا بعد جيل إن أنتم اعتديتم على ضيوفي، وكشفتم سترهم بمحضري، وهكذا أدت الفريدة دورها على أحسن ما يكون مادة وصيغة، والله أعلم.

* * *

الفريدة السادسة والسابعة: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾، وجاءتا معًا في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ [الصافات:١٠٣].

والآية الكريمة تحكي موقف الإيمان المطلق، والإذعان الكامل من نبي الله إسماعيل عليه السلام -وهو صغير- لأبيه حين أخبره عن رؤية ذبحه في المنام، وقد ذكر اللغويون في معنى هاتين الفريدتين عدة آراء تتلخص فيما يلي:

يقول الفيومي في المصباح المنير: «التل معروف، والجمع تلال مثل سهم وسهام، وتله تلا من باب قتل: صرعه، ومنه قيل للرمح: متل بكسر الميم»[(١)].

وفي مفردات الراغب: «أصل التل: المكان المرتفع، والتليل العنق، وتله للجبين: أسقطه على التل، كقولك: تربه أسقطه على التراب»[(٢)].

وفي معنى الجبين يقول السمين الحلبي: «الجبين واحد الجبينين وهما جانبا الجبهة»[(٣)].

وهذه المعاني للتل والجبين ترددت في كتب التفسير يقول الشيخ صديق خان: «﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾، أي: صرعه وأسقطه على شقه، وقيل هو الرمي بقوة، وأصله من رماه على التل وهو المكان المرتفع أو من التليل وهو العنق أي: رماه على عنقه، ثم قيل لكل إسقاطٍ وإن لم يكن على تل ولا عنق... والمراد أنه أضجعه على جبينه على الأرض وفي المصباح: الجبين ناحية الجبهة من محاذاة النزعة إلى الصدغ، وهما جبينان عن يمين الجبهة وشمالها، قاله الأزهري وابن فارس، وغيرهم فتكون الجبهة بين جبينين»[(٤)].

وإيثار القرآن لهاتين الفريدتين - دون غيرهما - يعود لأسرار عديدة منها:

---

(١) المصباح المنير ٣٠.
(٢) مفردات الراغب ٧١، وعمدة الحفاظ ١/ ٣٠٥ـ ٣٠٦.
(٣) عمدة الحفاظ ١/ ٣٥٠، ومفردات الراغب ٨٥.
(٤) فتح البيان ٨/ ١١٩، وتفسير الألوسي ١٥/ ٣٨٠، والتحرير والتنوير٢٣/ ١٥٣، والإعجاز اللغوي في القصة القرآنية ٣٢٠.

- الإيجاز والاختصار؛ لأن ﴿تَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ بمعنـى صرعه، وألقاه على خده الأيمن، أو الأيسر استعدادا لذبحه، ولا مِرية في أن قوله: ﴿تَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أخصر وأوجز من ذلك كما هو واضح.

- كما أن الفريدة ﴿تَلَّهُ﴾ أقوى تعبيرًا وأشد تصويرًا من ألقاه وأسقطه وصرعه كما فسره اللغويـون والمفسرون؛ لأنهـا تصور بدقة هيئة إسماعيل عليه السلام المنتصبة الشامخة، وهي تسقط على الأرض طواعية رضا بأمر ربه وأبيه، كما أن لفظة الجبين أكثر دقة لأن الشخص الذي يكون على تلك الهيئة لا بد وأن يُلقى على أحد جنبيه فيكون أحد جبينيه على الأرض فاختار الجبين على الجبهة [(١)] لهذا السبب، فبان من ذلك أن الذكر الحكيم يصطفي ألفاظه بدقة متناهية، وإحكام شديد بلغ الحد، وفاق الوصف.

- هاتان الفريدتان ترمزان إلى عدة أمور فريدة: تفرد موضعهما في القرآن إذ لم يرد الحديث عن هذا الأمر إلا في سورة الصافات فحسب. الأمر الإلهي لخليل الله إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل الوحيد آنذاك هو أمر فريد وحيد لم يحدث قط في تاريخ الكـون كله لأي نبـي أو أي إنسان آخر[(٢)].

استجابة خليل الله إبراهيم -وهو شيخ كبير- لهذا الأمر الإلهي المنامي ينم عن

---

(١) الجبهة من الفرائد أيضًا، وجاءت في القرآن مرة واحدة مجموعة، وسوف نعرض لها في الجزء الثاني من هذه الدراسة إن شاء الله تعالى.

(٢) أما عبد المطلب جد الرسول ﷺ حين أراد أن يذبح ابنه عبد الله والد الرسول فلم يكن هذا أمرًا من الله بل نذرًا نذره إن أنجب عشرة أولاد ليذبحن واحدًا تقـربًا للأصنام فوقعت القرعة على عبد الله والقصة معروفة، وبين الموقفين فرق شاسع.

تفرده بهذا الابتلاء، وتفرده في الاستجابة المطلقة دون تردد، أو مراجعة، أو وجل بل استسلام كامل، وجلـد شديد لأمر المولى ﷻ، وهكذا يكون الأنبياء أولي العزم من الرسل.

والأعجب من ذلك كله الإذعان الكامـل، والطاعة التامة بكل رضا ومحبة من نبي الله إسماعيل عليه السلام لرؤية أبيه بذبحه - وهو ما يزال بعد في ريعان الصبا - كما قالت الآية ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات:١٠٢].

فكان إسماعيل فـي هذه الاستجابة نسيجا وحده لم يتململ أو يتردد بل قال بصيغـة حاسمـة واضحـة: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾، وهو كما يقال: الولد سر أبيه في الطاعة والإذعان لأمر الله.

هذه المواقف الفريدة كلها أومأت إليها هاتان الفريدتان اللتان يكتنفهما التفرد أينما نظرت وتأملت في دلالتهما، وما ترمزان إليه كما يبدو بجلاء، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

المبحث الخامس

أسرارُ التعبير بالفرائد في قصة يوسُفَ عليه السلام

وقد تميزت تلك القصة بورودها كاملة في سورة واحدة[1] تحكي المراحل المختلفة، والأطوار المتعاقبة في حياة الصديق عليه السلام.

وقد وردت في تلك القصة المباركة ثلاثَ عشرةَ فريدةً هي: (اطرحوه - يرتع - دراهم - الزاهدين - غلقت - هيت - شغفها - خبزا - حصحص - نمير - صواع - تفتأ - تفندون).

وسوف نعرض لها حسب ترتيبها السابق فنقول وبالله التوفيق:

الفريدة الأولى: ﴿ٱطۡرَحُوهُ﴾، وجاءت في قوله تعالى: ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾ [يوسف:٩].

---

(١) وفي هذا دلالة واضحة على المقدرة الإلهية في الإتيان بالقصة القرآنية على أي وجه منجمة في سور عديدة، أو كاملة في سورة واحدة.

وقد أجمع اللغويون والمفسرون على أن ﴿ٱطۡرَحُوهُ﴾ بمعنى ألقوه، وابعدوه، وارموه.

ففي عمدة الحفاظ يقول: «قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا﴾ الطرح الإلقاء والإبعاد، والطروح المكان البعيد، يقال رأيته من طرح أي من بعد، ويكون الاطراح غالبا إلقاء الشيء غير معتد به»[1].

وهذه المعاني السابقة هي التي أتت على ألسنة المفسرين، يقول العلامة الألـوسي: «الطرح رمي الشيء، وإلقاؤه، ويقال طـرحت الشيء أبعدته، ومنه قول عروة بن الورد:

وَمَنْ يَكُ مِثْلِي ذَا عِيَالٍ وَمُقْتِرًا ** مِنَ المَالِ يَطْرَحْ نَفْسَهُ كُلَّ مَطْرَحِ

... وحاصل المعنى: اقتلوه أوغربوه؛ فإن التغريب كالقتل في حصول المقصود مع السلامة من إثمه، ولعمري لقد ذكروا أمرين مُرَّين فإن الغربة كربة أية كربة»[2].

وهذه الألفاظ الثلاثة الرمي والإلقاء والإبعاد كلها مستعملة في القرآن فلماذا تركها، وأتى بلفظة لا نظير لها؟

لابد إذن أن يكون في الطرح أسرار لا توجد في أيٍّ من هذه الألفاظ منها:

- أن الطرح يضم في جعبته المعاني السابقة كلها، ويزيد كما يرى السمين معنى عدم الاعتداد، وقلة المبالاة بالمطروح، وأنه لا فائدة منه ولا حاجة إليه، وهذا ما كان

---

(١) عمدة الحفاظ ٢/ ٤٥٩، ومفردات الراغب ٣١١، والمصباح المنير ١٤٠ .

(٢) تفسير الألوسي ٨/ ١١٣، وفتح البيان ٤/ ٤٤٠، وتفسير المنار ١٢/ ٢١٦ .

يعتمل في نفوس إخوة يوسف، علاوة على إبرازها أن حقـدهم علـى يوسف قد تسلل إلى جوامع قلوبهم، ودخائل نفوسهم؛ بدليل تنكير ﴿أَرۡضًا﴾ أي: أرضًا مجهولة منكورة لا يعرفها أحد، ولا يجد للخلاص منها سبيلًا.

وهذه المعاني لا تتأتى في هذه الألفاظ بالدرجة والقوة نفسها، بل قـد لا تتأتى فيها ألبتة، ومن يراجع سيـاقات الألفاظ السابقة في القرآن الكريـم يجدها لا تحمـل شيئا مـن المعاني التي أشرنا إليها، فاتضح أن الفريدة أكثر ثراء، وأوفق في الدلالة على المعنى المراد.

- تكشف الفريدة عن قساوة وغرابة طباع إخوة يوسف؛ لأنهم فكروا أولا بقتله قتلًا صريحًا مباشرًا، ولكنهم خشوا افتضاح أمرهم، فعدلوا إلـى فكرة اطِّراحه في الصحراء الشاسعة التـي تفضي به إلى الموت المحقق غالبًا، ثم لم يلبثوا أن اتفقوا على إلقائه في غيابات الجب وهذه السلوكيات المشينة تعد غريبة؛ لأنها صدرت من أناس تربوا في بيت النبوة القائم على النقاء والصفاء والمحبة، ولكن طبائعهم الممقوتة لم تتأثر بهذا العبق الإيماني، فكـان نهجهم هـذا من الأمور الفريدة العجيبة الغريبة.

- ترمز هذه الفريدة إلى تفرد موقعها في القرآن إذ لم يتكرر الاطراح في الأرض في غير هذه السورة، كما ترمز إلى تفرد هذه الحالة في تاريخ الأنبياء، وتعكس أيضًا انفـراد هذه الحالة على تلك الهيئة في تاريخ الإنسانية الطويل، والله أعلم.

❊ ❊ ❊

الفريدة الثانية: ﴿يَرۡتَعۡ﴾، وقد وردت في قوله تعالى: ﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف:١٢].

بعدما أجمع إخوة يوسف على إلقائه في غيابات الجب شرعوا في تنفيذ مخططهم بالحيلة والمكيدة، ومحاولة كسب ود أبيهم بمعسول الكلام ليوافق على خروج يوسف معهم، وهذا ما يرشد إليه سياق تلك الفريدة.

والفريدة: ﴿يَرۡتَعۡ﴾ لها معنيان: الأول: أكل البهائم، والثاني بمعنى: ينشط وينعم ويلهو كما يقول اللغويون:

ففي مختار الصحاح: «رتعت الماشية أي: أكلت ما شاءت وبابه خضع، ويقال: خرجنا نلعب ونرتع أي: ننعم ونلهو»[(١)].

وقد اكتفى كثير من المفسرين بذكر المعنى الأول يقول ابن عاشور: «﴿يَرۡتَعۡ﴾ مضارع ارتعى، وهو افتعال من الرعي للمبالغة فيه فهو حقيقة في أكل المواشي والبهائم، واستعير في كلامهم للأكل الكثير؛ لأن الناس إذا خرجوا إلى الرياض والأرياف للعب والسبق تقوى شهوة الأكل فيهم فيأكلون أكلا ذريعا فلذلك شبه أكلهم بأكل الأنعام وإنما ذكروا ذلك لأنه يسر أباهم أن يكونوا فرحين»[(٢)].

والسؤال الآن لماذا عبر بتلك الفريدة دون واحد من الألفاظ التي بمعناها؟

أقول في الفريدة تتجلى أسرار عديدة ليست فيما يقاربها منها:

---

(١) مختار الصحاح ٩٨، والمعجم الوسيط ١/ ٣٣٩، ومفردات الراغب ١٩٢، وعمدة الحفاظ ٢/ ٧٤، والبصائر٣/ ٣٥، ولسان العرب (رتع).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٢/ ٢٢٨ .

- أنها تحمل في داخلها دلالات هـذه الألفاظ جميعها، ولا تعارض بينها، وأي لفظة من هذه الألفاظ لا تنهض بأداء تلك المعاني جملة، وهكذا وقعت الفريدة في مكانها الأحق بها، ولا يغني غيرُها في مكانها وثبت أن القرآن يصطفي ألفاظه اصطفاءً لا غاية بعدها.

- في تلك الفريدة دلالة على محاولة إخـوة يوسف كسب ثقة أبيهم بالحيلة والتودد المصطنع؛ لأن الأب إذا علم أن ابنه المحبوب لديه الأثير عنده سيخرج لينعـم ويأكل في خصب وسعة حيث شاء سيكون قرير العين، منشرح الصدر، وهذا أدعى للإسراع في الإجابة، وأكثر دفعًا للموافقـة، ومن ثم قدمـوا ﴿يَرْتَعْ﴾ على ﴿يَلْعَبْ﴾ لنيل تلك الموافقة، ولو لم يذكروا الفريدة، واكتفوا بقولهـم ﴿يَلْعَبْ﴾ لـرفض أبوهم لا محالة؛ لأن يوسف لم يكن ميالًا للعب بطبعه، ولكنهم أتوا باللفظة التي تُحنن قلب أبيهم، وتجعله أقرب للموافقة على طلبهم، ثم لا مانع أن يلعب بعد ذلك كما يلعب الصبيان ففي اللفظة كما ترى معان لا توجد فيما يقاربهـا، وكأنها، وهذا المكان صنوان لا يفترقان.

- تومئ الفريدة إلى أن الحيلة التي احتالوا بها على أبيهم حيلة فريدة تفتقت عنها أذهانهم طمعا في موافقة أبيهم، وشاء المولى ﷻ أن يجعـل يعقوب يوافقهم علـى مضض لتتـم المشيئة، وتسير الأقدار حسبما يقدرها الواحد القهار.

- أظهرت الفريدة بوضوح أن الرتع خلاف اللعب، وأن العطف هنا عطف مغايرة لا تفسير على الأساس الأصلي في دلالة العطف.

- في الرتع - دون غيره - دلالة ظاهرة على أنهم ينوون الخروج من أخبية الحي

المزدحم، والانطلاق بعيدًا في الهواء الطلق حيث معاهد اللعب والخضرة والرياض الوارفة، وهذا المعنى ليس موجودًا بدقة في تلك الألفاظ بل هو نص في الرتع لأنه يستعمل حقيقة في أكل البهائم حين ترتع في المراعي الخضراء، وتأكل بكثرة ووفرة، ثم استعير لأكل الإنسان الكثير ملحوظا فيه هذه المشابهة، وهذا ما أشار إليه ابن فارس حيث يقول: «الراء والتاء والعين كلمة واحدة وهي تدل على الاتساع في المأكل. تقول رتع يرتع إذا أكل ما شاء، ولا يكون ذلك إلا في الخصب»(1).

* * *

الفريدة الثالثة والرابعة: (دراهم - الزاهدين)، ووردتا في قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ [يوسف:٢٠].

علمنا قبلُ أن يعقوب عليه السلام وافق على تململ أن يرسل يوسف مع إخوته إلى المراعي المعشبة، وهناك نفذوا جريمتهم، وألقوه في غيابات الجب، وشاء المولى سبحانه أن تنقذه قافلة عابرة كانت على عجلة من أمرها، وعند أول فرصة باعوه بثمن بخس؛ فقد جاءهم على غير توقع، والقليل من وراءه يكفيهم.

والدرهم -كما يذهب اللغويون- لفظة فارسية معربة، وعرفوه بأنه: «الفضة المطبوعة المتعامل بها»(2).

كما عرفوا الزهد بقولهم: «الزهد في الشيء قلة الرغبة فيه والزهيد الشيء القليل،

(1) مقاييس اللغة لابن فارس ٢/ ٤٨٦ .

(2) مفردات الراغب ١٧٠، ومختار الصحاح ٨٦، والمصباح المنير٧٣، والمعجم الوسيط١/ ٢٩٢.

فمعنى الزاهد في الشيء الراغب عنه القانع منه بقليله»[1].

ولم يخرج حديث المفسرين[2] عما ذكره اللغويون في ذلك.

أما لماذا عبر الذكر الحكيم بهاتين الفريدتين فذلك يعود لأسباب كثيرة منها:

- التئام الفريدتين مع بعضهما أحسن التئام، وكل واحدة منهما لا تستغني عن الأخرى ألبتة، ولا يمكن لغيرهما أن يحل محلهما؛ بدليل أن السياق الذي يحتَفُّ بهما يُلحظ فيه أن ﴿دَرَاهِمَ﴾ وصفت بأنها معدودة أي: قليلة تعد عدًّا ولا توزن وزنًا، و﴿الزَّاهِدِينَ﴾ معناها هنا الرغبة عن الشيء والزهد فيه؛ لأنه قليل ويسير، فبينهما التئام واضح كما ترى.

كما أن التعبير بالدراهم يكشف عن الحالة الاجتماعية السائدة في مصر آنذاك فقد كان البيع والشراء فيها بالعملة والفضة، ولم يكن بالبضائع والسلع مثلما كان الحال في البادية التي أتى منها إخوة يوسف حين صرحوا بقولهم: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَا﴾.

كما أن التعبير بالزاهدين أكثر دقة وملائمة لسياق الآية التي تشير إلى أنهم عثروا عليه مصادفة دون ترتيب مسبق، ومن ثم رضوا بالقليل، وقنعوا باليسير، وباعوه بأرخص الأثمان، وهذا ما يشير إليه الألوسي بقوله: «زهدهم فيه لأنهم التقطوه، والملتقط للشيء متهاون به لا يبالي بما باعه، ولأنه يخاف أن يعرض له

(١) عمدة الحفاظ ٢/ ١٧٠، ومفردات الراغب ٢٢٠، والبصائر ٣/ ١٣٨ .

(٢) تفسير القرطبي ٤/ ٤٧٩، وفي ظلال القرآن ٤/ ١٩٧٦، وتفسير المنار ١٢/ ٢٢٣، والتحرير والتنوير ١٢/ ٢٤٤.

مستحق ينتزعه من يده، فيبيعه من أول مساوم بأوكس الأثمان»[١]، كما أن التعبير بالزاهدين فيه إيماء إلى أنهم يريدون التخلص منه بسرعة خوفًا من أن يتهمهم أحد باسترقاقه دون وجه حق، وهكذا يتضح أن أي لفظة غيرها لن تنهض بأداء هذا المعنى على هذا الوجه الدقيق، والله أعلم.

- هاتان الفريدتان تصوران بوضوح سلوك هذه السيارة، وتنعيان من طرف خفي باللائمة عليها؛ لأنها فاتتها فرصة فريدة لم ولن تتأت لها بعد ذلك، فقد فرطت في جوهرة ثمينة، ودرة غالية، فالقرآن يعتب عليهم هذا الأمر، ويصفهم بالزاهدين، وهو زهد - لاشك - في غير محله؛ لأن الزهد وإن كان في حد ذاته محببًا لكنه في تلك الحالة لم يكن مطلوبًا، فلو أبقوه معهم، ولم يبيعوه في أول فرصة لدر عليهم خيرًا عميمًا، وفضلًا كثيرًا، وبركات عظيمة، ولكنهم لم يكونوا لا خبراء أموال ولا خبراء أحوال؛ يؤكد ما ذكرناه: «صياغة الإخبار عن زهادتهم فيه بصيغة ﴿مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾، وهي أشد مبالغة مما لو أخبر بكانوا فيه زاهدين؛ لأن جعلهم من فريق زاهدين ينبئ بأنهم جروا في زهدهم في أمثاله على سنن أمثالهم البسطاء الذين لا يقدرون قدر نفائس الأمور»[٢].

- أومأت الفريدتان إلى أن هذا الموقف كان فريدًا غريبًا عجيبًا في تاريخ الأنبياء قاطبة إذ لم يتعرض نبي قط لمثل هذه المحنة من الابتلاء والبيع والشراء، والله أعلم.

* * *

---

(١) تفسير الألوسي ٨/ ١٣٨ـ ١٣٩، وانظر مفاتيح الغيب ١٧/ ١٥.

(٢) التحرير والتنوير ١٢/ ٢٤٤ بتصرف يسير.

الفريـدة الخامسة والسادسة: (غلقت - هيت) ونظمتا في قوله تعالـى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف:٢٣].

في الفريدتين السابقتين علمنا أن يوسف قد بيع بثمن بخس، وقد شاء الله ﷻ أن يباع في أرض الكنانة لعزيزها الذي أوصى امرأته أن تكرم مثواه، وكان يوسف أيامئذ صبيًّا صغيرًا، لكنه ما إن شب عن الطـوق، وبدت عليه مخايـل الحسن الفائق، والجمال الخلاب وقعت امرأة العزيز في هواه، وتأججت الشهوة في صدرها، وعزمت على أن تقضي منه لُباناتها، فراودته عن نفسه بعد أن أحكمت رتاج الأبواب، وغلقتـها تغليقًا شديدًا ثم لم ترعو، ودعته لنفسها صراحة بقولها: ﴿هَيۡتَ لَكَ﴾، ولكنـه أبى واستعصم بجناب الله، ورفض هاتيك المغريات كلها، هذا هو السياق الذي وردت فيه تلك الفريدتان.

وسنلقي الضوء على ما ورد فيهما لدى اللغويين والمفسرين ثم نعرج على ما فيهما من أسرار، فأقول وبالله التوفيق:

ذكر الراغب في مفرداته أن: «الغلق والمغلاق ما يغلق به، وقيل ما يفتح به لكن إذا اعتبر بالإغلاق يقـال له مغلق ومغلاق، وإذا اعتبر بالفتح يقال له مفتح ومفتاح، وأغلقت الباب وغلقته على التكثير وذلك إذا أغلقت أبوابا كثيرة، أو أغلقت بابًا واحدًا مرارًا، أو أحكمت إغلاق باب، وعلى هذا: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾»[1].

---

(١) مفـردات الراغب ٣٧٧، وعمـدة الحفاظ ٣/ ٢٠٤، وانظر مختار الصحاح ٢٠٠، والمصباح المنير ١٧٢ .

أما الفريـدة ﴿هَيۡتَ﴾ فهي كلمة لم يأت من جذرها إلا هي وبعض المعاجم ذكرت أن (هيهات) من نفس الجذر، ولكني أرى أنها فريدة وحيدة كما عدها صاحب المعجم المفهرس، وهيهات جذر آخر.

وقد ذكر السمين الحلبي معناها فقال: «قـوله: ﴿هَيۡتَ لَكَ﴾ اسم فعل بمعنى: أقبل وتعال، وقرئ (هيت) بكسر الهاء وفتحها مع فتح التاء للخطاب، و(هئت) مهموزًا مع ضم التـاء للمتكـلم، أي: تهيأت لك»[1]، ولم يخرج المفسرون[2] عما قاله اللغويون.

هذا وقد اختار الذكر الحكيم هاتين الفريدتين على ما قد يقاربهما في المعنى مثل قفَّل، وأقبلْ، المذكورين في القرآن لأمور كثيرة منها:

- أن (غلق) تحكي حـروفها - بدقة - الحدث بعينه، تأمل صوت الغين المجهورة فإنها تعكس صوت أزيز البـاب عند الإغلاق، ثم اللام المجهورة المشددة، والقاف المجهورة الشديدة يشيران إلى شدة التغليق وإحكامه.

كما أن ﴿هَيۡتَ﴾ تحكي بحروفها الهادئة الناعمة هـذه الدعوة الصريحة إلى الخنا والفجور، ولو حاولت وضع ما يسمى بالمترادفات مكانهما لما دلت حروفهما على ذلك، ولفُقد هذا النغم المتحدر المنساب من هاتين الفريدتين. فلو قلتَ في غير القرآن (وقفلت الأبواب وقالت تعال) لصرتَ إلى كلام غث، وأسلـوب سمج مرذول لا

(١) عمـدة الحفاظ ٤/ ٣١٢، والبصائر ٥/ ٣٦٢، وهذه الفريـدة من الفرائد التي أغفلها صاحب رسالة المفاريد كما بينا قبل.

(٢) تفسير الألوسي ٨/ ١٥٠، وفتح البيان ٤/ ٤٥٥، وتفسير الصابوني ٢/ ٦٣٠.

طعـم لـه ولا رونق ولا رواء كما ترى وتحس.

- في التعبير بـ ﴿غَلَّقَتْ﴾ دون (قفَّلت) قوة في النطق تتناسب مع تغليق الأبواب، وتوثيقـها بإحكام حتى لا يصل صدى مراودتها لغيرها، ناهيك عن أنه لو عبر بقفَّلت لأوحت بأنها سدت رتاج الباب من الداخل بالأقفـال كمـا يوحي مفهوم القفل، وهذا لـم يحدث بدليل دخول العزيز دون عوائق كما يفهـم بعدُ من الآيات، كما أن التغليـق بتلك الصورة اللفظية من تضعيف عين الفعل ينم عن حرصها ومبالغتها في البداية على عدم افتضاح أمرها، ومِنْ ثَمَّ غلقته مرة بعد مرة زيادة في الاستحكام، ومبالغة في الاطمئنان، وكما يقال فإن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى.

- وآثر ﴿هَيْتَ﴾ على غيرها؛ لأنهـا «منتهى النزاهة في التعبير، وكان سبب اختيارها أنها أخصر ما يؤدي المراد بأكمل النزاهة اللائقة بالذكر الحكيم»[1]، كما أنها أبانت عن المقصود إبانة واضحة حيث عبرت عن مكنونها، وما يعتلج في صدرها من وله وشوق بحروف ثلاثة لا يعدلها شيء آخر، وهكذا وُضعت كل فريدة في موضعها الأجدر بها، الأحق بوجودها.

- تومئ هاتان الفريدتان إلى تفرد تلك الحالـة في أعراف الناس، وبخاصة لدى ربات القصور لأنها أوصدت الأبواب، وأحكمت رتاجها بنفسها، ثم دعته صراحة لها، والشأن في المرأة السوية أن تكون مطلوبة لا طالبة، وهو موقف غريب عجيب من سيدة القصر تجاه خادم لديها.

---

(١) تفسير المنار ١٢/ ٢٢٨ بتصرف يسير.

وهذا يدل على أن حب يوسف عليه السلام قد ملك عليها زمام نفسها وأخرجها من اتزانها، وجعلها تتصرف بطريقة غير لائقة بها، كما تومئ الفريدتان إلى تفرد هذه الحالة في تاريخ الأنبياء إذ لم يحك القرآن عن نبي آخر أنه تعرض لمثل ما تعرض له يوسف عليه السلام كما تشير إلى أن تلك الحالة – على هذه الصورة الدقيقة – تعد أمرًا فريدًا في تاريخ الإنسانية كلها لم ولن تتكرر على هذه الهيئة وتلك الصورة.

أقول هذا لأن عصرنا المنكوب بالحرية بل بالتحرر من كل شيء نسمع ما يحدث فيه من تهتك سافر، وانحلال شامل في دور البغاء في المجتمعات التي أحاطت بها الرذيلة من فوقها وتحتها، وهناك تعرض المرأة نفسها على سماسرةٍ بدريهمات تبذل من أجلها عرضها، وتنتهك حرمة نفسها دون وازع من دين أو خلق، والطرف الآخر يكون أكثر استعدادًا لاقتراف الخنا، ولذلك لا تكاد هذه الصورة التي عرضها القرآن توجد في عالم الناس، ولندرتها أخبر المصطفى صلى الله عليه وسلم أن من يسير على خطى الصّدّيق سيكون من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله حيث يقول: «ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله».

* * *

الفريدة السابعة: ﴿شَغَفَهَا﴾، وقد وردت في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف:٣٠].

علمنا من الفريدة السابقة أن امرأة العزيز غلقت الأبواب ودعت يوسف إليها، ولكنه أبى واستعصم، وتحكي الآيات التالية أن زوجها قد اطلع على الخبر

بنفسه، وأن هذا الخبر قد تسرب إلى خارج القصر، ولاكته النسوة في هذا المجتمع الأرستقراطي، وهذا ما تحكيه الآية الكريمة التي وردت الفريدة في طياتها.

وقد ذكر اللغويـون لتلك الفريدة عـدة معان متقاربة. يقول السمين الحلبي: «قوله تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: أصاب شغاف قلبها وهو وسطه عن أبي علي، وقيل: باطنه عـن الحسن، وهما متقاربان، وقيل الشغاف جُليدة تسمى غشاء القلب... قال ابن عرفة: وهو حجاب القلب، يريد ما ذكرته، وذلك مثل قولهم: رأَسَه، أي: أصاب رأسه، وكبدَه أي أصاب كبده ويقـال له الشغـف أيضًا»[1]، وجاء كلام المفسرين حول معنى هذه الفريدة قريبًا من اللغويين ولكنه أكثر تفصيلًا، يقول الشيخ صديق خان: «قال أبوعبيدة شغاف القلب غلافه وهو جلدة عليه، وقيل هو وسط القلب، وعلى هذا يكون المعنى دخل حبه إلى شغافها فغلب عليه... ويقال: إن الشغاف الجلدة اللاصقة بالكبد التي لا ترى وهى الجلد البيضاء فكأنه لصق حبها بقلبها كلصوق الجلدة بالكبد، وقيل: المعنى أن حبه دخل الجلدة حتى أصاب القلب، وقيل: إن حبه قد أحاط بقلبها كإحاطة الشغاف بالقلب، قال الكلبي حجب حبه قلبها حتى صارت لا تتعقل شيئا سواه»[2].

وهذه المعانـي التي ذكرها اللغويون والمفسرون للفريدة كلها متقاربة كما نصوا على ذلك.

---

(١) عمدة الحفاظ ٢/ ٣١٨ – ٣١٩، ومفردات الراغب ٢٦٩، ومختار الصحاح ١٤٣، والمصباح المنير ١٢٠، ولسان العرب (شغف).

(٢) فتح البيان ٤/ ٤٦٤ ـ٤٦٥، والألوسي ٨/ ١٧٧ـ١٧٨، ومفاتيح الغيب ١٧/ ٣٩ ـ٤٠، والتحريروالتنوير١٢/ ٢٦٠، وتفسير المنار ١٢/ ٢٤٠، وتفسير الشعراوي ١١/ ٦٩٣٠.

ويبقى أن نقول إن إيثار القرآن لهذه اللفظة له دلالات عدة منها:

- أن الفريدة أوجز فلا شك أن ﴿شَغَفَهَا﴾ أخصر من قولهم قد أصاب حبُّه جلدة قلبها، أو وصل حبه إلى باطن أو وسط قلبها، والبلاغة الإيجاز كما يقولون، والإيجاز في القرآن عنوان من عناوين الإعجاز التي لا تتناهى.

- توحي الفريدة بجرسها، وإيقاع أصواتها بنفاذ هذا الحب ووصوله إلى شغاف قلبها وسويدائه، ولن تجد لفظة أخرى تحكي هذا الأمر بحروفها، وقد ذكر بعضهم أن (شعف) بالعين مرادف شغف، وأنت لو قارنت بينهما عند نطقهما لوجدت أن الغين في (شغف) توحي بأن حبه قد شق نياط قلبها شقًّا، واخترقه حتى تمكن واستقر، وهذا المعنى لا يوجد بالدرجة نفسها في (شعف) كما نلمسه ونحسه، والله أعلم.

- تومئ هذه الفريدة - التي حكاها القرآن على لسان هؤلاء النسوة، وقبل أن يرين يوسف - تومئ إلى أن امرأة العزيز قد ارتكبت حماقة شديدة، وخيانة فريدة في نوعها وحجمها لا تضاهيها في زعمهن أي خيانة أخرى، فهن عندما وصل الخبر إلى مسامعهن اعتقدن أنها اقترفت فعلة شنعاء حمقاء لا نظير لها، ولا يجب أن تحدث من مثلها وهي مَنْ هي؟ هي زوج عزيز مصر! وهو مَنْ هو؟ هو خادمها المطيع! فقد ألمت إذن بأمر فظيع وشنيع، وباتت في ضلال وخسران مبين.

- تشير هذه الفريدة إلى تفرد موضعها في القرآن، وهي ككل الفرائد السابقة واللاحقة في سورة يوسف تومئ إلى ذلك؛ لأن ما ورد من أحداثٍ في قصة يوسف لم يتكرر في القرآن بأي صورة من الصور كما في القصص الأخرى، ولذلك كانت الفرائد في سورة يوسف خاصة من أوضح الدلائل على هذا السر، والله أعلم.

- في التعبير بهذه الفريدة أيضًا إيماء إلى أن حب امرأة العزيز ليوسف كان حبا فريدًا عجيبًا يستحق أن يضرب به المثل، فقد خرق هذا الحب شغاف قلبها، ووصل إلى صميمه، وتمكن واستقر فيه، فلا تعقل إلا هو، ولا يخطر ببالها سواه، مما دفعها إلى أن تتنازل من عليائها وتراوده عن نفسه، وهذه المعاني لا تفهم إلا من تلك الفريدة؛ لأن شغف «مشتق من شغاف الجبال أي رؤوسهن، وقولهم فلان مشغوف بفلانة أي ذهب به الحب أقصى المذاهب»[1].

* * *

الفريدة الثامنة: ﴿خُبْزًا﴾، وقد وردت في قولـه تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٣٦].

في الفريدة السابقة رأينا أن النسوة في مصر قد لُكْنَ بألسنتهن امرأة العزيز، وتحكي الآيات اللاحقة أن امرأة العزيز قد كادت لهن، ثم صممت على إدخال يوسف السجن إن لم يرضخ لها، ورضي يوسف عليه السلام بحياة السجن وما فيه على ارتكاب الخنا ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف:٣٣]، وفي هذا السجن شرع يوسف في تعليم نزلائه العقيدة الصحيحة، وكان يدلل لهم على صدق دعوته بتأويل رؤى هؤلاء المساجين، وقد جاءت الفريدة ﴿خُبْزًا﴾ في هذا السياق كما هو واضح من تلك الآية.

والخبز قد اكتفى اللغويون في تعريفه بقولهم: «قوله تعالى: ﴿خُبْزًا﴾ الخبز

(١) البيان في تفسير غريب القرآن ١/ ٢٤٢ .

معروف، وهو ما يخبز من العجين»[1]، وجاء حديث المفسرين عن تلك اللفظة أكثر تفصيلًا، يقول ابن عاشور: «والخبز اسم لقطعة من دقيق البر، أو الشعير، أو نحوهما يعجن بالماء ويوضع قرب النار حتى ينضج ليؤكل، ويسمى رغيفًا»[2].

لكن لماذا جاءت هذه اللفظة فريدة مادة وصيغة؟

أرى والله أعلم أن ذلك عائد لأسباب منها:

- أن تلك الفريدة قد عبرت عن المراد بدقة وإحكام وسداد، وليس في اللغة لفظ آخر يمكن أن يؤدي هذا المعنى بتلك الدقة الشديدة، ناهيك عن كونه أخصر وأوجز قطعًا مما فُسر به، والبلاغة الإيجاز، والقرآن العظيم هو ذروة البلاغة، وسنام الفصاحة.

- تكشف الفريدة عن الحالة الاجتماعية السائدة في مصر يومئذٍ من وجود الأماكن الخاصة بصناعة هذا الخبز؛ لأن الخبز لا يسمى بهذا الاسم إلا بعد نضجه على النار، وقبل ذلك يطلق عليه عجين، مما ينم عن مدنية وحضارة متقدمة، يُدعِّم هذا ما ورد في ثنايا تلك السورة الكريمة من عبارات تدل على هذا التقدم الحضاري مثل قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ [يوسف:٣١] فهذه الصورة لا تكون إلا في بيئة نالت حظًّا وافرًا من الحضارة.

- تومئ الفريدة إلى أن كثيرًا من الرؤى التي يراها المرء في منامه تتصل بمجال

(١) عمـدة الحفاظ ١/ ٥٦٠، ومفردات الراغب ١٤٢، والمصباح المنير ٦٢، ومختار الصحاح ٧١.

(٢) التحرير والتنوير١٢/ ٢٦٩.

عمله، ومحط اهتمامه، وفي هذا إشارة إلى أن الإنسان في منامه يرى ما يتسلط على فكره، ويشغل باله، ويأخذ بمجامع نفسه وهذا مشاهد ومعروف لدى أغلب الناس في حياتنا كما يرى طالب العلم المجتهد أنه وُفِّق في الامتحان، ويرى غير المجتهد أنه جانبه التوفيق، وذلك راجع من سيطرة الأمر على كليهما، والله أعلم.

- تنم الفريدة عن اختصاص يوسف عليه السلام من بين الأنبياء الذين ذكرت قصتهم في القرآن بتأويل الرؤى، ولـم يَنسب القـرآنُ لأحد آخر من الأنبياء مثل هذا الأمر المعجز الذي ألمحت إليه هذه الفريدة.

- تشير الفريدة من بعيد إلى أن الرؤى والأحلام في هذا الزمان كانت محط اهتمام الناس، وأنهم كانوا يولونها عناية فائقة، ويسعون إلى تأويلها، ومعرفة كنهها سعيًا حثيثًا كما يفهم من هذه الآية الوارد فيها الفريدة، ولم يكن هذا مقصورًا على طائفة دون أخرى؛ بدليل أن ملك مصر آنئذٍ حين رأى رؤيا شغلته لم يهدأ باله حتى عرف تفسيرها من يوسف عليه السلام.

* * *

الفريدة التاسعة: ﴿حَصْحَصَ﴾، وقـد وردت فـي قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف:٥١].

وقد ذكر اللغـويون لهذه الفريدة معاني عديدة، يقول السمين الحلبي: «قوله تعالى: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ظهر، وتبلج وذلك بانكشاف ما يغمُرُه، وأصله

من قولهم رجـل أحـص، وامرأة حصاء، وهو من ذهب شعره فانكشف ما تحته»[1].

وفي المصباح المنير: «حصحص الحق وضح واستبان»[2] ولم يخرج حديث المفسرين حول هذه اللفظة عن تلك المعاني، يقول العلامة أبو السعـود: «﴿ٱلۡـَٔـٰنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: ثبـت واستقر، أو تبين وظهر بعد خفاء قاله الخليل، وقيل: هو مأخوذ من الحصةِ وهي القطعةُ من الجملة أي تبينت حصةُ الحق من حصة الباطل كما تتبين حصصُ الأراضي وغيرها، وقيل بان وظهر من حـص شعره إذا استأصلـه»[3].

ويلاحظ أن هذه المعـاني التي ذكـرها اللغويون والمفسرون لهـذه الفريدة كلها متقاربة.

إذن لماذا لم يعبر بواحدة منها وآثر تلك الفريدة؟

لابد أنها تشتمل على خصائص لا توجد فيما يقاربها منها:

- أن تلك الفريدة تضم في طياتها تلك المعاني كلها، وجميعها مقبولة لا يرفضها المعني العام لسياق الكلام، ولا توجد لفظة أخرى تستطيع أن تحتوي على تلك الدلالات كلها مع فصاحتها وإيجازها.

- في هذه الفريدة قوة وجزالة ومتانة تتناغى بها مع ألفاظ الآية الجزلة القوية فضلًا عن أن مجيئها على تلك الصيغةِ من تَكرار الحاء والصاد يفيـد المبالغةَ في شدة

(١) عمدة الحفاظ ١/ ٤٨٣، ومفردات الراغب ١١٩، ولسان العرب (حصحص) .

(٢) المصباح المنير ٥٣، ومختار الصحاح ٥٩ .

(٣) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٨٤، وانظر تفسير القرطبي ٩/ ٢٠٨، وزاد المسير ٤/ ٢٣٨، ومفاتيح الغيب ١٧/ ٧٦، وتفسير الألوسي ٨/ ٢٣٧، والتحرير والتنوير ١٢/ ٢٩١ .

وضوح الحق، وظهوره بعد خفائه، وكتمانه ردحًا من الزمان فتلك الصيغة تدل بوضوح لا لبس فيه ولا تأول على استبانة الحق وانبلاجه وسطوعه بعد غمره، وتغطيته من قبل العزيز وامرأته، وكل من شاهد هذه الواقعةَ، وعلم وتأكد من براءة يوسف عليه السلام، ولن تنهض لفظةٌ أخرى من الألفاظ التي تقاربها في المعنى بمثل ما نهضت به هذه الفريدة المتفردةُ صيغةً ومادةً في الذكر الحكيم.

- تشير الفريدة إلى عودة امرأة العزيز إلى صوابها، وانقلابها من امرأة والهة مصممة علي الفاحشة علانيةً إلى امرأة مقرةٍ بجرمها معترفةٍ بخطئها دون خوف أو تهديد لها، وهذا أمر فريد؛ إذ لم يُعهد في عالم المرأة أن تعترف صراحة أمام جمعٍ غفير، وحشدٍ كبير أنها راودت رجلًا عن نفسه، ناهيك عن أنها ليست أيَّ امرأة بل هي امرأةُ عزيز مصر صاحبةُ الجاه والقوة والصولجان، فهذا موقف غريب عجيب غاية في التفرد إذ يصعب بل يستحيل أن تجد امرأة على هذا الوصف في تاريخ الإنسانية جمعاء، ولو وضعوا السيف على جيدها أن تعترف بما اعترفت به امرأة العزيز.

وفي هذا الاعتراف شجاعة منقطعةُ النظير، وأوبةٌ للحق لا مثيل لها قديمًا وحديثًا، ومردُّ هذا كلِّه هو إيمانُها بربها كما يفهم من قولها الذي حكاه القرآن الكريم عنها: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف:٥٢]، وقولها أيضًا: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف:٥٣]، فلهذه المرأة موقفان في غاية الغرابة: موقفٌ مزر معيبٌ دلت عليه الفريدة ﴿غَلَّقَتِ﴾، وموقفٌ حر كريم دلت عليه الفريدة ﴿حَصْحَصَ﴾.

- تشير الفريدة إلى تفرد هذا الموضع في القرآن كله؛ إذ لم يرد الحديث عن هذا

الموقف في أي سياق، أو موضوع آخر من الذكر الحكيم.

وهنا أمر ينبغي أن أؤكد عليه وهو أن دلالة الفرائد على تفرد موضعها بنصه وفصه في القرآن لا ينبغي أن يعترض عليه بأن هناك مواطنًا في القرآن كثيرة ذكرت مرة واحدة بنصها وفصها ولم ترد فيها فرائد؛ لأن هذا السر من ضمن أسرار الفرائد وليس سرًّا وحيدًا فيها والله أعلم.

- هذه الفريدة لوجازتها ودقتها في الدلالة على سطوع الحق، وظهوره بعد كتمانه جرت مجرى المثل في دقته وفصاحته وعذوبته كما أشار كثير من العلماء.

وباختصار فقد توافرت في تلك الفريدةِ شتى صنوفِ الفصاحة، ومختلفِ أنواع الجمال، ولا يمكنُ للفظةٍ أخرى أن تحل محلها في هذا المقام فهي أكثر وفاء بالمعنى المراد، وأحلى على اللسان، وألذَّ في الوقع والآذان، والله أعلم.

* * *

الفريدة العاشرة: ﴿نَمِيرُ﴾، وقد وردت في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ [يوسف:٦٥].

لما ظهرت براءة يوسف ساطعة - كما علمنا في الفريدة السابقة - قرَّب ملك مصر يوسف منه، وجعله قيمًا على خزائنها، واستطاع يوسف عليه السلام أن يدير الأمر بإحكام، ثم ما لبث أن انتشر القحط في البلاد التي كانت تجاور مصر، فقدم أخوة يوسف يمتارون، فأعطاهم الميرة، ثم طلب منهم إحضار أخيهم الصغير معهم في المرة القادمة وإلا فلا كيل لهم عنده، وزيادة في التأكيد على ذلك أمر غلمانه أن يضعوا

بضاعتهم في رحالهم حتى يضمن رجوعهم، وهذا ما يدل عليه سياق تلك الآية التي وردت فيها الفريدة.

وقد تحدث السمين الحلبي عن معنى تلك الفريدة فقال: «قوله تعالى: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾، أي: نحمل لهم الميرة، وهي الطعام والأزواد وكل مقتات فهو ميرة»[(1)].

وفي المصباح المنير: «مارهم ميرًا من باب باع، أتاهم بالمِيرة - بكسر الميم - وهي الطعام، وامتارها لنفسه»[(2)].

وهذا المعنى هو الذي دار في كتب التفسير يقول الشيخ صديق خان: «﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ نجلب لهم الميرة وهي الطعام، يقال مار أهله يميرهم إذا حمل لهم الطعام، وجلبه من بلد إلى آخر إليهم، والمائر الذي يأتي بالطعام»[(3)].

وإذا كانت الميرة بمعنى الطعام فما هو السر وراء التعبير بهذه الفريدة دون الطعام وقد ذكر في القرآن في أكثر من موضع؟

لابد أن يكون في التعبير بهاتيك الفريدة أسرار جمة لا توجد في هذا اللفظ منها:

- أن الميرة هي الطعام المجلوب من بلد إلى آخر بوجه عام، أو الطعام المجلوب في زمن القحط والمجاعات، وهذا المعنى الدقيق لا يستفاد من الطعام على إطلاقه كما هو واضح، فظهر أن تلك اللفظة أدل على المطلوب؛ لأن فيها معنى زائدًا لا يوجد في غيرها مما يقاربها، والذكر الحكيم يضع كل لفظة في موضعها الأمثل الذي لا يمكن

---

(١) عمدة الحفاظ ٤/ ١٥١، ومفردات الراغب ٤٩٨، ومقاييس اللغة ٥/ ٢٨٩ .

(٢) مختار الصحاح ٢٦٧، والمعجم الوسيط ٢/ ٩٢٩ .

(٣) فتح البيان ٥/ ٢٢، وانظر مفاتيح الغيب ١٧/ ٩٩، والألوسي ٨/ ٢٦٠ .

لغيرها أن يحل محلها.

- تومئ الفريدة إلى أن القحط الذي ضرب بأطنابه، وامتد بجذوره إلى تلك البلاد كان شديدًا لا نظير ولا مثيل لـه مما دعا إخوة يوسف إلى السفر جميعًا - عدا الصغير بنيامين - لجلب الميرة إلى أهلهم، وإلا لو كان القحط لم يبلغ فيه السيل الزبى ما الذي يدفعهم لمراودة أبيهم ليأخذوا أخاهم معهم كما طلب يوسف، وهم يعلمون موقف أبيهم منهم مذ تآمروا على يوسف ؟ فلا بد أن يكون القحط شديدًا، والمجاعة عنيفة في هذه البلاد مما حدا بهم إلى معاودة السفر من فلسطين إلى مصر في طريق شاق طويل وسط القفار الموحشة، والبرية المهلكة.

- عكست الفريدة تفرد تلك الحالة في القرآن، وفي تاريخ الأنبياء إذ لم يحك القرآن عن حالة من الضنك والقحط والجدب ألمت بنبي من أنبياء الله، ومن معه إلا يعقوب عليه السلام.

- تشير الفريدة إلى غنى مصر وعزها، وتوافر (القمح) أهم الأغذية بها، ومن ثم كانت مقصدا للبلاد المجاورة لأخذ الميرة، وأن الطعام فيها - بفضل سياسة يوسف عليه السلام، وقيامه على شئون وزارته أفضل قيام - كان كثيرًا وفيرًا بحيث غطى احتياجات أهلها، وأهل البلاد التي حولها، وندعو الله أن تعود تلك الأيام بخيرها على مصرنا.

* * *

الفريدة الحادية عشرة: ﴿صُوَاعَ﴾، وأتت في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾ [يوسف:٧٢].

وقد وردت تلك الفريدة في سياق حديث القرآن عن المكيدة التي كادها يوسف

عليه السلام لإخوته ليستبقي معه أخاه بنيامين.

وقد ذكر السمين الحلبي المراد من الصواع فقال: «صواع الملك كان إناء يشرب به ويكال به، ويقال له الصاع، ويذكر ويؤنث. قال تعالى: ﴿نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾، ويعبر عن المكيل باسم ما يكال به في قوله: صاع من بر، أو صاع من شعير»[(١)].

وجاء حديث المفسرين عن الفريدة أكثر توضيحًا. يقول الشيخ صديق خان: «قال الزجاج الصواع الصاع بعينه، وهو يذكر ويؤنث وهو السقاية، قال ابن عباس كل شيء شربت منه فهو الصواع، وقيل الصواع الذي يكال به، وجمعه أصوع... والمراد به آلة الكيل سماها تارة كذا، وتارة كذا، وإنما اتخذ هذا الإناء مكيالًا لعزة ما يكال به في ذلك الوقت»[(٢)].

أما لماذا عبر بالفريدة دونما يقاربها؟ فلذلك دواع مهمة منها:

- حروف الفريدة أوفق وأدق في أداء المعنى المراد فصوت الصاد المهموس لمن يتأمل يوحي بهمس الغلمان مع بعضهم عند افتقادهم إناء الملك، ثم الجهر في الواو والعين يحكي ارتفاع أصواتهم إعلانًا عن المسروق، وأنه شيء له قيمته وخطره.

- التعبير بالصواع دون السقاية - وهي بمعناها كما سماها فيما سبق في قوله: ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ﴾ [يوسف:٧٠] - للإشارة إلى أن المأخوذ كان شيئًا نفيسًا غالي الثمن؛ بدليل أنه أضافه للملك تأكيدًا على نفاسته وغلو ثمنه، وارتفاع قيمته ومكانته بين أمثاله، ولفظة الصواع هي التي توحي بتلك المعاني في هذا المقام،

---

(١) مفردات الراغب ٢٧٩، وعمدة الحفاظ ٢/ ٤١٩ .

(٢) فتح البيان ٥/ ٢٧، مفاتيح الغيب ١٧/ ١١١، في ظلال القرآن ٢/ ٢٠١٩ .

ولو عبر بشيء آخر مكانها - قليل القيمة زهيد الثمن مثلًا - لما استطاع أن يكيد لهم، ويأخذ أخاهم منهم، وقد أعطوا أباهم المواثيق والعهود على عدم التفريط فيه.

كما أن التعبير بتلك اللفظة -وما لها من دلالة- جعلت أخوته لا يعترضون على العقاب الذي ارتآه يوسف عليه السلام، وأعطتهم العذر أمام أبيهم في عدم مقدرتهم على عودة أخيهم معهم؛ لأنه اجترأ على الاقتراب من صواع الملك النفيس.

- كما أن في التعبير بالصواع -في هذا السياق- قوة وجزالة وفخامة تتناسب مع ذكر لفظ الملك المضاف إليه، والقرآن الكريم يعمد إلى التناسب والتشاكل بين الألفاظ فيضع كل لفظة بجوار ما يناسبها ويشاكلها، وهذا عنوان من عناوين بلاغته وإعجازه.

- تشير تلك الفريدة إلى أن سرقة صواع الملك كان - في عرف الناس آنئذٍ - عملًا غريبًا عجيبًا يستحق أن يؤاخذ فاعله بما يؤاخذ به وبخاصة أن هذا الصواع ليس كأي صواع بل كان مكيال الملك الذي يكال به في زمان القحط، فهو شيء نفيس عزيز المنال.

- العدول عن المكيال والميزان، وهما مذكوران في القرآن إلى الصواع وهي لفظة فريدة وحيدة، فيه إيماء إلى أن هذا الموقف فريد وحيد في القرآن، وفي تاريخ الأنبياء والإنسانية جمعاء على تلك الصورة التي حكاها القرآن الكريم، والله أعلم.

* * *

الفريدة الثانية عشرة: ﴿تَفْتَؤُاْ﴾، ووردت في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ [يوسف:٨٥].

وسياق الفريدة يتحدث عن رد فعل يعقوب عليه السلام حين علم بما حـدث لبنيامين وقد جدد عليه فقده جراح فقده ليوسف، فشرع يتأسف عليه، فباغتوه بالقول: أبعد هذا الزمان الطويل ما زلت تذكر يوسف و لا تنساه؟! إن هذا لمفض بك إلى الهلاك.

وقد ذكر السمين الحلبي معناها فقال: «قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾، أي: لا تزال و لا تبرح، وهو مضارع فتئ الملازمة للنفي العاملة عمل كان، وهي ستة أفعال (ما فتئ – ما زال – ما انفك – ما برح)، وهذه الأربعة المشهورة (وونى بمعنى فتر، ورام بمعنى طلب)، ولا تعمل إلا منفية لفظًا أو تقديرًا كقوله: ﴿تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أي لا تفتأ، وهـذا الإضمار لا بـد منه لما تقرر من أنَّ لا يطرد حذفها من المضارع الواقع جواب قسم»[1].

وقريب من الكلام السابق ذهب المفسرون، يقول الشيخ صديق خان: «﴿قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾، أي: لا تفتأ، فحذف حرف النفي لعدم اللبس، قال الفراء: إن لا مضمرة، قال النحاس: والذي قاله صحيح، وعن الخليل وسيبويه مثل قول الفراء، قال الكسائي فتأت وفتيت أفعل كذا أي: ما زلت، وعن ابن عباس تفتأ أي: لا تزال تذكر يوسف، ولا تفتر عن حديثه»[2].

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا لم عبر بتلك الفريدة دون غيرها مما يقاربها في المعنى مثل تزال وهي مذكورة في القرآن؟

---

(١) عمدة الحفاظ ٣/ ٢٣١، ومفـردات الراغب ٣٨٣، ومختار الصحاح ٢٠٥، ولسان العرب (فتئ).

(٢) فتح البيان ٥/ ٣٨، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٤٥٣، وتفسيـر الطبري ١٣/ ٤٠، والبيان في تفسير غريب القرآن ١/ ٢٤٨، والقرطبي ٩/ ٢٤٩، والنسفي ٢/ ٢٠٢٣ .

لا بد أن يكون وراء تلك المغايرة أغراض مهمة منها:

- أن تلك الفريدة تحكي هذا المعنى بدقة من نبرات حروفها، وإيقاع أصواتها. تأمل صوت التاء الشديدة المفتوحة، ثم الفاء الساكنة تجدهما ينمان عن تأفف وضيق هؤلاء الأبناء من موقف أبيهم يعقوب ﷺ الذي ما استمر يذكر يوسف، ويتلجلج لسانُه به بعد هذه المدة الطويلة من فقده، وكان الأولى - من وجهة نظرهم - أن لا يطرأ يوسف على باله بل يتحسر على بنيامين؛ لأنه الأقرب فقدًا، وهكذا وضعت الفريدة في موضعها الأليق بها، ولا توجد لفظة أخرى تدل بحروفها، ووقع أصواتها على تلك المعاني التي دلت عليها الفريدة في ذاك المقام.

- في الفريدة تفتأ معنى لا يوجد فيما يقاربها لأن «فتئ تفيد الاستمرار مستغنية عن حرف النفي، فتقول فتئ يفعل كذا، أي استمر يفعله، وليس الأمر كذلك مع زال فإنها تفيد الاستمرار بحرف النفي فإذا زال عنها النفي كانت تامة، وأفادت معنى الذهاب والزوال»[١].

- ائتلاف هذه اللفظة دون غيرها مع بقية ألفاظ الآية، فهي من أوضح ما يكون على مراعاة الذكر الحكيم للتناسب الشديد بين الألفاظ، وهو ما يسميه الزركشي في البرهان مشاكلة اللفظ للمعنى، أو كما يسميه السيوطي في الإتقان ائتلاف اللفظ مع اللفظ حيث يقول: «ائتلاف اللفظ مع اللفظ وائتلافه مع المعنى الأول: أن تكون الألفاظ يلائم بعضها بعضا بأن يُقرن الغريب بمثله والمتداول بمثله رعاية لحسن الجوار والمناسبة، والثاني: أن تكون ألفاظ الكلام ملائمة للمعنى المراد، فإن كان

(١) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق د/ بنت الشاطئ ٤٢٦ بتصرف يسير .

فخمًا كانت ألفاظه فخمة، أو جزلًا فجزلة، أو غريبًا فغريبة، أو متداولًا فمتداولة، أو متوسطًا بين الغرابة والاستعمال فكذلك، فالأول: كقوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أتى بأغرب ألفاظ القسم وهي التاء فإنها أقل استعمالًا، وأبعد من أفهام العامة بالنسبة إلى الباء والواو، وبأغرب صيغ الأفعال التي ترفع الأسماء، وتنصب الأخبار؛ فإن تزال أقرب إلى الأفهام، وأكثر استعمالًا منها، وبأغرب ألفاظ الهلاك وهو الحرض، فاقتضى حسن الوضع في النظم أن تجاور كل لفظة بلفظة من جنسها في الغرابة توخيًا لحسن الجوار ورغبة في ائتلاف المعاني بالألفاظ، ولتتعادل الألفاظ في الوضع، وتتناسب في النظم، ولما أراد غير ذلك قال: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ فأتى بجميع الألفاظ متداولة لا غرابة فيها»[1].

- تعكس هذه الفريدة تفرد هذا الموضع في القرآن، وتفرد هذه الحالة بعينها في تاريخ الأنبياء والإنسانية جمعاء كما ذكرنا مرارًا، والله أعلم.

* * *

الفريدة الثالثة عشرة: ﴿تُفَنِّدُونِ﴾، وقد وردت فـي قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف:٩٤].

عاد أولاد يعقوب إلى مصر بحثًا عن يوسف وأخيه كما أمرهم أبوهم، وشاء الله -سبحانه- أن تكون هذه الرحلة هي نهاية المطاف، حيث أخبرهم يوسف بحقيقة نفسه، ثم أمرهم أن يذهبوا بقميصه فيلقوه على وجه أبيه فيعود بصيرًا، ولما خرجت القافلة من حدود مصر اشتم يعقوب عليه السلام رائحة قميص يوسف فأخبر أحفاده بما

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧، والبرهان للزركشي ٣/ ٣٧ .

أحس به، ولولا خشيته من عدم تصديقه، ونسبته إلى الكبر والخرف لأخبرهم بأكثر من ذلك.

وهذه الفريدة ذكر لها اللغويون أكثر من معنى يقول السمين الحلبي: «قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ التفنيد نسبة الإنسان إلى الفند، والفند الفساد والخبل، وضعف الرأي، وقيل معناه تلوموني وهو راجع لما ذكرت، وقيل معناه تخرفون أي: تقولون قد خرفت»[1].

وفي مختار الصحاح يقول: «الفند بفتحتين الكذب، وهو أيضًا ضعف الرأي من الهرم، والفعل منهما أفند، ولا يقال عجوز مفند لأنها لم تكن في شبيبتها ذات رأي، والتفنيد اللوم، وتضعيف الرأي»[2].

أما المفسرون فقد استقصوا القول في معناها يقول الشيخ صديق خان: «﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾، أي: لولا أن تنسبوني إلى الفند، وهو ذهاب العقل من الهرم، يقال أفند الرجل إذا خرف وتغير عقله، قاله مجاهد، وقال أبو عبيدة: لولا أن تسفهون فجعل الفند السفه، وقال الزجاج وابن عباس: لولا أن تجهِّلون فجعل الفند الجهل، وقال ابن الأعرابي: لولا أن تضعفوا رأيي، وروي مثله عن أبي عبيدة، وقال الأخفش: التفنيد ضعف الرأي، وكل هذه المعاني راجع إلى التعجيز وتضعيف الرأي يقال فنده تفنيدًا إذا أعجزه، وأفند إذا تكلم بالخطأ»[3]

---

(١) عمدة الحفاظ ٣/ ٢٩٩، ومفردات الراغب ٤٠٠ .

(٢) مختار الصحاح ٢١٤ .

(٣) فتح البيان ٥/ ٤٦، والألوسي ٨/ ٣٣٥، ومفاتيح الغيب ١٧/ ١٤٧ـ١٤٨، والقرطبي ٥/ ٣٥٩، والتحرير والتنوير١٣/ ٥٢ .

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال لمَ لمْ يعبر الذكر الحكيم بشيء مما سبق ذكره؟

أرى والله أعلم أن إيثار التعبير بتلك الفريدة لعلل كثيرة منها:

- هذه الفريدة أقدر من غيرها على حمل هذه المعاني كلها دفعة واحدة وأي معنى من هذه المعاني وضعتَه مكانها فإن سياق الكلام يؤيده، و لا يرفضه، فبان أن الفريدة أوجز وأخصر، وأكثر ثراء، وأغزر دلالة من غيرها، ومن ثم حلت في محلها الأنسب لها، ناهيك عما في حروفها من ثقل وشدة في النطق تعكس ثقل كلام أحفاده على نفسه، وجفائهم في معاملة جدهم يعقوب عليه السلام كآبائهم.

- توحي هذه الفريدة بأن أحفاد يعقوب الذين خاطبهم بهذا القول - إذ كان آباؤهم مازالوا في الطريق من مصر إلى فلسطين - كانوا كآبائهم يعتقدون أن يوسف عليه السلام قد فُقد، وضاع إلى الأبد، وأن ما يذكره يعقوب عنه يعد من قبيل الغرائب والعجائب؛ بدليل أنه عبر بالمضارع المضعف ﴿تُفَنِّدُونِ﴾ دلالة على مبالغتهم في رد فعلهم، واستمرارهم في عدم تصديقهم لما يقول، وتعجلهم في القول والإساءة، وهذا يكشف عن طبيعة هؤلاء الأحفاد الذين تناسل منهم بنو إسرائيل الذين استقرت فيهم تلك الخلال القبيحة، والطباع المزرية، والسلوكيات الغريبة العجيبة، والله أعلم.

- تلمح الفريدة -من طرف خفي- إلى إحدى معجزات يعقوب عليه السلام التي تميز بها عن غيره من الأنبياء بل والإنسانية جمعاء، وهي تمييز رائحة يوسف عن بعد، ولكل إنسان رائحة خاصة به كما أن له بصمة خاصة به، وهذا ما أثبته العلم الحديث، وسبق القرآن إليه قبل أربعة عشر قرنًا، والله أعلم.

المبحث السادس

أسرار التعبير بالفرائد في قصة موسى عليه السلام

موسى عليه السلام نبي من أنبياء بني إسرائيل الكبـراء، وقد ذكرت قصته في الذكر الحكيم في مواضع كثيرة ومتنوعة، وجاءت قصته في سور مكية ومدنية. وقد تميزت تلكم القصة بكثرة عدد الفرائد القرآنية الواردة فيها حيث حصرتُ تحديدًا ثماني وثلاثين فريدة هي:

(بالساحل - فوكزه - تذودان - جَذوة - البقعةِ - فاخلع - نعليك - أهشُّ - أفصحُ - رِدءًا - ولا تنيا - لا ضير - أفـوض - لِتـنوء - القمـل - والضفادع - شرذمـةٌ - الطـود - رهـوًا - سوط - المقبوحيـن - بقلها - وقثائها - وفومهـا - وعدسها - وبصلها - فانبـجست - يتيـهون - بلحيتي - يجـره - تشمت - سكـت - نتـقنا - فاقع - لا شيـة - ينقض - أعيبها - غصبا).

وكثرة عدد الفرائد فـي هذه القصة دون غيرها من القصص القرآني راجع إلى

أن قصة موسى عليه السلام قد تنوعت أحداثها تنوعـا عظيـمًا، وكثُرت فيها المواقفُ الغريبةُ العجيبةُ في تاريخ الأنبياء والإنسانية جمعاء.

فموسى عليه السلام قد أرسله الله عز وجل إلى فرعون طاغية عصره الذي ادعى الألوهية، وقد جرت معه أحداثٌ غريبةٌ وعجيبة سجلتها بعضُ هذه الفرائـد، وموسى عليه السلام -كذلك- أرسله ربه عز وجل إلى بني إسرائيـل ليصححَ لهم عقائـدهم، ويخلصَهم من ظلم فرعون واستعبادِه لهم، وقد حدثت له مع قومه أيضًا أحداثٌ عجيبة وفريدةٌ أومأت إليها بعـض الفرائد الأخرى، كما أن لموسـى عليه السلام مواقفَ خارقةً ومعجزاتٍ باهرةً تفرد بها استحقت أن يشار إليها بالفرائد فهذا -والله أعلم- السببُ في أن قصتـه من أكثر القصص القرآني التي وردت فيها فرائد.

وهذه الفرائد السابقة تضم المرحلتين الأساسيتين في حياة موسى عليه السلام المرحلة الأولى: مذ ولادته في مصر إلى أن تجاوز البحر ببني إسرائيل، وضمت هذه المرحلة إحدى وعشرين فريدة، والمرحلة الثانية: تبدأ من مستهل وجود بني إسرائيل في سيناء، وتشتمل على سبع عشرة فريدة، وسوف نقوم بدراسة هذه الفـرائد حسب الترتيب السابـق لها فنقول وبالله التوفيق:

الفريدة الأولى: ﴿بِٱلسَّاحِلِ﴾ وجاءت خلال قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طـه:٣٩].

وقد وردت في سيـاق امتنان المولى عز وجل على عبده موسى عليه السلام حين كان في المهد صبيًّا، وخافت أمه عليه من زبانية فرعون أن يقتلوه؛ فأوحى إليها إذا خافت عليه أن

تقذفه في التابوت، ثم تقذف التابوت في اليم، وسيتكفل الله ﷻ بحفظه، ويأمر اليم أن يلقيه بالساحل، وليكن بعد ذلك من أمر الله ما يكون.

والمراد بالساحل هنا: «شاطئ البحر وهو من سحل الحديد، أي: برده وقشره؛ لأن الماء يفعل به ذلك، قيل: وعلى هذا فكان ينبغي أن تجئ مسحولًا، ولكنه على حد قولهم: هم ناصب، وقيل: بل هو على بابه؛ لأنه تصور منه أنه يسحل الماء أي: يفرقه ويضيعه»[(١)].

ويقول الشيخ صديق خان: «الساحل هو شط البحر؛ سمي ساحلا لأن الماء سحله، قال ابن دريد والمراد هنا ما يلي الساحل من البحر لا نفس الساحل»[(٢)].

مما سبق من كلام اللغويين والمفسرين علمنا أنهم مجمعون على أن الساحل بمعنى الشاطئ، ولفظة الشاطئ وردت في الذكر الحكيم في قصة موسى أيضًا في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ ﴾ [القصص:٣٠] أي: جانب الوادي.

فلم عدل الذكر الحكيم عن الشاطئ وهو موجود في القرآن، وأتى بلفظة فريدة وحيدة؟

لا بد أن يكون في الساحل أسرار لا تكون في غيره منها:

---

(١) عمدة الحفاظ ٢/ ٢٠٥، ومفردات الراغب ٢٣٢، ومختار الصحاح ١٢٢، والمصباح المنير ١٠٢، وانظر ما ذكر عن تلك الفريدة في بحث (مصر في القرآن دراسة بلاغية) للمؤلف ص ٣٩٦ في حولية كلية اللغة العربية العدد ١٩عام ٢٠٠١م

(٢) فتح البيان ٦/ ٧٨، ومفاتيح الغيب ٢٠/ ٦٠٢ .

- أن التعبير بالساحل منظور فيه إلى أصل معناه اللغوي وهو أن أمواج اليم تقشره وتُنقص منه، أو أنه يفرق أمواج اليم ويضيعها على كلا الوجهين السابقين، وهذا يعني أن موسى عليه السلام لولا رعاية الله له، ولطفه به ما يزال في موضع الخطر؛ لأن الساحل بهذه الصفة غير مأمون لطفل في المهد لا يملك من أمره شيئًا؛ فقد تجرفه الأمواج مرة أخرى وتجذبه إلى خضم اليم.

فالمولى عز وجل حرسه وهو في اليم وخارج اليم على الساحل إلى أن التقطه آل فرعون، وهذا المعنى المنظور إليه هنا -والله أعلم- لا يتأتى في لفظة الشاطئ في أصل معناها اللغوي وهو الجانب، فجانب البحر يبعد عن الموج فيكون أكثر أمنًا.

فثبت أن تلك الفريدة أوفق بمقامها ولا يقدر غيرها أن يُعطي عطاءها في هذا المقام.

- هذه الفريدة تتواءم مع سياق الكلام أشد وئام؛ فسياق الكلام هنا فيه عجلة ولهفة وسرعة خاطفة كما يلاحظ من الأوامر المتتالية أن اقذفيه -فاقذفيه- فليلقه، ولفظة الساحل أخف في نطق حروفها وأسرع فهي تتناسب مع هذا النظم السريع الخاطف أكثر من غيرها، والقرآن الكريم يتخير لكل سياق ما يناسبه من لفظ، أي: أن الساحل له مزيد اختصاص باليم مصدر الخوف والقلق، والشاطئ يتلاءم مع الوادي مصدر الأمان لموسى وهو في معية رب العالمين.

- في تلك الفريدة إلماع إلى أن الموقف كان عجيبًا غريبًا فريدًا من ناحيتين: ناحية موقف يكابد أم موسى عليه السلام وما فيه من عجب إذ تنزلت على إلهام ربها، وألقت بفلذة كبدها في اليم، وهي غير متيقنة من مصيره بعدُ، فكان الأمن وسط هذه المخاوف

كلها، ومن جهة أن اليم ليس مكان حفظ وأمن لطفل في المهد فهلاكه فيه مؤكد لولا أن تداركته عناية الله.

- تومئ الفريدة إلى تفرد هذه الحالة في تاريخ الأنبياء فلم يحدث لنبي آخر في صغره ما جرى لموسى عليه السلام.

كما أن هذه الحالة بهذا الوصف لم تحدث في تاريخ الإنسانية جمعاء فقد تفرد بها موسى عليه السلام بين الخلائق جميعًا، والله أعلم.

* * *

الفريدة الثانية: ﴿فَوَكَزَهُۥ﴾، وجاءت في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ﴾ [القصص:١٥].

وقد اختلف اللغويون في معنى هذه الفريدة على آراء عديدة يقول السمين الحلبي: «قوله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ أي بعصا، والمشهور ضربه بجمع كفه، يقال: لكزه، أي: ضربه ببعضه، ووكزه بكفه، وقيل: الوكز: الدفع بجمع الكف»[١].

ومن المفسرين يقول الشيخ صديق خان: «الوكز الضرب والدفع بجمع الكف، وهكذا اللكز واللهز، وقيل اللكز على اللحى، والوكز على القلب، وقيل: اللكز بأطراف الأصابع، والوكز بجميع الكف، وقيل بالعكس، والنكز كاللكز، وقيل:

(١) عمدة الحفاظ ٤/ ٣٨٧، ومفردات الراغب ٥٦٨، ومختار الصحاح ٣٠٥، والمصباح المنير ٢٥٧، والمعجم الوسيط ٢/ ١٠٩٦ .

ضربه بعصاه...»[1].

وأحسن ما ذكر هنا ما قاله الألوسي: «أي: ضرب القبطي بجمع كفه، أي: بكفه المضمومة أصابعها على ما أخرجه غير واحد عن مجاهد، وقال أبو حيان الوكز الضرب باليد مجموعة كعقد ثلاثة وسبعين، وعلى القولين يكون ﷺ قد ضربه باليد»[2].

وعلى ما سبق من معاني الوكز يتضح أن اختيار هذه الفريـدة كان له أسباب كثيرة منها:

- أن تلك الفريدة دون غيرها من الألفاظ السابقة أخف نطقًا، وأسلس لفظًا، وألذ سمعًا، وأفصح وردًا، وأحلى جنى كما هو ظاهر لكل متأمل منعم للنظر في هذه الفريدة والألفاظ الأخرى، مثل النكز واللكز واللهز إن صح أنها تحمل معناها.

- التعبير بالوكز يتفق مع سياق الكلام أتم اتفاق؛ لأن موسى ﷺ -كما يبدو من السياق- قد فوجئ بتلك المشاجرة، ولم يك عازمًا على قتله مسبقًا، ولكنها المقادير التي وضعت هذا الرجل المصري في طريقه فرأى أن الإسرائيلي مظلوم، والمصري يبطش به دون وجه حق فدفعه عنه مرتفقًا به بجمع كفه على الرأي الراجح فيها مما يتناسب مع كمال موسى ﷺ ومرؤته فصادفت الضربة مقاتل المصري فمات من فوره، ولن تستطيع لفظة أخرى مهما اقترب معناها أن ترشد إلى هذا المعنى الدقيق.

- تعكس هذه اللفظة تفرد هذا الموضع في قصة موسى في القرآن الكريم فلم يرد الحديث عن تلك الحادثة إلا في هذا الموضع من سورة القصص فحسب.

---

(١) فتح البيان ٧/ ١٣٥، ومفاتيح الغيب ٢٣/ ٢٦٠ .

(٢) تفسير الألوسي ١٣/ ٦٥٧ .

كما تعكس الفريدة تفرد هذا الموقف في تاريخ الأنبياء الذين حكى القرآن قصصهم، وربما تعكس تفرد مثل هذا الحالة في تاريخ الإنسانية فمن النادر جدًّا أن يموت إنسان بوكزة إلا إذا صادفت قدره.

* * *

الفريدة الثالثة: ﴿تَذُودَانِ﴾، وجاءت في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص:٢٣].

علمنا من الفريدة السابقة أن موسى عليه السلام قتل القبطي خطأ ودون قصد، وتحكي الآيات التالية أن موسى فر من مصر خوفًا من بطش فرعون، وانتهى به المطاف -بعد رحلة مضنية- إلى مدين، وحط رحاله ليستريح عند بئر ماء، فرأى ما حكته الآية الكريمة التي وردت الفريدة في سياقها.

وعن معنى هذه الفريدة يقول السمين الحلبي: «قوله تعالى: ﴿تَذُودَانِ﴾، أي: تطردان غنمهما عن غنم الناس لئلا تختلط بها... وقيل: يكفان غنمهما حتى يفرغ الحوض من الوراد، وهو أظهر لقوله: ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾، والذود من الإبل ما بين الاثنين إلى التسع للإناث خاصة دون الذكور»(١).

ومن المفسرين يقول أبو عبيدة: «تذودان: مجازه تمنعان وتردان وتطردان، قال جرير:

---

(١) عمدة الحفاظ ٢/ ٥٢، ومفردات الراغب ١٨٥، وبصائر ذوي التمييز ٣/ ٢٧، ومقاييس اللغة لابن فارس ٢/ ٣٦٥.

وَقَدْ سَلَبَتْ عَصَاكَ بَنُو تَمِيمٍ ** فَمَا تَدْرِي بِأَيِّ عَصًا تَذُودُ[1]

ويقول الشيخ صديق خان: «﴿تَذُودَانِ﴾ أي تحبسان أغنامهما من الماء حتى يفرغ الناس، ويخلو بينهما وبين الماء، وبه قال ابن عباس، وورد الذود بمعنى الطرد، أي تطردان، وقيل: تكفان الغنم عن أن تختلط بأغنام الناس، وقيل: تمنعان أغنامهما عن أن تند وتذهب والأول أولى لقوله: (قال) موسى للمرأتين: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾؟ أي: ما شأنكما لا تسقيان غنمكما مع الناس»[2].

وإذا كان الذود له تلك المعاني السابقة فلم فضل الذود عليها ولم يذكر واحدا منها؟

أرى والله أعلم أن لذلك حِكَمًا جليلة منها:

- أن في الذود معنى زائدًا عن تلك الألفاظ، وفيه خصوصية ليست فيها، وهي أن (الذود) في أصل اللغة -كما يقول ابن فارس- له دلالتان: تنحية الشيء عن الشيء، وجماعة من الإبل، وكلا المعنيين لا يتصادمان مع سياق الكلام، لأن المرأة كانت تنحي ما معها من أنعام، وتبعدها عن البئر؛ حتى ينتهيَ الرعاء من وردهم، وهذا الذي تنحيه كانت جماعة من الإبل، وهذان المعنيان اللذان تحتملهما الفريدة لا يفهمان ألبتة من غيرها.

فكانت الفريدة أدق وأقوى في إيصال المراد.

---

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ١٠١ .

(٢) فتح البيان ٧/ ١٤٠، ومفاتيح الغيب ٢٣/ ٢٦٦٥، وتفسير القرطبي ١٣/ ٢٦٨، والألوسي ١٣/ ٦٧٢ .

وهذا الذي ذهبنا إليه لا يتناقض مع حذف المفعول؛ لأن حذف مفعول الذود والسقي كان للثناء على موسى ﷺ، وأنه سقى لهما بصرف النظر عن نوع المسقي إبلًا كان أو شاء، ولكن الذود كما سبق يرجح أن المسقي كان إبلًا، ولو قلنا إن المسقي يجوز أن يكون غنمًا أو نَعَمًا فهذه اللفظة أيضًا أوفق بالمعنى؛ لأنها تحمل في طياتها كل المعاني التي فسرها بها اللغويون فهي أخصر وأوجز وأكثر غنى وثراء.

- تشير الفريدة إلى أن تلك المرأتين قامتا بعمل فريد عجيب لم يكن معهودًا آنذاك؛ لأنهما -كما هو واضح من السياق- كانتا الوحيدتين من النساء بين جماعة الرجال، والمرأة بوجه عام لا تتحمل عبء مثل هذه الأعمال، ومن ثم لفت ذلك نظر موسى ﷺ، وسألهما عن شأنهما، وما الذي حدا بهما أن يفعلا ما فعلا على غير العادة في أمثالهما.

- كما تومئ الفريدة إلى موقف الرعاة الغريب العجيب الذين فقدوا الشهامة والمرؤة والإنسانية الحقة؛ لأنهم أبوا أن يسقوا للمرأتين قبلهم كما هو واجب المروءة: «فالأولى عند ذوي المروءة والفطرة السليمة أن تسقي المرأتان، وتصدرا بأغنامهما أولًا، وأن يفسح لهما الرجال ويعينوهما»[1].

ولكن هذا لم يحدث مما دفع بموسى الهارب المطارد المكدود أن يستنكر هذا السلوك العجيب الغريب من هؤلاء الرجال، ويتقدم ليسأل المرأتين عن سر وجودهما وسط هؤلاء الذين فقدوا النخوة والمروءة.

(١) قصص الرحمن في ظلال القرآن ٣/ ٥٥، وانظر في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٨٥ .

- هذه حالة فريدة لا نظير لها فيما حكاه القرآن عن حواء، فهي لم ترد مطلقًا في غير تلك القصة، وهي حالة فريدة أيضًا فـي تاريخ الأنبياء ترمز إلى قوة موسى عليه السلام وأمانته وشهامة نفسه.

* * *

الفريدة الرابعة: ﴿جَذْوَةٍ﴾ ووردت في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص:٢٩].

يحكي سياق تلك الفريدة أن موسى عليه السلام بعدما قضى الأجل الذي اتفق عليه مع شعيب أخذ أهله وقفل عائدا إلى مصر، وفي طور سيناء، وفي ليلة مظلمة شديـدة البرد حدثت له عجائـب وغرائـب ومعجزات كثيرة أشارت إليها ثمانية فرائد[١] سنذكرها تباعًا، **وأولها** ﴿جَذْوَةٍ﴾، والجـذوة - كما ذكـر اللغويون - هي: «القطعة من الحطب بعد التهاب النار فيها جمعها جُذىً نحو غرفة وغرف، وجِذىً نحو كسرة وكسر»[٢].

وفي مختار الصحاح قال: «قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾، أي: قطعة مـن الجمر، قال: وهي بلغة جميـع العرب، وقال أبو عبيدة: الجذوة القطعة الغليظة من الخشب كان في طرفها نار أو لم يكن»[٣].

وهذا المعنى الأخير قد يكون مقبولًا بدليل تعقيب الجذوة بقوله: ﴿مِّنَ

(١) تحدثنا عن بعض هذه الفرائد عرضا في بحث مصر في القرآن ص ٤١٧ : ٤٢٨ .

(٢) عمدة الحفاظ ١/ ٣٦٢، ومفردات الراغب ٨٨، والمصباح المنير ٣٧ .

(٣) مختار الصحاح ٤٢، ولسان العرب (جذا) .

﴿ٱلنَّارِ﴾، وهو ما أشار إليه الألوسي قائلًا: «﴿أَوۡ جَذۡوَةٍ﴾، أي: عود غليظ سواء كان في رأسه نار كما في قوله:

وَأَلْقَى عَلَى قَيْسٍ مِنَ النَّارِ جَذْوَةً * شَدِيدًا عَلَيْهَا حَرُّهَا والْتِهَابُهَا

أو لم تكن كما في قوله:

بَاتَتْ حَوَاطِبُ لَيْلَى يَلْتَمِسْنَ لَهَا ** جَزْلَ الجِذَا غَيْرَ خَوَّارٍ ولاَ دَعِرِ

ولذا بينت كما قال بعض المحققين بقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ وجعلها نفس النار للمبالغة كأنها لتشبث النار بها استحالت نارًا»[1].

وفي إيثار التعبير بتلك الفريدة إشارات عديدة منها:

- أن تلك الفريدة أوجز مما فسرت به على الرأي المختار؛ لأنها - كما هو واضح بجلاء - أوجز من قولنا: أو أجد قطعة غليظة من الخشب تشتعل فيها النار.

- في الفريدة إيماء إلى أن الجو في تلك الليلة كان شديد البرودة، وأنهما كانا في أشد الحاجة إلى نار يستدفئان بها، ومن ثَمَّ عبر بالجذوة لأن النار المشتعلة في الجذوة تستمر فترة طويلة تكفي طوال الليل.

ولو عبر بلفظة أخرى لما فُهِم مدى المعاناة التي كانوا يعانونها من جراء هذا الجو القارص.

فالتعبير بتلك الفريدة يتناسب مع الحالة التي كانوا عليها أتم تناسب، ويتلاءم مع المناخ القارص الزمهرير في صحراء سيناء في تلك الليالي الشاتية، والله أعلم.

---

(١) تفسير الألوسي١٣/ ٧٠١، والكشاف٣/ ١٧٤، وتفسير القرطبي ١٣/ ٢٨١، والتحرير والتنوير٢٠/ ١١١ .

- يكشف سياق تلك الفريدة عن أن موسى عليه السلام حين رأى النار من بعيد انتابته أكثر من خاطرة فهو قد ضل الطريق والجو بارد، فحاجته إذن من تلك النار إلى شيئين: أن يجد عندها هاديًا يدله على الطريق الصحيح إلى مصر - لأنه لا توجد نار دون من يشعلها غالبًا - وقد أشير إلى ذلـك في سورة النمل بقوله: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ على سبيل اليقين، ولكنه عاود التفكير علَّ النار إذا ذهب إليها لا يجد عندها أحدًا فقال هنا على سبيل الرجاء: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ فاحتاط وعبر بقوله: ﴿لَّعَلِّيٓ﴾ ليكون أكثر دقة، وفي طه عبر بقوله: ﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾؛ لأنه قد يجد عند النار مخبرًا ما، ولكنه لا يعرف الطريق فأتى بتلك العبارة؛ لأنه يتمنى أن يجد من يهديه.

كل هذه الخواطر عبرت عنها تلك الأساليب الواردة في أكثر من سورة، ولكل عبارة لقطة ولمحة لا توجد في غيرها، والحال كان كذلك في طلب الحصول على ما يُدفئهم فعندما لمح النار من بُعدٍ فكر أن تلك النار إذا أتى إليها سيجدها مشتعلة، وعندئذ سيحصل منها على شعلة قوية يستدفئون بها، وهذا ما ذُكر في قوله تعالى في سورة النمل: ﴿أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ [النمل:٧] علـى سبيل اليقين، ولكنه أيضًا راجع نفسه في هذا الأمر، واحتاط فعاد يقول على سبيل الرجاء: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ﴾ [طـه: ١٠].

ثم عاود التفكير قائلًا قد يجد النار -إذا ذهب إليها- قد خمد لهبها، وهمد أوارها فعندئذ لن يحصل إلا على جمرة من النار تكفي ليلتهم، وهو المعبر عنه هنا بقوله: ﴿أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: بجمرة ملتهبة، ويلاحظ أنه لم يأت بصيغة أخري في الحديث عن هذه الحالة -مثلما سبق- لأن الجمرة الملتهبة لا احتمالات فيها.

فجاءت العبارة عن ذلك وحيدة فريدة في سورة القصص تحكي تفرد هذه الحالة في نفس موسى ﵇، وأنه لم يعاود -والله أعلم- التفكير فيها كما عاوده فيما مضى، وقد جاءت كل عبارة كاشفة عما كان يجول في نفسه ﵇ من مختلف الاحتمالات، ولما كانت الجذوة ليس فيها احتمال -كما سبق- لم تتكرر في أي سورة، ألا ما أحكم هذا القرآن وأجله وأعظمه؛ إنه تنزيل من حكيم حميد.

- في الفريدة إشارة إلى أن تلك النار التي تراءت لموسى ﵇ كانت نارًا عجيبة لم ير الكون مثيلها مذ كان وحتى يوم القيامة، فهي ليست ككل النيران بدليل أنها وردت نكرة في كل مواضعها في تلك القصة مما يشي بأنها نار عجيبة فريدة في نوعها غريبة في جنسها ليست من جنس النيران المعتادة المتعارف عليها، بل كانت نارًا مصدرها الملأ الأعلى، فأوحت الفريدة ﴿جَذۡوَةٍ﴾ بذلك كله، والله أعلم.

* * *

الفريدة الخامسة: ﴿ٱلۡبُقۡعَةِ﴾، وجاءت في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [القصص:٣٠].

في الفريدة السابقة رأى موسى ﵇ من النار ما رأى، ولكنه لم يكن وصل إليها بعدُ، فلما أتاها لم يجدها النار التي سرحت فيها خواطره بل وجدها نورًا، وهناك كانت المفاجأة الكبرى التي لم تخطر على باله فقد ناداه رب العالمين بنداء لا يُعرف كنهه ولا وصفه، ناداه من شاطئ الوادي الأيمن في تلك البقعة من أرض سيناء المباركة التي تباركت منذ هذه اللحظة، وكان ذاك تكريما لهذا المكان أيما تكريم.

والبقعة كما يقول السمين الحلبي هي: «الموضع الخاص. قال الليث: هي قطعة من الأرض على غير هيئة التي إلى جنبها، ولذلك يقال فيمن فيه سواد وبياض أبقع وهو جنس منه... ثم استعملت البقعة في مطلق المكان وإن لم يكن فيه مخالفة لما إلى جنبه»[(١)].

وجاء كلام المفسرين مطابقا لما ذكره اللغويون يقول الألوسي: «البقعة القطعة من الأرض على غير هيئة التي إلى جنبها وتفتح باؤها كما في القاموس، ووصفت بالبركة لما خصت به من آيات الله ﷻ وأنواره»[(٢)].

وفي اصطفاء تلك الفريدة دلالات عديدة منها:

- أن أصل الفريدة في اللغة -كما مر- موضع خاص أو قطعة من الأرض على غير هيئة التي إلى جنبها، فأصلها اللغوي يصرح وينادي بصوت عال على أن لها خصوصيات ليست في غيرها، وهذا يتواءم تمامًا مع السياق الوارد فيه تلك الفريدة؛ فإن النظم الكريم الذي يلف هذه اللفظة يؤكد على أنها أرض لها سمات وصفات ليست في غيرها فهي مباركة ومقدسة ومطهرة.

وهكذا انسجمت الفريدة مع سياقها أشد انسجام، ولن تجد غيرها أوفق بهذا المقام كما هو بين لكل من ينعم نظره.

- تفردت تلك البقعة عن غيرها من الأراضي بأمور ومشاهد لم تحدث في مكان آخر، فقد شهدت معجزات كثيرة اختص بها موسى عليه السلام من بين الأنبياء لم تحدث

(١) عمدة الحفاظ ١/ ٢٤٧ - ٢٤٨، ومقاييس اللغة ١/ ٢٨١، والمعجم الوسيط ١/ ٦٨ .
(٢) تفسير الألوسي ١٣/ ٧٠٣، والتحرير والتنوير ٢٠/ ١١٢ .

لغيره، بل لم تحدث في تاريخ الإنسانية قاطبة، والله أعلم.

* * *

الفريدة السادسة والسابعة: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾، ووردتا في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾ [طه:١٢].

وذكر السمين الحلبي معنى الخلع فقال: «قوله تعالى: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾، أي: نحهما، وذلك أنهما كانا من جلد حمار ميت لم يدبغ، وعن بعض الصوفية أنه كناية عن التمكين كقولك انزع ثوبك وخفك وشمر ذيلك، وأصل الخلع الإزالة والتنحية»[١].

و«النعل ما وُقِيت به القدم من الأرض وكذلك النعلة والجمع نعال»[٢].

ولم يرد عند المفسرين في معنى هاتين الفريدتين شيء ذو بال نظرًا لوضوح معناهما.

لكن هذا لا يمنع من أن نثير سؤالنا المهم لماذا آثر النظم الحكيم التعبير بهما دون غيرهما؟

أقول: إن اختيار هاتين الفريدتين وراءه أسرار جمة منها:

- أن حروف هاتين الفريدتين فيها سمات كثيرة من صفات القوة تتمثل في الجهر والشدة والتفخيم والاستعلاء والإصمات، وهذه السمات تحكي قوة الأمر وجديته، وترشد إلى أن هذه البقعة لها مالها من القداسة والاحترام.

- إيثار هاتين الفريدتين عن غيرهما - مثل انزع حذاءيك - لما فيهما من قوة

(١) عمدة الحفاظ ١/ ٦٠١ ـ ٦٠٢، ومفردات الراغب ١٥٦، ومقاييس اللغة ٢/ ٢٠٩ والبصائر ٢/ ٥٦٠ .

(٢) بصائر ذوي التمييز ٥/ ٨٧ .

وجزالة تنسجم مع سياق الكلام أشد انسجام، وهذا يدركه كل متأمل حصيف ممعن للنظر في خبايا الأساليب في هذا السياق الذي تكتنفه القوة والجزالة.

ناهيك عن أن في النزع شدة وعنفوانًا لا تتلاءم في الخطاب مع نبي الله موسى عليه السلام، بخلاف الخلـع فلا يومئ إلى ذلك، كما أن التعبير بالنعل دون غيره فيه نص على المطلوب؛ لأن معناه - كما مر - ما يقي القدم من الأرض وكأن الله عز وجل حين أمره بخلعهما طمأنه أنه لن يصيبه مكروه من جراء ذلك - وبهذا يُعلم أن ما ذكره القرآن لا معقب عليه ولا راد له، ولا يمكن لغيره أن يحل محله.

- الأمر بخلع النعلين يومئ إلى أهمية وقيمة وعظمة هذا المكان فهو كما يذكر المفسرون كان «تعظيمًا؛ لأن الحفوة أبلغ في التواضع، وأقرب إلى التشريف والتكريم، وحسن التأدب، وقيل: معناه انزعهما لتصيب قدميك بركة الوادي المقدس، والأول أولى، ومن ثم طاف السلف بالكعبة حافين: قال النسفي والقرآن يدل على أن ذلك احترام للبقعة وتعظيم لها فخلعهما وألقاهما من وراء الوادي»(١)، والرأي الأخير أيضًا جائز لأنه مصحـوب بعلته في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾، أي: اخلعهما؛ لأنك واقف في الوادي المقدس المطهر، ولا يصح وأنت واقف في الوادي المقدس في معية رب العالمين أن تلبسهما، فكان الأمر بالخلع احترامًا للمكان وتعظيمًا وتكريمًا، وفي الأمر أيضًا لفت إلى قيمة هذا المكان وأهميته في مجرى رسالته، وتعليم بأن المكان الذي يتكلم فيه الرحمن مع نبي من أنبيائه ليس كأي مكان آخر لم يحظ بذلك الشرف والتكريم، بل يجب أن يكون لـه من القداسة والنزاهة

---

(١) فتح البيان ٦/ ٧٠.

والأحكام الشرعية ما ليس في غيره، والله أعلم.

- تشير هاتان الفريدتان إلى أن هذا المكان قد اتصف بصفات لا توجد ألبتة في غيره، فهو المكان الوحيد في الكون كله الذي أنصت لكلام ربه مع نبي من أنبيائه، وهو المكان الذي بدأت منه رسالة موسى عليه السلام إلى فرعون وإلى بني إسرائيل، وهو المكان الذي تنزلت فيه التوراة، وقبل كل ذلك هو المكان الذي تجلى الله فيه، فقد شهد إذن أمورًا عجيبة وفريدة مما استحق أن يكون فريدًا بين الأمكنة متميزًا عنها، ولذلك أشير إليه بلفظة فريدة وهي ﴿ٱلْبُقْعَةِ﴾ في الآية السابقة إيماء إلى ذلك، وأُمر موسى بخلع نعليه فيه بلفظتين فريدتين إيماء إلى أنه ليس ككل الأماكن بل هو مكان معظم مقدس جرت فيه عجائب وغرائب كثيرة، والله أعلم.

* * *

الفريدة الثامنة: ﴿أَهُشُّ﴾ وجاءت في قوله تعالى: ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه:١٨].

بعدما خلع موسى عليه السلام نعليه إكرامًا لتلك البقعة - كما علمنا في الفريدة السابقة - أراد المولى عز وجل أن يؤيده بمعجزات تكون معه وهو يواجه القوم الكافرين، فسأله عما في يده سؤال إيناس وتلطف فأجاب: إنها عصا، ولم يكتف موسى بذلك بل زاد فوصفها بقوله: ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾.

ومعنى أهش كما يقول السمين: «أي: أخبط الشجر ليتناثر ورقه فترعاه الغنم، يقال هش يهِش أي فعل ذلك، وقال الراغب الهش يقارب الهز في التحريك ويقع على

الشيء اللين كهش الورق»[1].

ومن المفسرين يقول الشيخ صديق خان: «﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾ هش بالعصا يهش هشا إذا خبط بها الشجر ليسقط منه الورق. أي: أضرب بها الشجر فيتساقط منه الورق على غنمي قاله عكرمة. وقد روي نحو هذا عن جماعة من السلف أي أهس بالسين المهملة وهو زجر الغنم، وكذا قال عكرمة، وقيل هما لغتان بمعنى واحد»[2].

والسؤال الآن لماذا عبر بأهش دون غيرها مما هو بمعناها؟

لا بد أن يكون في هذا العدول أسرار منها:

- أن الهش هو ضرب أوراق الشجر بالعصا ليسقط ويتحات فتأكل منه الغنم، وهذا هو المراد هنا كما يدل عليه نظم الآية، ومن ثم لا يصلُح أن يوضع مكانه أهز؛ لأن الهز ليس بمعنى الهش تمامًا بتمام إنما يقاربه كما يقول الراغب.

فالحركة في الهز أشمل وأعم؛ لأنها تكون في الشيء الشديد كما في قوله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ [مريم:٢٥]، وفي الشيء اللين كما في اهتزاز النبات، بخلاف الحركة في الهش؛ فإنها أخص حيث تقع على الشيء اللين وهو هش الورق، كما لا يصح أن نقول - كما قال بعض المفسرين - أن أهش وأهس بالسين بمعنى واحد بل بينهما فرق واضح لأن الهس هو زجر الغنم وإبعادها عما لا يريده راعيها، وهذا غير مراد هنا بدليل قوله بعدُ: ﴿عَلَىٰ غَنَمِى﴾ أي: أهش بها ورق الشجر

---

(١) عمدة الحفاظ ٤/ ٢٩٢، ومفردات الراغب ٥١٤، والمصباح المنير ٢٤٤، ومختار الصحاح ٢٩٠، وبصائر ذوي التمييز ٥/ ٣٢٧، ولسان العرب (هش) .

(٢) فتح البيان ٦/ ٧٣، ومفاتيح الغيب ٢٠/ ٥٥٨، والتحرير والتنوير ١٧/ ٢٠٦ .

ليسقط على غنمي، ولو كان المعنى واحدًا، وأن الهش بمعنى الزجر لقال: (وأهش بها غنمي) فبان أن تلك الفريدة هي أليق بهذا المقام، ولا يمكن لغـيرها أن يقوم مقامها، والله أعلم.

- في تلك الفريدة إشارة -من طرف خفي- إلى أن نبي الله موسى عليه السلام اشتغل برعي الغنم فترة من حياته، وقد تفرد عليه السلام بهذا العمل على غيره من الأنبياء الذين حكى القرآن قصصهم؛ حيث لم يومئ القرآن لأحد غيره بذلك.

كما تدل تلك الفريدة على أنه كان عائدًا إلى مصر وهو يصحب بعض الأغنـام التي يشرب ألبانـها، ويأكل لحومها في تلك الرحلة الطويلة، ومعه كذلك العصا التي كان يهش بها الورق علـى غنمه. هذه العصا التي أجـرى الله بها علـى يديه معجزات جمة والله أعلم.

* * *

الفريـدة التاسعة والعاشرة: (أفصح - ردءا)، وجاءتا في قوله تعالى: ﴿ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِىَ رِدۡءًا يُصَدِّقُنِىٓ‌ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ [القصص:٣٤].

في الفـريدة السابقة ذكرنا أن الله عز وجل سأل موسى وهو في تلك البقعة المباركة من أرض مصر عما في يده، فأجاب أنها عصا، واستطرد في أوصافها، ثم أمره بعد ذلـك أن يلقيها فإذا هي حية تسعى، ثم أمره أن يدخل يده في جيبه فخرجت بيضاء من غير سوء، وبعد إظهار هاتين المعجزتين أمره ربه أن يذهب إلى فرعون الطاغية يبلغه رسالة ربه، ومعه هاتان المعجزتان أكبر برهان على صدقه، ولكن موسى عليه السلام

رأى أن المهمة التي سيذهب إليها ثقيلة، وأن الأمر جلل وخطير، من هنا دعا ربه أن يرسل معه أخاه هارون ليكـون له ظهيـرًا ومعينًا، ولأنه يمتلك مقومات لا توجد على الوجه الأكمل في موسى عليه السلام، وهي فصاحة اللسان، وقوة البيان، وهذا ما تدل عليه الفريدتان الواردتان في تلك الآية.

وفي معناهما يقول السمين الحلبي: «قوله تعالى: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ الفصاحة خلوص الكلام وبيانه بحيث لا يلتبس على سامعه وفصح الرجل جادت لغته... وأصل الفصاحة من فصح اللبن يفصح فهو فصيح، وأفصح يفصح فهو مفصح إذا خلص من الرغوة وتعرى عنها، فالفصح خلوص الشيء مما يشوبه»(١).

«وقوله تعالى: ﴿مَعِيَ رِدْءًا﴾ أي: معينًا، والـردء في الحقيقة التابع لغيره معينا له»(٢).

ومن المفسرين يقول الألوسي: «قال أبو حيان الردء المعين الذي يشتد به الأمر فِعل بمعنى مفعول، فهو اسم لما يعان به، كما أن الدفء اسم لما يتدفأ به قال سلامة بن جندل:

وَرِدْئِي كُلُّ أَبْيَضَ مَشْرَفِيٍّ ** شَدِيدِ الْحَدِّ عَضْبٍ ذِي فُلُولِ

ويقال: ردأت الحائط أردؤه دعمته بخشبة لئـلا تسقط.

وفي قولـه: ﴿أَفْصَحُ مِنِّي﴾ دلالة على أن فيه عليه السلام فصاحة، ولكن فصاحة أخيه

---

(١) عمدة الحفاظ ٣/ ٢٧٦، ومفردات الراغب ٣٩٤ .

(٢) عمدة الحفاظ ٢/ ٨٩، ومفردات الراغب ١٩٨ .

أزيد من فصاحته»[1].

وفي هاتين الفريدتين دلالات جمة وإشارات مهمة منها:

- أن التعبير بالفصاحة أدق في الدلالة على المراد؛ لأن الفصاحة في أصل وضعها اللغوي هي خلوص الشيء مما يشوبه، وموسى عليه السلام كان يشوب كلامه حُبْسَةٌ ولُكْنَةٌ؛ بدليل دعائه ربه بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ [طه ٢٥-٢٧]، فكان يحتاج لشخص لديه القدرة على دحض شبهات الكفار بلسانه الفصيح الطليق، ومن ثم طلب من ربه أن يرسل معه أخاه هارون لأنه يتمتع بفصاحة لسان، وقوة بيان، وجودة تعبير إذا تفوه لا يختلط ولا يلتبس ما يقوله على سامعيه مثل اللبن الفصيح الذي خلص مما يشوبه ويختلط به، وهذا المعنى لا يتأتى فيما يقارب الفريدة، أو يرادفها عند من يقول بالترادف، ومن ثم لن تجد لفظة قادرة على إبراز هذا المعنى إلا تلك الفريدة، والله أعلم.

- لا تدل الفريدة من قريب أو بعيد على أن هارون كان أفصح الأنبياء لأن موسى عليه السلام حدد ذلك بقوله: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي﴾ أي: هو أبين عن أغراضه، وأقوى في إعرابه عن نفسه مني، فليس هذا على العموم كما يفهم من كلمة مني؛ لأن سيدنا رسول الله ﷺ كان أفصح البشر قاطبة، وكان عليه السلام يقول: «أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصارًا»، كما ورد في مسند الإمام أحمد [٢/ ٢٥٠].

- كما أن الفريدة ﴿رِدْءًا﴾ هي الأقدر على أداء المعنى مما يقاربها مثل معين؛

---

(١) تفسير الألوسي ١٣/ ٧١٢ـ٧١٣، ومجاز القرآن ٢/ ١٠٤، والكشاف ٣/ ١٧٦، ومفاتيح الغيب ٢٣/ ٢٨١، والتحرير والتنوير ٢٠/ ١١٦.

لأن الردء ليس هو المعين فحسب بل هو المعين الأمين الذي يشتد به الأمر، ويقوى ويُدَعَّم، وهذا المعنى الدقيق لا يوجد في لفظة معين.

- تؤكد تلك الفريدة على أن موسى عليه السلام كان هو الرسول والقائد المخلص لبني إسرائيل كما هو بيِّن من سياق تلك القصة المباركة لكل من يتأملها، وأن دور هارون عليه السلام كان دور التابع المعين الذي يخلفه إن غاب لملاقاة ربه، والذي يبين عنه بلسانه في المواقف التي تحتاج إلى ذلك، أي: أن موسى عليه السلام كان نبيا بالأصالة وهارون بالتبعية، وهذا الأمر في تاريخ الأنبياء يعد فريدا لم يتكرر.

فإسماعيل وإسحاق عليهما السلام نبيان أخوان، وكان كل منهما نبي بالأصالة، عكس الحالة التي معنا هنا فجاءت الفريدة معبرة عن المقصود أتم تعبير وأوفاه، وانسجمت دلالتها مع سياق القصة العام الذي يبرز هارون عليه السلام تابعا لموسى، وغيرها من الألفاظ لا ينهض بتلك الدلالة ألبتة، والله أعلم.

* * *

الفريدة الحادية عشرة: ﴿وَلَا تَنِيَا﴾، ووردت في قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ [طه:٤٢].

لما استجاب الله عز وجل لموسى، وأرسل معه أخاه هارون ردءًا ومعينًا -كما يفهم مما سبق- أمرهما أن يباشرا الدعوة من حينهما، ولا يتوانيا عن ذكر ربهما؛ لأنه هو العاصم لهما من بطش فرعون وطغيانه.

وفي دلالة تلك الفريدة يقول السمين الحلبي: «قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾، أي: لا تفترا ولا تضعفا، يقال: ونى في الأمر يني: إذا ضعف فيه، وقصر في تحصيله

ونيًا»[1].

ويقول الرازي في مختار الصحاح: «الونى الضعف والفتور والكلال والإعياء، يقال: ونى في الأمر يني بالكسر (ونى) و(ونيًا) أي: ضعف فهو وانٍ، وتوانى في حاجته قصر»[2].

ومن المفسرين يقول الصابوني: «(تنيا) الونـى الضعف والفتور قال العجاج:

فَمَا وَنَى مُحَمَّدٌ مُذْ أَنْ غَفَر ❊❊ لَهُ الإِلَهُ مَا مَضَى وَمَا غَبر

فقوله: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾، أي: لا تفترا وتقصرا فـي ذكر الله سبحانه وتسبيحه، قال ابن كثير: والمراد أن لا يفترا عن ذكر الله بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون ليكون ذكر الله عونًا لهما عليه، وقوة لهما وسلطانًا كاسرًا له»[3].

أما لِمَ أُوثر التعبير بتلك الفريدة؟ فلأمور عديدة منها:

- أنها أوفى في التعبير عن المراد؛ لأنها تحمل في طياتها المعاني السابقة كلها، فهي - كما ذكر اللغويون - بمعنى: لا تفترا ولا تكلا ولا تقصرا ولا تضعفا، وهذه الدلالات كلها مرادة ويقبلها سياق الكلام وغيرها لا ينهض بأداء تلك المعاني، ومن ثم فهي أوجز وأفصح؛ لأنها عبرت عن المعاني الكثيرة بلفظة واحدة، وقد وضعت الفريدة في مكانها الأحق بها الذي لا يمكن لغيرها أن يسد مسدها.

وهنا ملحوظة أن النهي عن الونى ليس بالضرورة أن يكون عن تراخ وفتور همة

---

(١) عمدة الحفاظ ٤/ ٣٩٦، والمعجم الوسيط ٢/ ١١٠١ .

(٢) مختار الصحاح ٣٠٧، والمصباح المنير ٢٥٨ .

(٣) صفوة التفاسير للصابوني ٢/ ٨٢٠ .

وعزيمة بل هو تشديد وتأكيد؛ لأن في الذكر فوائد جمة وعظيمة [(١)].

- في هذه الفـريدة إيماء إلى أن دعوة فرعون إلى الإيمان بالواحد الديان كانت - في عرف الناس - أمرًا عجيبـًا غريبًا فـريدًا؛ لأنهم كانوا يعتقدون أنه إله فكيف يُدعى الإله لعبـادة إله غيره؟ ومن ثم استجاب الله ﷻ لموسى ﵇ في كل ما طلبه، فهو يقـول له يا موسى: قد استجبت لدعائك، وأرسلت معك هارون أفصح منك لسانًا وأعذب بيانًا، وهو خير ناصر ومعين، وأمامكما الآن مهمة كبرى وهي أن تدعوا فرعون الملك الطاغية الجبار إلى عبادة الواحد القهار، واستعينا على ذلك بذكر الله وتسبيحه ذكرًا متواصلًا؛ فإن ذكر الله عونكما عليه، وسلاحكما الذي تَغلِبان به.

* * *

الفـريدة الثانية عشرة: ﴿لَا ضَيْرَ﴾، وسُلكـت في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٥٠].

وقد وردت تلك الفريـدة على لسان السحرة -بعدما آمنوا بالله رب العالمين- حين تهددهم فرعون بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف وتصليبهم في جذوع النخل فقالـوا هذه اللفظة غير آبهين بتهديده أي: افعل ما تريد، واقض ما أنت قاض.

وفي معنى هذه الفريدة يقـول السمين: «قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَا ضَيْرَ﴾ الضير بمعنى (الضر والضرر والضور)، يقال: لا ضير، ولا ضر، ولا ضرر، ولا ضور، ولا ضارورة، كلـه بمعنى واحد»[(٢)].

---

(١) انظر الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق د/ بنت الشاطئ ٣٣٤ ـ ٣٣٥ .

(٢) عمدة الحفاظ ٢/ ٤٥١ .

ويقول الراغب في مفرداته: «الضير والمضرة يقال: ضاره وضره، قال: ﴿لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾، وقوله: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠]»[١].

ويقول الشيخ صديق خان: «﴿قَالُواْ لَا ضَيْرَ﴾ أي: لا ضر علينا فيما يلحقنا من عقاب الدنيا فإن ذلك يزول، ولا بد من الانقلاب بعده إلى ربنا فيعطينا من النعيم الدائم مالا يحد ولا يوصف، قال الهروي: لا ضير ولا ضرر ولا ضر بمعنى واحد»[٢].

ويقول الزمخشري: «الضر والضير والضور واحد أرادوا لا ضرر علينا في ذلك بل لنا فيه أعظم النفع لما يحصل لنا في الصبر عليه لوجه الله من تكفير الخطايا والثواب العظيم مع الأعواض الكثيرة...»[٣].

مما سبق علم أن اللغويين والمفسرين يجعلون الضير والضرر بمعنى واحد كما هو ظاهر من كلامهم، ولكنَّ مادة الضير من ضار يضور، أو يضير فهي من باب (قال وباع) كما في مختار الصحاح «ضاره أي ضره وبابه قال وباع»[٤].

أما الضرر فهو من ضرر فجذره اللغوي مختلف؛ ولذا تعد تلك اللفظة من الفرائد؛ لأنها لم تتكرر مادة وصيغة عكس الضرر فقد تكررت مادته في أكثر من موضع.

أما عن سر ورود هذه اللفظة فريدة وحيدة في هذا الموطن، فأرى -والله أعلم-

(١) مفردات الراغب ٣٠٨.
(٢) فتح البيان ٧/ ١٨، وانظر مفاتيح الغيب ٢٣/ ١٢٤، وتفسير الألوسي ١٣/ ١٩٢.
(٣) تفسير الكشاف ٣/ ١١٣، وتفسير القرطبي ١٣/ ٩٩.
(٤) مختار الصحاح ١٦١.

أن الإتيان بها له أسباب عديدة منها:

- أنها تنفي الضر مع عدم المبالاة به، والالتفات إليه إن وقع، أما الضرر فهو سوء الحال في النفس والبدن مع التألم والتأثر والمبالاة بوقوعه، فهـو فرق دقيق كما ترى، ويؤيده سياق الفريدة بوضوح حيث شفعوا ذلك بقولهم: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾، أي: لا نحفل بما تصيبنا به من ضر، ولن يغير ذلك من إيماننا، ولن يفت ذلك في عضدنا وسيرنا في طريق الحق، والإذعان للواحد الديان.

- في تلك الفريـدة -دون ضور، وضرر- خفـة على اللسان، وسلاسة في وقعها علـى الآذان، ولو وُضع غيرها مكانها لضاعت الخفة والسلاسة، وتلك العذوبة البادية في أعطاف الفريدة مع أنهما يشتركان معها فـي حرفين، وجرب ذلك بنفسك، وردده على لسانك تجد مصداق ما أقول لك.

- تؤكد تلك الفريدة صحة ما ذهبنا إليه من أن الفرائـد القرآنية تثبت أن لا ترادف في القرآن الكريم بمعنى التطابق والتكامل بين لفظين في كل شيء، وإلا لاستغنى القرآن بالمذكور المكرر فيه، وهو الضرر عن الضير تلك اللفظة الفريدة، فلما أتى بهـا أنبأ أن هناك فرقًا في المعنى، وتباينًا في الدلالة بينهما، والله أعلم.

- من يتأمل حروف تلـك الفريدة، وإيقاع أصواتها يجد أنها تعكس بوضوح السرعة الفائقة في رد السحرة على تهديدات فرعون بلا تردد ولا تلعثم ولا نكوص ولا مراجعة للنفس.

يؤكد ذلك من سياق تلك السورة قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ [الشعراء٤٥-٤٦]، فهم قد دخل الإيمان

نفوسهم، وأشربوا حبه في قلوبهم عقب أن لقفت عصا موسى عصيهم، فبمجرد رؤيتهم لتلك المعجـزة خروا ساجدين بلا أدنى مهلة كما تدل عليه الفاء في قوله فأُلقي.

وهذا منهم موقف فريد وعجيب في مثل تلك البيئة، وأمام هذا الفرعون الطاغية المتجبر الذي ادعى الألوهية، وقـال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، ومع ذلك لم يرهبوه، ولم يخافوا على أنفسهم، ولكنهم ردوا بسرعة فائقة، وبثقة متناهية على تهديداته بلفظة فريدة نسيجًا وحدها في القرآن عكست تفرد هذا الموقف، وتلك الحالة في تاريخ الإنسانية الطويلة لم يحك الذكر الحكيم عن حدوث مثله في أمة من الأمم على يد أي نبي آخر، والله أعلم.

- تومئ تلك الفريدة إلى أن الإيمان إذا دخل في النفس، وتمكن فيها، وتغلغل في نواحيها يعمل في صاحبه عمل السحر فيجعله ينقلب في أفكاره وفي سلوكياته من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين، فقد بدل الإيمانُ السحرةَ من قمة الكفر والشر إلى ذروة الإيمان والخير من الرهبة والرعـدة من فرعون وملئه إلى الثبات والقوة والجـراءة.

كما تومئ الفريدة إلى أن هؤلاء السحرة كانوا أول من آمن من المصريين من قوم فرعون، وقد صُرح بذلك في الآية التالية في قوله: ﴿إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء:٥١] فقد تفردوا بهذا الأمر دون غيرهم من المصريين، وغير ذلك كثير مما ندعه للقارئ ليتملاه ويستنبطه، والله أعلم.

* * *

الفريدة الثالثة عشرة: ﴿وَأُفَوِّضُ﴾، وقد جاءت في قوله تعالى: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر:٤٤].

وقد وردت تلك الفريدة على لسان مؤمن آل فرعون، وآثرنا دراستها بعد الفريدة السابقة التي أتت على لسان السحرة؛ لأن قصة موسى عليه السلام بعد إيمان السحرة أخذت منحى آخر؛ فإن فرعون وملأه بعد ذلك لم يُسلموا بل لجوا في طغيانهم يعمهون، وأخذ الملأ من قوم فرعون يوغرون صدره على بني إسرائيل مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٧].

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل انسحب التهديد والوعيد على موسى عليه السلام مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر:٢٦]، وهنا بدأ دور مؤمن آل فرعون - الذي كان يكتم إيمانه - يظهر حيث خاف على نبي الله موسى عليه السلام أن تمتد أيديهم إليه بسوء فطفق ينصحهم ويعظهم بأسلوب حكيم، ولما يئس من هدايتهم فوض أمره إلى الله -جل في علاه- هذا هو السياق الذي يكتنف تلك الفريدة.

وقد ذكر السمين معناها فقال: «﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: أرده إليه، يقال: فوض فلان أمره إلى فلان. وأصله من قولهم مالُهم فوضى بينهم، أي: غير متعين لواحد بعينه»[(١)].

---

(١) عمدة الحفاظ ٣/٣٠٣، ومفردات الراغب٤٠١، ومختار الصحاح٢١٥، والمصباح المنير١٨٤ .

ومن المفسرين يقول الشيخ صديق خان: «﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ مستأنف، أي: أتوكل عليه، وأسلم أمري إليه، قيل: إنه قال هذا لما أرادوا الإيقاع به»[1].

وإذا كان التفويض بمعنى الرد والتسليم والتوكيل فلِمَ فضل الذكر الحكيم التعبير بتلك الفريدة دونها؟

لابد أن لذلك التفضيل أغراضًا عديدة منها:

- أنَّ في هذه الفريدة معنى زائدًا لا يوجد فيما يقاربها؛ فالتفويض معناه تسليم الأمر ورده لله سبحانه مع ثبات إيمان صاحبه، وقوة يقينه بربه، وعدم الرهبة والخشية من غيره سبحانه، فهو تفويض عن قوة وعلم وثبات لا عن ضعف وخزي وجهل، وهذه المعاني لا تؤديها الألفاظ الأخرى بالدقة والدرجة نفسها. فكانت هذه الفريدة أكمل في أداء المراد، والله أعلم.

- هذه الفريدة دون غيرها تلتئم بوضوح شديد مع سياق تلك القصة لأن مؤمن آل فرعون لما يئس من إصلاح حال قومه، وعودتهم إلى طريق الرشاد، لم يجد مفرًّا إلا أن يسلم أمره إلى مولاه ينفذ فيهم حكمه ومشيئته، فالتفويض جاء عقب اليأس من النصح والإرشاد، أو أن التفويض جاء عقب تهديدهم له بالقتل، ولكن الله ﷻ نجاه منهم؛ بدليل قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٥]، وعلى كلا الرأيين فقد وضعت الفريدة في مكانها الأمثل الذي لا يغني غيرها غناءها.

- تعكس تلك الفريدة أمرًا عجيبًا فريدًا فإن مؤمن آل فرعون شرع يدافع عن

---

(١) فتح البيان ٨/ ٢٨٩ .

موسى في خضم هذه الأحداث الملتهبة التي تهدد فيها فرعون بني إسرائيل أن ينكل بهم من جديد بل زاد الأمر وتوعد موسى نفسَه - كما مر من الآيات السابقة - في خضم تلك الثورة العارمة على موسى وقومه من فرعون وملئه كان من المفترض أن مَنْ آمن مِن آل فرعون يظل يكتم إيمانه ويخفيه خوفًا وهلعًا من فرعون وبطشه، وألا ينبس ببنت شفة، ولكن الأمر جاء على خلاف ذلك فقد دافع هذا الرجل عن موسى بكل ما لديه من حجج عقلية ومنطقية، وأعلن عن إيمانه صراحة كما في قوله تعالى: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر٤٢-٤٣]، فكان موقف هذا المؤمن في تلك اللحظات العصيبة موقفًا بطوليًّا مشرفًا فريدًا في إيمانه وثباته على الحق وسط أعاصير من الكفر والفساد والطغيان، فأوحت تلك الفريدة بهذه الأمور العجيبة، وأبانت عن أن تلك الشخصية الفريدة غدت نموذجًا مضيئًا وسط ظلام ليل دامس مدلهم، والله أعلم.

- قصة مؤمن آل فرعون ذكرت في القرآن مرة واحدة فحسب، وقد أومأت تلك الفريدة إلى تفرد هذه الموضع الوحيد، والله أعلم.

* * *

الفريدة الرابعة عشرة: ﴿لَتَنُوأُ﴾، وجاءت في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦].

أشارت الفريدة السابقة إلى نموذج حي لصلابة العقيـدة، وقوة الإيمان وسط براكين الكفـر والطغيـان - وهو مؤمن آل فرعون - وكان من المفترض أن يكـون كل بني إسرائيل في مواجهة جبروت فرعون على قلب رجل واحد، ولكن للأسف خرج من بين ظهرانيهم قارون الذي تمالأ مع فرعون على بني جلدته، واستعلى عليهم بماله، وقد رزق الله ﷻ قارون بمال وفير، وخير كثير لا يحصى ولا يعد، وبدل أن يشكر مولاه على ما رزقه من مال طغى وبغى وتكبر وقال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾، فكانت عاقبته أن خسف الله به وبأمواله الأرض غير مأسوف عليه، وذهب مع الذاهبين الهالكين.

وعن تلك الفريدة يقول السمين الحلبي: «﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ﴾ أي: لتنهض، يقال: ناء ينوء إذا نهض، وناء البعير ينوء نوءا كذلك فهو ناء، وقد استعار امرؤ القيس ذلك لليل في قوله:

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ * وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءَ بِكَلْكَلِ

وقوله تعالى: ﴿أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ قيل: هو من ذلك أي: نهض به عبارة عن التكبر، كقولهم: شمخ بأنفه، وقيل: مقلوب من نأى ينأى»[1].

وقد اختلف المفسرون في معناها على أكثر من رأي: يقول الزمخشري: «يقال: ناء به الحمل، إذا أثقله حتى أماله»[2].

ويقول القرطبي: «﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ﴾ أحسن ما قيل فيه أن المعنى لتنيئ

(١) عمدة الحفاظ ٤/ ٢٦٣، ومفردات الراغب ٥٢٩، ومختار الصحاح ٢٨٤ .

(٢) تفسير الكشاف ٣/ ١٩٠ .

العصبة، أي: تميلهم بثقلها، فلما انفتحت التاء دخلت الباء، كما قالوا: هو يذهب بالبؤس، ويذهب البؤس، فصار لتنوء بالعصبة، فجعل العصبة تنوء، أي: تنهض متثاقلة، كقولك: قم بنا أي: اجعلنا نقوم. يقال: ناء ينوء نوءًا إذا نهض بثقل»[1].

ويقول ابن عاشور: «تنوء: تثقل. ويظهر أن الباء في قوله: ﴿بِٱلْعُصْبَةِ﴾ باء الملابسة، أي: تثقل مع العصبة الذين يحملونها، فهي لشدة ثقلها تثقل مع أن حملتها عصبة أولو قوة، وليست هذه الباء باء السببية كالتي في قول امرئ القيس:

.... وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءَ بِكَلْكَلِ

ولا كمثال صاحب الكشاف: ناء به الحمل إذا أثقله الحمل حتى أماله.

وأما قول أبي عبيدة بأن تركيب الآية فيه قلب فلا يقبله من كان له قلب والعصبة الجماعة، وأقرب الأقوال في مقدارها قول مجاهد أنه من عشرة إلى خمسة عشر»[2].

وقد عبر الذكر الحكيم بتلك الفريدة دون غيرها مثل تثقل أو تميل لما تحويه من فوائد عديدة منها:

- أنَّ الفريدة -لمن يتأملها بدقة، ويجريها على لسانه بأناة- تُشعر بثقل حروفها، وهذا الثقل يحكي معنى الفريدة بوضوح، ولن تقدر لفظة غيرها أن تؤدي هذا المعنى بجرس حروفها كما تؤديه تلك الفريدة.

---

(١) تفسير القرطبي ١٣/ ٣١٢، وانظر تفصيلا أكثر في الإعجاز البياني للقرآن د/ بنت الشاطئ ٥٦٢: ٥٦٤ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٠/ ١٧٧ .

- تومئ الفريدة إلى أن قارون كان يملك مالًا - يعد في حينه ووقته كثيرًا -لا يقدر على امتلاكه فرد آخر مطلقًا، أو لا يوجد عند بني إسرائيل -الذين هو منهم- مَنْ كان لديه مثل ماله بدليل قولهم: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾ [القصص:٧٩]، فالفريدة توحي بتفرد هذا الأمر على أي حالة من الحالتين السابقتين، كما يفهم من سياق قصته الواردة في سورة القصص، وهذا أمر يعد عجيبًا غريبًا في عرف الناس آنئذ.

- تومئ الفريدة إلى تفرد موطنها في الذكر الحكيم فلم ترد هذه القصة بعينها في موضع آخر ألبتة، كما تعكس تلك الفريدة تفرد هذه الحالة في تاريخ الناس قاطبة، فإذا كانت مفاتيح هذه الكنوز تنهض بها العصابة القوية متثاقلة فما بالك بالكنوز نفسها ففي الفريدة إيماء إلى أن هذا الأمر كان شيئًا عجيبًا غريبًا لا يحيط به وصف.

ومن ثم كان ذهاب قارون وكنوزه في سلك الذاهبين الهالكين فريدًا عجيبًا لا نظير له ولا شبيه، والله أعلم.

* * *

الفريدة الخامسة عشرة والسادسة عشرة: ﴿الْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ﴾.

ووردتا في قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف:١٣٣].

يبين سياق تلكم الفريدتين السابقتين أن موسى عليه السلام لما يئس من إيمان فرعون وقومه دعا عليهم، فبدأ عقاب الله يتتابع حيث أخذهم الله عز وجل أولا بالسنين ونقص من الثمرات مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ

﴿ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف:١٣٠]، ولكنهم لم يرعووا، وأبت عليهم طبائعهم الفاسدة الإذعان والإيمان وقالوا لموسى عليه السلام: ﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾، فسلط الله عز وجل عليهم صنوفًا من المصائب وهي (الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم) وكانوا يرجون موسى عليه السلام بعد وقوع كل صنف من صنوف هذا العذاب لئن كشفه الله عنهم ليؤمِنُن به فيُكْشَفُ، ولكنهم بعد ذلك ينكثون.

وعلى نهجنا هنا نذكر ما ورد لدى اللغويين والمفسرين ثم نبين ما في الفريدتين من أسرار ونكات فنقول وبالله التوفيق:

يقول السمين الحلبي في القمل: «قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ﴾، قيل: هي صغار الذباب، وقيل: كبار القردان، وقيل: هي القمل المعروف، وقيل: دواب أصغر منه.

ورجل قمل أي: فيه قمل، وامرأة قملة صغيرة قبيحة كأنها قملة»[١].

ويقول الرازي في الضفادع: «والضفدع -بوزن الخنصر- واحد الضفادع، والأنثى: ضفدعة»[٢].

ومن المفسرين يقول الشيخ صديق خان: «القمل بضم القاف وفتح الميم المشددة، وقرأ الحسن (القمل) بفتح القاف وسكون الميم، قيل: هي الدباء، قاله مجاهد وقتادة والسدي والكلبي، والدباء الجراد قبل أن يطير، وقال عطاء: إنه القمل المعروف

(١) عمدة الحفاظ ٣/ ٣٩٩، ومفردات الراغب ٤٢٨ .
(٢) مختار الصحاح ١٦٠، والمصباح المنير ١٣٧ .

فأكل ما أبقاه الجراد ولحس الأرض، وقيل: هو السوس الذي يخرج من الحنطة، قاله ابن عباس، وقيل: البراغيث، وقيل: دواب سود صغار، وقيل: ضرب من القردان، وقيـل: الجعلان، قال النحاس: يجوز أن تكون هذه الأشياء كلها أرسلت عليهم، والضفادع جمع ضفدع، وهي الحيوان المعروف الذي يكون في الماء وكانت تقع في طعامهم وشرابهم حتى إذا تكلم الرجل تقع في فيه، وأقامت عليهم ثمانية أيام»[(١)].

كما ترى فقد وقع اختلاف لدى اللغويين والمفسرين في معنى القمل، ولكنهم اتفقوا في معنى الضفادع، والسؤال الآن لِمَ عبر عن هذين الصنفين من العذاب بلفظتين فريدتين؟

أرى والله أعلم أن اجتباء هاتين الفريدتين له أسرار عديدة منها:

- أن حروف هاتين الفريدتين فيهما قوة وشدة توحي بقوة وشدة العذاب

الواقع عليهم من هذين النوعين بصفة خاصة، ومن يتأمل حروفهما ويقارنهما بما ورد معهما يدرك بوضوح صحة ما أقول.

تأمل ﴿الْقُمَّلَ﴾ تجد حرف القاف الشديد المجهور، ثم تسمع الجهر في الميم المشددة ثم انتهاء الكلمة بحرف اللام المجهور، وكلها من صفات القوة في الحروف، ثم أنعم النظر في ﴿الضَّفَادِعَ﴾ وما في الضاد من نبرة قوية تحمل من صفات القوة الجهر والتفخيـم والاستعلاء والإطباق ثم ختامها بالعين المجهورة، كل ذلك يحكي ثقل وقوة وشدة عذاب هذين النوعين أكثر من غيرهما، والله أعلم.

---

(١) فتح البيان ٣/ ٣٩٤، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٢٦، ومفاتيح الغيب ١٣/ ٢٥٢، وتفسير الجمل ٢/ ١٨١، والألوسي ٦/ ٢١٠، والتحرير والتنوير ٩/ ٦٩ .

وقد تنبه ابن الأثير من القدماء لثقل حروف هاتين الفريدتين مقارنة بها معهما، ولكنه لم ينظر إلى أثر ذلك في الدلالة كما ذهبنا نحن – فيما مضى – حيث يقول: «وإذا نظرنا إلى حكمة أسرار الفصاحة في القرآن الكريم غصنا منه في بحر عميق لا قرار له، فمن ذلك هذه الآية المشار إليها فإنها قد تضمنت خمسة ألفاظ، هي: (الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم)، وأحسن هذه الألفاظ الخمسة هي (الطوفان والجراد والدم).

فلما وردت هذه الألفاظ الخمسة بجملتها قدم منها لفظتا: (الطوفان والجراد)، وأخرت لفظة (الدم) آخرًا، وجعلت لفظة (القمل والضفادع) في الوسط ليطرق السمع أولًا الحسن من الألفاظ الخمسة وينتهي إليه آخرًا، ثم إن لفظة (الدم) أحسن من لفظتي (الطوفان والجراد)، وأخف في الاستعمال، ومن أجل ذلك جيء بها آخرًا، ومراعاة مثل هذه الأسرار والدقائق في استعمال الألفاظ ليس من القدرة البشرية»[1].

وقد عرض الرافعي كذلك لأسرار التعبير بهاتين الفريدتين الثقيلتين وسط هذه الكلمات، وأضاف إضافة يسيرة على ما ذكره ابن الأثير فقال: «تأمل قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ ﴾ فإنها خمسة أسماء أخفها في اللفظ (الطوفان والجراد والدم)، وأثقلها ﴿ٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ﴾، فقدم ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾ لمكان المدَّين فيها حتى يأنس اللسان بخفتها؛ ثم ﴿ٱلْجَرَادَ﴾

---

(١) المثل السائر لابن الأثير ١/ ١٦٩، المشاهد في القرآن ٤٣٤، وجماليات المفردة القرآنية ١٩٠-١٩١.

وفيها كذلك مد؛ ثم جاء باللفظين الشديدين مبتدئًا بأخفهما في اللسان، وأبعدهما في الصوت لمكان تلك الغنة فيه؛ ثم جيء بلفظة ﴿الدَّمَ﴾ آخرًا، وهي أخف الخمسة وأقلها حروفًا ليسرع اللسان فيها، ويستقيم لها ذوق النظم، ويتم بها هذا الإعجاز في التركيب، وأنت مهما قلبت هذه الأسماء الخمسة، فإنك لا ترى لها فصاحة إلا في هذا الموضع؛ فلو قدمت أو أخرت لبادرك التهافت والتعثر، ولأَعْنَتَك أن تجيء منها بنظم فصيح، ثم لا ريب أحالك ذلك عن قصد الفصاحة، وقطعك دون غايتها ثم لخرجتِ الأسماء في اضطراب النطق على ذلك بالسواء ليس يظهر أخفها من أثقلها فانظر كيف يكون الإعجاز فيما ليس فيه إعجاز بطبيعته»[(١)].

فالرافعي نظر – كما فعل ابن الأثير قبله – إلى أسرار هاتيـن الفريدتين من حيث هيئة وضعهما وترتيبهما في النظم، ولم يبين سر عدم تكرارهما في القرآن على أي حالة من الحالات اللفظية الأخرى وهو ما وفقنا الله ﷻ لبيانه فيما مضى، وفيما يأتي.

– مجيء هاتين اللفظتين فـريدتين وسط مجموعة من ألفاظ العذاب الأخرى فيه دلالة –والله أعلم– على طول مدة هذين العذابين على فرعون وقومه، وأنهما بالرغم من ضآلة حجمهما كانا أقوى إيلامًا، وأشدا إيجاعا عليهم، فالقمل كانت تأتيهم على صور مختلفة، وأشكال متعددة – كما مر في قول النحاس عند حديثه عن اختلاف معاني القمل (كلها أرسلت عليهم) – ولا شك فإن هذه الحشرة الصغيرة جدًّا – أيًّا كان المراد منها – كانت تلازمهم ليل نهار في حلهـم وترحالهم في بيوتهم وخارج

(١) إعجاز القرآن للرافعي ٢٤٧ـ٢٤٨، والظاهرة الجمالية في القرآن ٢٠١، وانظر وحي الحرف والحركة في الصورة الأدبية د/ غانم السعيد ١٠٦ ـ ١٠٧ .

بيوتهم، فكان ذلك أنكى وأوجع وأشد إيلامًا.

كما أن الضفادع -بحكم صغر أجسادها وقدرتها على أن تثب وتقفز من مكان إلى آخر بسرعة- كانت مصدر قلق واضطراب شديد لهم لأنها لم تترك شيئًا من آنية طعامهم وشرابهم إلا وقد وقعت فيها بل ولا يفتح أحد منهم فمه -كما يقول المفسرون- إلا قفزت إليه فكان هذان النوعان من العذاب -والله أعلم- أشد وأنكى عليهما، ومن ثم عكس تفرد هذين اللفظين غرابة هذين الصنفين من العذاب، والله أعلم.

- تدل هاتان الفريدتان على أن ما أصاب قوم فرعون من أشكال العذاب المختلفة كان جديدًا في بابه بالنسبة للأمم التي وقع بها صنوف من العذاب، فلم يحك القرآن عن عذاب (بالقمل والضفادع) إلا في قوم فرعون، فعكس تفرد الفريدتين - والله أعلم - تفرد هذين العذابين في تاريخ الأنبياء، وفي تاريخ الإنسانية جمعاء، كما عكستا تفرد هذا الموضع في القرآن الكريم، فلم يرد الحديث عن عذاب قوم فرعون بهذه المعجزات إلا هنا فحسب، والله أعلم.

* * *

الفريدة السابعة عشرة: ﴿شِرْذِمَةٌ﴾، وجاءت في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ [الشعراء:٥٤].

تحكي سياق تلك القصة المباركة أن فرعون وقومه لم يرتدعوا حين عاقبهم الله بالسنين ونقص من الثمرات، وحين أرسل عليهم ﴿ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾، وهنا أمر المولى ﷻ موسى أن يخرج ببني إسرائيل من مصر خفية،

وقد علم فرعون بشأنهم، فجمع جنوده من مدائن مصر المختلفة لمطاردتهم وتشجيعًا لهم على اللحاق بهم وصفهم بما ذكرته الآية التي وردت فيها تلك الفريدة.

ويذكر السمين الحلبي معناها فيقول: «قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ﴾ الشرذمة: الجماعة المنقطعة، من قولهم: ثوب شراذم، أي: متقطع»[(١)].

ومن المفسرين يقول الشيخ صديق خان: «﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ﴾، يريد: بني إسرائيل، والشرذمة: الجمع الحقير القليل، والجمع: شراذم، قال الجوهري: الطائفة القليلة من الناس، والقطعة من الشيء، وثوب شراذم، أي: قطع»[(٢)].

وآثر التعبير بتلك الفريدة دون ما يقاربها - مما مر ذكره لدى اللغويين والمفسرين - لفوائد عديدة منها:

- أن هذه الفريدة تحمل في طياتها تلك المعاني السابقة كلها، والسياق يقبلها جميعها، فبنو إسرائيل كانت جماعة حقيرة قليلة العدد في نظر فرعون، وهم عنده أيضًا طائفة قليلة من الناس -وإن كانوا كثرًا- بالنسبة لعدد المصريين آنذاك، وهم أيضًا كانوا جماعة غريبة[(٣)] منقطعة عن غيرهم معزولة في أماكنهم لا يختلطون بغيرهم ولا يندمجون معهم وهي الصفة الرئيسة في يهود مذ كانوا.

فانظر إلى تلك الفريدة وثراء دلالتها فقد أشارت إلى كل هذه المعاني بدقة، وعلى قدم المساواة بالنسبة لكل معنى مع الآخر، ولذا قد وردت في موطن لا يمكن لغيرها

(١) عمدة الحفاظ ٢/ ٢٩٨، ومفردات الراغب ٢٦٤ .

(٢) فتح البيان ٧/ ١٩ .

(٣) دراسات جديدة في إعجاز القرآن د/ عبد العظيم المطعني ٥٥

أن ينوء بها ناءت به، علاوة على ما فيها من إيجاز واضح للعيان وهو سر من أسرار الفرائد بوجه عام كما أومأنا مرارًا، والله أعلم.

- تنم الفريدة عن العنجهية الشديدة لفرعون في نظرته لبني إسرائيل بالرغم مما أجراه الله على يد موسى من معجزات بينات كانت كفيلة أن تردعه لو ارتدع وانزجر، ولكنه الغرور الذي أمسك بتلابيبه واستولى على تفكيره، واعتقد أنه وقومه من المصريين التابعين له من جنس أعظم وأفضل فأبعده ذلك عن التأمل في حقيقة نفسه الضعيفة، وأودت به العنجهية إلى قاع اليم غير مأسوف عليه.

كل ذلك أومأت إليه تلك الفريدة، ولن تجد غيرها يشير إلى ذلك ألبتة.

* * *

الفريدة الثامنة عشرة: ﴿الطَّوْدِ﴾، وجاءت في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء:٦٣].

بعدما وصف فرعون بني إسرائيل بما ذُكر في الفريدة السابقة سار بجنده وراءهم واقترب من اللحاق بهم، وهنا أمر المولى ﷻ موسى أن يضرب البحر بعصاه، فضربه فانفلق البحر فرقًا عديدة كل فرقة كانت كالطود أي: الجبل العظيم، واجتاز موسى وبنو إسرائيل البحر بأمان.

هذا هو السياق الذي جاءت تلك الفريدة في طياته.

وعن معنى الطود يقول السمين الحلبي: «الطود الجبل ويجمع على أطواد. وبه يشبه الرجل الشجاع والرجل العظيم الخلق والمتوغل في العلم، فيقال فلان طود في

كذا، نحو قولهم: هو جبل علم، وفي العلم، ووصفه بالعظم لكونه فيما بين الأطواد عظيمًا، لا لكونه عظيمًا فيما بين سائر الجبال، كذا قال الراغب»[1].

ومن المفسرين يقول الألوسي: «﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾، أي: كالجبل المنيف الثابت في مقره، وظاهر الآية أن الطود مطلق الجبل، وقال في الصحاح: الطود: الجبل العظيم»[2].

وكلها معان متقاربة؛ لأن الجبل المنيف الثابت لا يكون إلا عظيمًا والعكس، وآثر التعبير بتلك الفريدة دون الجبل وهو مذكور في القرآن في أكثر من موضع لدواع عديدة منها:

- أن تلك الفريدة تعكس بنغم صوتها وجرس حروفها عظمَ وضخامة هذا الجبل لكل من يتأمل ويقارن بين لفظي الجبل والطود، وهذا أيضًا ينعكس على المشبه ﴿كُلُّ فِرْقٍ﴾.

- أن الفريدة تدل بمعناها اللغوي - كما يقول الراغب - على عظم هذا الجبل وضخامته، ولذا أكد الفريدة بـ ﴿الْعَظِيمِ﴾؛ لأن الموقف عجيب وغريب يستدعي التوكيد لتقرير المعنى في النفس وتثبيته في الذهن، ومن هنا فلفظة الجبل لا تصلح في هذا المقام؛ لأن التعبير بالجبل على إطلاقه يحتمل أنه ضخم وعظيم جدًّا، ويحتمل عدم

(١) عمدة الحفاظ ٢/ ٤٨٥، ومفردات الراغب ٣١٨، ومختار الصحاح ١٦٨، والمعجم الوسيط ٢/ ٥٩٠.

(٢) تفسير الألوسي ١٣/ ٢٠٩، وفتح البيان ٨/ ٤٥١، وتفسير الكشاف ٣/ ١١٥، وتفسير ابن كثير ٣/ ٣٣٦.

ذلك فجاءت الفريدة نصا على المطلوب من أول الأمر دون تأول أو احتمال ومن ثم كانت أوفق من غيرها في أداء المعنى كما ترى.

وما قلناه عن المشبه به ﴿الطَّوْدِ﴾ وهي اللفظة الفريدة في تلك الآية ينعكس على المشبه وهو ﴿كُلُّ فِرْقٍ﴾ المقصود من العبارة في المقام الأول، فوجه الشبه الرسوخ والشموخ والضخامة والعظم، والغرض من التشبيه بيان حال المشبه وإبراز صفتة واضحة جلية للعيان حتى تستقر في النفس، وتتمكن في ذهن السامع والمخاطب، والله أعلم.

- أن تلك الفريدة تشير إلى أن ﴿كُلُّ فِرْقٍ﴾ المشبه بالفريدة ﴿الطَّوْدِ﴾ كان عجيبًا في نشأته وتكوينه واضمحلاله؛ فقد تكوَّن في طرفة عين حين ضرب موسى البحر بعصاه فنشأ غريبًا لا يشبه غيرَه من جبال الدنيا التـي هي أوتاد الأرض مذ كانت، وكمـا نشأ بصورة سريعة عجيبة اضمحل وتلاشى بصورة سريعة عجيبة، وعاد كأن لم يكن بعد نشوئه بوقت قصير، وهكذا أومأت تلك الفريدة إلى هذه الحالة العجيبة الغريبة في تاريخ الكرة الأرضية التي لم ولن تتكرر بعدُ، والله أعلم.

وللفخر الرازي في الحديث عن هذا الطود لمحات دقيقة نوردها هنا؛ لأنها تزيد هذا الأمر عجبًا وغرابة يقول: «الطود: الجبل المتطاول أي المرتفع في السماء، وهو معجز من وجوه: أحدها: أن تفرق ذلك الماء معجز، ثانيها: أن اجتماع ذلك الماء فوق كل طرف منه حتى صار كالجبل من المعجزات أيضًا... رابعها: أن جعل الله في تلك الجدران المائية كوى ينظر منها بعضهم إلى بعض فهو معجز رابع، خامسها: أن أبقى الله تلك المسالك حتى قرُب منها آل فرعون وطمعوا أن يتخلصوا من البحر كما

تخلص قـوم موسى عليه السلام فهو معجز خامس»[1].

- تومئ الفريدة إلى تفرد تلك المعجزة في تاريخ الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين؛ فقد اختص الله عز وجل بها موسى دون الأنبياء جميعًا عليهم أفضل الصلوات والتسليم، كما تعكس تفردها في تاريخ الإنسانية الطويلة، وتفرد موضعها في القرآن، والله أعلم.

* * *

الفريدة التاسعة عشرة: ﴿رَهْوًا﴾، ووردت في قولـه تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان:٢٤].

بعدما اجتاز موسى وبنو إسرائيـل البحر بعد أن صار كل فرق كالطود العظيم وصل فرعون إلى مشارف هذا المكان، وقد شاء الله تعالى أن يُهلك فرعون وجنده في اليم جزاء وفاقًا على كفرهم وعتوهم، فأمر الله عز وجل موسى أن يترك البحر على حالته تلك، ولا يأمره أن يعود كما كان لكـي تنفذ فيهم مشيئته تعالى، وقد كان.

وقد ذكر السمين الحلبي دلالة تلك الفريدة فقال: «قوله تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾، قيل: ساكنًا، وقيل: سعة من الطريق، وصححه بعضهم، قال: ومنه الرهاء للمفازة المستوية، وكل حومة مستوية يجتمع فيها الماء رهو، ومنه قيل: لا شفعة في رهو، ونظر أعرابي إلى بعير فاتح فاه، فقال: رهو بين سنامين، ويقال: جاءت الخيل رهوًا أي: ساكنة، وقيل: متتابعة، وقيل: رهوًا من صفة موسى أي: على هينتك، وقيل: رهوًا طريقًا يابسًا بدليل قوله تعالى: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه:٧٧]،

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٣/ ١٢٩ .

وقيل: رهوًا أي دمثا سهلا ليس برمل ولا حزن»[(١)].

وقد جاء كلام المفسرين عن تلك الفريدة أكثر دقة يقول الشيخ صديق خان: «﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًا﴾ أي: ساكنًا: يقال: افعل ذلك رهوًا أي: ساكنًا على هيئتك، وعيش راه أي: ساكن. وقال الهروي وغيره: وهو المعروف في اللغة، والمعنى اترك البحر ساكنًا على صفته بعد أن ضربته بعصاك، ولا تأمره أن يرجع كما كان ليدخله آل فرعون بعدك وبعد بني إسرائيل فينطبق عليهم فيغرقون. وقال أبو عبيدة: رها بين رجليه يرهو رهوًا أي: فتح، قال: ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًا﴾، والمعنى: اتركه منفرجًا كما كان بعد دخولكم فيه، وبه قال مجاهد وغيره، قال ابن عرفة: وهما يرجعان إلى معنى واحد، وإن اختلف لفظاهما؛ لأن البحر إذا سكن جريه انفرج»[(٢)].

كما ترى فإن الرهو له معان عديدة، ولكنها كلها متقاربة يرجع بعضها إلى بعض كما ذكر العلماء.

و قد أوثر التعبير بتلك الفريدة لما فيها من دلالات عديدة لا توجد في غيرها مما يقاربها منها:

- أن حروف الفريدة فيها هدوء ووداعة وسكون تعكس سكون البحر وهدوءه: انظر إلى الراء المهموسة الخافتة، ثم الهاء التي تحمل من الهمس والرقة ما ليس في غيرها، ثم الواو المعتلة وما فيها من وداعة فالفريدة بحروفها لمن ينعم نظره قد دلت على المراد دلالة واضحة.

---

(١) عمدة الحفاظ ٢/ ١٣٥، ومفردات الراغب ٢١٠، ومختار الصحاح ١٠٩ .

(٢) فتح البيان ٨/ ٤٥١، وتفسير الألوسي ١٦/ ٤٠٢، والتحرير والتنوير ٢٥/ ٣٠٠ .

- أنها أوجز وأخصر؛ لأنها تضم في جعبتها المعنيين اللذين ذكرهما العلماء فيها، فالرهو يحتمل أن يكون بمعنى ساكن، وبمعنى منفرج كما سبق، وكلاهما يقبله السياق، ولا يتعارض مع المعنى العام للنظم الكريم، فالفريدة بذلك أغنى دلالة، وأكثر ثراء من غيرها، علاوة على أن رهوًا جاءت مصدرًا، والتعبير بالمصدر دون اسم الفاعل راهيًا للمبالغة في الوصف، وهذه المبالغة أضفت على الفريدة قوة وخلابة فكانت الفريدة مادة وصيغة أفصح وأوجز وأكثر غنى وثراء من غيرها، وجاءت في محلها الملائم لها، والله أعلم.

- تومئ الفريدة إلى تفرد تلك الحالة في تاريخ الأنبياء والإنسانية جمعاء؛ لأنها كانت على وجه الإعجاز لموسى عليه السلام دون غيره من البشر كافة، كما تشير إلى تفرد موضعها في القرآن الكريم فلم يرد الحديث عن هذا المعنى بنصه وفصه إلا في هذا المقام.

- تدل الفريدة على أكثر من معجزة فهي تفيد أن الماء قد تحول إلى فِرَقٍ ضخمة كالطود العظيم، وبين كل فرق طريق يسلكه بنو إسرائيل وهذا الطريق الواسع المنفرج لم يكن طريًّا موحلًا يعوق حركة السير بل كان طريقًا يَبَسًا كما قال تعالى: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا﴾، ولم يكن كذلك طريقًا وعرًا تضاريسه ملتوية بل كان طريقًا سهلًا دمثًا ليس فيه حزن، أو وعورة.

وهذان المعنيان -وإن لم تدل عليهما الفريدة بصورة مباشرة- ترمز إليهما الفريدة بوضوح، وبذلك تلتئم المعاني التي توحي بها تلك الفريدة مع مختلف السياقات القرآنية في هذا الغرض أتم التئام.

* * *

الفريـدة العشرون: ﴿سَوۡطَ﴾، وجاءت فـي قوله تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر:١٣].

وقد وردت هذه الفريدة بعد الحديث عن عاد قوم هود، وثمود قوم صالح، وفرعون وقومه، وما حدث لهم من عقاب في الدنيا من جراء عتوهم واستكبارهم، وهي تشير إلى عذاب هؤلاء جميعًا بدليل قوله: ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ﴾، فالضميـر يعود إلى تلك الطوائف السابقة المذكورة في أول السورة.

وقد أوردنا تلك الفريدة هنا؛ لأنها تتلاءم مع هذا الموطن حيث ذكرت بعـد الحديث عن فرعون فـي قوله تعالى: ﴿وَفِرۡعَوۡنَ ذِى ٱلۡأَوۡتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِى ٱلۡبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر:١٠- ١٣].

ويقول السميـن الحلبي في دلالة تلك الفريدة: «قوله تعالى: ﴿سَوۡطَ عَذَابٍ﴾، السوط – في الأصل – مصدر ساطه يسوطه أي: خلطه، فسمي به هذه الآلة المعروفة التي يعاقب بها، وهو ما يضفر من الجلود لأنه يخلط اللحم بالدم. فقوله: ﴿سَوۡطَ عَذَابٍ﴾ على التشبيه بما يعرفون ألمه وإيجاعه، وإلا فشتان ما بين السوطين، وما أبلغ هذه الاستعارة عند أهل الذوق، وقيل: سمي سوطًا لاختلاط طاقاته بعضها ببعض، وقيل: إشارة إلى أنه تعالى خلط لهم أنواع العذاب بعضها ببعض كقوله: ﴿هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ﴾، وقال الفراء: السوط: اسم للعذاب وإن لم يكن ثم ضرب بسوط، والأول هو المعول عليه»[(١)].

ومن المفسرين يقول الشيخ صـديق خان: «ومعنـى ﴿سَوۡطَ عَذَابٍ﴾ نصيب

---

(١) عمدة الحفاظ ٢/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩، ومفردات الراغب ٢٥٤، ومختار الصحاح ١٣٥ .

عذاب، أو نوع من العذاب فأهلكت عاد بالريح، وثمود بالصيحة، وفرعون بالغرق، فكلا أخذنا بذنبه، وذكر السوط إشارة إلى أن ما أحله بهم في الدنيا من العذاب العظيم هو بالنسبة إلى ما أعده في الآخرة كالسوط إذا قيس إلـى سائر ما يعذب به، وقال الفراء: هي كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب، وأصل ذلك أن السوط هو عذابهم الذي يعذبون به فجرى لكل عذاب إذ كان فيه عندهم غاية العذاب، وقيل: معناه عذاب يخالطه اللحم والدم من قولهم ساطه يسوطه سوطًا أي خلطه، فالسوط خلط الشيء بعضه ببعض والأولى أنه مجاز واستعارة من إيقاع العذاب بهم على أبلغ الوجوه وأكملها؛ إذ الصب يشعر بالدوام والسوط بزيادة الإيلام أي: عذبوا عذابًا مؤلمًا دائمًا»[(١)].

يتضح مما سبق كثرة المعاني التي ذكرها اللغويون والمفسرون لهذه الفريدة، وإيثار التعبير بها دون غيرها مما يقاربها له أسرار شتى منها:

- الإشارة إلى أن العذاب الذي نزل بتلك الطوائف كان شديدًا موجعًا مؤلمًا نزل بهم سريعًا كسرعة السوط في إلحاق الإصابة والأذى «فأما عاد فرأوا عارض الريح فحسبوه عارضًا ممطرًا فما لبثوا أن أطارتهم الريح كل مطير، وأما ثمود فقد أخذتهم الصيحة، وأما فرعون فحسبوا البحر منحسرًا فما راعهم إلا وقد أحاط بهم»[(٢)]، أو الإشارة إلى أن العذاب الذي حاق بهؤلاء انصب عليهم بكثرة وتتابع كما

(١) فتح البيان ١٠/ ٣٤٠، وتفسير الألوسي ١٨/ ٤٩٢ .

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/ ٣٢٢، وانظر ما ذكرته بنت الشاطئ عن رأيها في معنى تلك الفريدة في كتابها التفسير البياني للقرآن ٢/ ١٤٨ .

يتتابع السوط على المضروب به، أو الإشارة إلى أن كل طائفة نزل بها نوع من العذاب على قدر طغيانها وعتوها، وقد دلت الفريدة على تلك المعاني كلها أتم دلالة وأوفاها، ولن يقدر غيرها أن يسد مسدها، عـلاوة على ما فيها من استعارة جميـلة يدركها أهـل الذوق صورت وقـوع العذاب بهم على أكمل وجه وأبلغه كما يقول الشيخ صديق خان.

- تومئ تلك الفريدة إلى أن عذاب هؤلاء الأمم كان عذابًا فريدًا في بابه لا نظير ولا شبيه لـه؛ فقد تفردت كـل أمة بنصيبها من العذاب الذي لم يشركها فيه غيرها ألبتة.

- تشير الفـريدة إلى تفرد موضعها في القرآن الكريم فهي الموطن الوحيد الذي ذكر فيه عذاب هؤلاء الأقوام جملة واحدة في آية واحدة بتلك اللفظة الفريدة، والله أعلم.

* * *

الفريدة الحادية والعشرون: ﴿ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ ووردت في قوله تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص:٤٢].

وسياق تلك الفريدة يحكي عاقبة فرعون وقومه يوم القيامة بعد ما آل إليه أمرهم في الدنيا من الموت غرقًا.

وعن تلك الفريدة يقول السمين الحلبي: «قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ قيل: المبعدين، يقال: قبحه الله أي أبعده والقبح الإبعاد. قالـه الهروي،

وقبح الله وجه فلان أي: أبعده من الخير، وفي الحديث: «لا تقبحوا الوجه»، أي: لا تنسبوه إلى القبح؛ لأن الله صوره وقد أحسن كل شيء خلقه، والظاهر أنه بمعنى لا تَعيبوه، وفي حديث أم زرع: «وعنده أقول فلا أقبح»، أي: لا يعاب قولي ولا يرد لِعَزَّتِي عنده، وقيل: لا يقال لي: قبحك الله... وقيل القبح: التنحية والإزالة، يقال: قبحه الله عن الخير أي: نحاه وأزاله، وهذا عندي يرجع إلى معنى الإبعاد، وقيل: القبيح ما ينبو عنه البصر من الأعيان، وما تنبو عنه النفس من الأعمال والأحوال. وقد قبح قباحة فهو قبيح وقوله: ﴿مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ أي من الموسومين بحالة منكرة، وذلك إشارة إلى ما وصف الله تعالى به الكفار من الرجاسة والنجاسة إلى غير ذلك من الصفات الذميمة، وما وصفهم به يوم القيامة من سواد الوجوه وزرقة العيون، وسحبهم بالأغلال والسلاسل»[1].

ومن المفسرين يقول الزمخشري: «﴿مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ أي من المطرودين المبعدين»[2].

وقد فصل القرطبي القول في هذه الفريدة أكثر وأكثر، فقال: «﴿مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ أي: من المهلكين الممقوتين، قاله ابن كيسان وأبو عبيدة، وقال ابن عباس: المشوهين الخلقة بسواد الوجوه وزرقة العيون، وقيل: من المبعدين يقال قبحه الله أي نحاه من كل خير»[3].

---

(١) عمدة الحفاظ ٣/ ٣١١ بتصرف يسير، ومفردات الراغب ٤٠٤ .

(٢) الكشاف ٣/ ١٨١ .

(٣) تفسير القرطبي١٣/ ٢٩٠، وانظر تفسير الألوسي ١٣/ ٧٢٨ .

وفي اختيار تلك الفـريدة – دون غيرها مما سبق – أسباب عديدة منها:

– هذه الفريدة تحمل في طياتها جميع المعاني السابقة التي ذكرها اللغويون والمفسرون؛ لأن المراد أن هؤلاء المهلكين سيكونون في الآخرة من المقوتيـن المبعدين المطرودين من رحمة الله، ومن المشوهين في الخلقة والصورة بما هم فيه من عذاب أليم مصداقًا لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة:٣٥]، وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:٢٩]، وقوله تعالـى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر:٤٨]، وغير ذلك كثير من الآيات التي تتحدث عن الصور الذميمة القبيحة الشنيعة التي سيكون عليها الكفار يوم القيامة.

فالفريدة تحمل تلك الدلالات كلهـا، ولا يأباها سياق الكلام والمعنى العام، ولو وضعت لفظة غيرها لما أدت هذه المعاني جميعها فلو قال من المطرودين لا يلزم منه أن يكونوا مقبوحين مشوهي الخلقة فكل مطرود مبعد قد لا يكون مقبوحًا بالضرورة، أما المقبوح فهو مطرود مبعد لسوء فعاله وخصاله، وهكذا أدت الفريدة المعنى المراد بدقة فائقة، ولا يمكن لغيرها أن يحل محلها ألبتة.

– تصـور الفريدة بحروفها، وإيقاع أصواتها سوء عاقبتهم، وخيبة سعيهم، تأمل مثلًا حرف القاف بقوته وقلقلته، وما يحكيه من بشاعة منظرهم؛ وبشاعة مخبرهم؛ فهؤلاء المتعالون المستكبرون المهتمون بالزينة والحلية وحسن المنظـر على حساب

الجوهر قد خيب الله مسعاهم، وبدلهم في الآخرة قبحًا وسوء منظر على عكس ما كانوا عليه في الدنيا من الوجاهة والوسامة.

فالفريدة -كما يقول الشيخ سيد قطب- «ترسم بذاتها صورة القبح والفضيحة والتشنيع، وجو التقزز والاشمئزاز ذلك في مقابل الاستعلاء والاستكبار في الأرض، وفتنة الناس بالمظهر والجاه والتطاول على الله، وعلى عباد الله»[(١)].

- في الفريدة إيماء إلى أن فرعون وقومه قد اختصوا من بين الأمم الغابرة المعذَّبة بذكر عقابهم في الآخرة فهم فيها من المقبوحين، ولم يذكر القرآن صراحة شيئًا من عقاب الأمم المكذبة إلا عقاب الدنيا فحسب، وهذا أمر تفرد به قوم فرعون.

ولعل ذلك يعود إلى أنهم ارتكسوا في وهدة الكفر ارتكاسة لا نظير لها ولا مثيل لدى الأمم السابقة واللاحقة؛ فقد ادعى زعيمهم وموردهم إلى النار الألوهية وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، وأمر هامان أن يبني صرحًا شامخًا شاهقًا؛ ليطلع إلى إله موسى عبثًا وسخرية كل هذا لم يحدث في أي أمة أخرى؛ فقد كفروا بالله، وجحدوا وجوده، ولكنْ لم يدع أحد منهم الألوهية مطلقًا إلا فرعون فكان هذا أمرًا غريبًا عجيبًا، ومن ثم استحقوا أن ينظر إليهم بعين المقت والغضب في الدنيا والآخرة، وأن يذكر بالتفصيل كيفية عذابهم في الدارين كل ذلك أوحت به تلك الفريدة، والله أعلم.

* * *

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٩٥ .

الفريدة الثانية والعشرون: ﴿انبَجَسَتْ﴾، وجاءت في قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

هذه الفريدة من فرائد المرحلة الثانية من حياة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل في صحراء سيناء، فبعد أن تجاوز موسى وقومه البحر وهلك فرعون وجنوده بمعجزة خارقة بدأت معاناة موسى مع بني إسرائيل في سيناء، وهم في طريقهم للأرض المقدسة، وحدثت منهم ولهم أمور غاية في العجب والغرابة حكتها فرائد كثيرة.

وهذه الفريدة تتحدث عن إكرام الله عز وجل لهذا العدد الضخم، وكيف يسر لهم سبيل الحصول على الماء في تلك الصحراء القاحلة الجرداء بمعجزة أجراها على يد نبيه موسى عليه السلام.

وقد تحدث السمين الحلبي عن دلالة تلك الفريدة، فقال: «الانبجاس: قريب من الانفجار قال تعالى: ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾، والحرث والانبجاس والانفجار والانفتاق والتفتق والانشقاق والتشقق متقاربات، إلا أن الانبجاس أكثر ما يقال في الخارج من ضيق، والانفجار أعم، ولذلك جاء اللفظان في الآيتين؛ لأن المكان ضيق»[1].

هذا ما ذكره السمين الحلبي، ويلاحظ أنه كان دقيقا في عبارته فجعل الانبجاس

---

(١) عمدة الحفاظ ١/ ١٨١، ومفردات الراغب ٣٤ .

والانفجار، وكـل ما يؤدي المعنى ألفاظا متقاربة، ولم يجعلها مترادفة، وهو ما نوافقه عليه.

أما المفسرون فقد جعلوا الانبجاس والانفجار بمعنى واحد يقول صاحب الكشاف: «﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾: فانفجرت، والمعنى واحد وهو الانفتاح بسعة وكثرة»[1]، ومنهم من وافق على هذا الرأي، ولكنه أورد آراء أخرى يقول الألوسي: «﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾ أي: انفجرت كما قال ابن عباس، وزعم الطبرسي أن الانبجاس خـروج الماء بقلة، والانفجار خروجه بكثرة، والتعبيـر بهذا تارة، وبالأخـرى أخرى باعتبار أول الخروج، وما انتهى إليه»[2].

وما أذهب إليه هنا هو أن الانبجاس بخلاف الانفجار؛ لأن اللفظتين لو كانتا شيئًا واحدًا دون أدنى فرق لما أتى باللفظة الأخرى، ووجود أي لفظة في اللغة مستقلة بذاتها -وليست من توارد لغات العرب كما يذهب من يرى أن ذلك من أسباب الترادف- يدل على أن لها معنى مستقلًا تنهض به عما يقاربها، ولو كان الاختلاف بينهما في صفة واحدة، أو عدة صفات.

وهنا نص كثير من العلماء لغويين ومفسرين على أن هاتين اللفظتيـن معناهما متقارب وليستا مترادفتين، وأن الانبجـاس يستعمل فيما يخرج من شيء ضيق، والانفجار يستعمل فيما يخرج من شيء ضيق وشيء واسع، ومن ثم استعمل الانبجاس، والانفجار في الضيق هنا وهو الحجر، واقتصر في استعمال الانفجار على

(١) تفسير الكشاف ٢/ ١٢٤ .

(٢) تفسير الألوسي ٦/ ٣١٩، وتفسير المنار ٩/ ٣٠٩ .

الواسع في قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر:١٢]، وقوله: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف:٣٣]، فإن الأرض والنهر أوسع بلا شك من الحجر فبان أن لفظة الانفجار أعم والانبجاس أخص ولكل لفظة إشعاع، وملمح تتميز به.

- كما يلاحظ أن كل لفظة قد وردت في سياقها المناسب لها حيث ذُكر الانبجاس وهو ابتداء الانفجار في سورة الأعراف المكية؛ لأن قوم موسى هم الذين طلبوا منه السقيا ابتداء فجاء الجواب بالانبجاس الذي هو ابتداء الانفجار -كما هنا- وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ ...﴾ وفي سورة البقرة المدنية كان الطلب متوجهًا من موسى لربه سبحانه مباشرة وهو استجابة لطلبهم فجاء الجواب بالانفجار، وهو أشد من الانبجاس، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ...﴾ [البقرة: ٦٠] فكأن خروج الماء كان على مرحلتين أو دفعتين، ودلت كل لفظة على مرحلة من المراحل، وكل لفظة تحمل دلالة جديدة، ولا يوجد ترادف بينهما.

وهكذا فقد تناسبت كل لفظة مع سياقها أشد تناسب، ولا يصح وضع إحداهما موضع الأخرى كما لا يصح وضع عضو من جسد الإنسان موضع عضو آخر، وإلا فسدت الصورة، وتشوهت المعالم. وفي هذا وغيره يكمن إعجاز القرآن الكريم.

وليس الأمر في التعبير بهذه الفريدة قاصرا على ما ذكرناه بل لتلك الفريدة إيحاءات تتمثل في أنها تشير إلى أن هذا الانبجاس كان شيئًا عجيبًا خارقًا للعادة أجراه

الله ﷻ على يد موسى ﵇ من بين الأنبياء، واختصه به على وجه الإعجاز، كما خص به بني إسرائيل من بين الأمم وهم في تيه صحراء سيناء القاحلة الجرداء الخالية من الأنهار والآبار الصالحة لشرب هذا العدد الجم من بني إسرائيل فكان هذا الأمر لهم معجزة كبرى، ومنة عظمى، ولكنهم لم يشكروا الله، ويقدروه حق قدره كما هو دأبهم وديدنهم أمام تلك المعجزات الضخمة.

- وأخيرًا وليس آخرًا فإن حروف هذه الفريدة تصور هذا المعنى أصدق تصوير وأوفاه، تأمل في دلالة النون، ثم الباء المتبوعة بالجيم ثم ألف المد، فالسين تشعر أن الماء وكأنه كان محبوسًا في الحجر الضيق، وبمجرد أن ضرب موسى الحجر بعصاه خرج بصعوبة قليلًا قليلًا من بين الشقوق، كما عبرت عنه تلك الفريدة بحروفها، ثم ما لبث أن تفجرت تلك الشقوق بالماء حتى طال وامتد، وأصبح الحصول عليه ميسورًا بعد أن جعل الله ﷻ في الحجر اثنتي عشرة عينا لكل سبط منهم عين معلومة.

وهكذا صورت الفريدة بإيقاع حروفها، ونغم أصواتها المعنى أوفق تصوير، والله أعلم.

* * *

الفرائد من الثالثة والعشرين إلى السابعة والعشرين وهي: ﴿بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾، وقد أتت هذه الفرائد متوالية في آية واحدة في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو

﴿بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة:٦١].

وقد ذكر السمين الحلبي دلالة تلك الفرائد فقال: «البقل ما لا ينبت أصله، وفرعه في الشتاء، وقيل: البقل ما لا ساق لـه خلاف الشجر»[١].

«﴿وَقِثَّآئِهَا﴾ القثاء الخيار، وفي عرف بعضهم يختص بشيء غير الخيار ولكنه من نوعه»[٢].

«﴿وَفُومِهَا﴾ اختلف الناس فيه اختلافًا كثيـرًا: فقيل: هو الثوم المعهود بدلالة ذكره مع ما يناسبه من العدس والبصل، والفاء والثاء يتعاقبان في كثير نحو جدث وجدف، وقيل: هو الحنطة ومنه فوموا لنا أي اختبزوا لنا الحنطة»[٣].

و«العدس: الحب المعروف، وبه شبهت بثرة أو قرحة تطلع على ظاهر الجسد في الهيئة»[٤].

و«البصل: معـروف، وهو اسم جنس واحـده بصلة كنبق ونبقة»[٥].

وقد عرض المفسرون لهـذه الفـرائد فلم يخرجوا عما ذكره اللغويون اللهم إلا تفصيلات يسيرة.

---

(١) عمدة الحفاظ ١/ ٢٤٨ .

(٢) السابق ٣/ ٣٢٣ .

(٣) عمدة الحفاظ ٣/ ٣٠٦ - ٣٠٧، وانظر الإعجاز البيانـي للقرآن ومسائـل ابن الأزرق ٣٤٧- ٣٤٨ .

(٤) عمدة الحفاظ ٣/ ٤٧، ومفردات الراغب ٣٣٦ .

(٥) عمدة الحفاظ ١/ ٢٢٥ .

يقول الشيخ صديق خان: «البقل: كل نبات ليس له ساق، والشجر: ما له ساق، وقال في الكشاف البقل: ما أنبتته الأرض من الخضر والمراد به أطائب البقول التي يأكلها الناس كالنعناع والكرفس والكراث وأشباهها. انتهى، وجمعه بقول، والقثاء معروف الواحدة قثاءة... والفوم قيل هو الثوم... وقيل: الفوم: الحنطة، وإليه ذهب أكثر المفسرين كما قال القرطبي... والعدس والبصل معروفان»[1].

ولا يعنينا هنا أن نحدد المراد من هذه الفرائد على وجه الدقة فيكفي أنها أشياء لمسميات شتى يجمعها أنها من نباتات الأرض التي يأكلها الناس في كل عصر ومصر، ومن ثم لا يصح أن نسأل السؤال الذي يتبادر إلى الأذهان لماذا عبر بهذه الفرائد ولم يعبر بغيرها مما يقاربها؟؛ لأنه لا يوجد لها ما يقاربها هنا مثلما مضى من الفرائد السابقة بل هي أعلام على نباتات، والأعلام لا يسأل عن سر ورودها دون غيرها؛ لأن القرآن هنا أتى بالأشهر من أسمائها.

فبقي أن السبب الرئيس في إيراد هذه الفرائد أنها توحي بأشياء عجيبة وغريبة منها:

- أن بني إسرائيل -كما علمنا في الفريدة السابقة- قد أنعم الله عليهم بالماء شريان الحياة في هذه الفيافي المهلكة المجدبة، وكما فجر لهم ينابيع الماء من الحجر رزقهم بأفضل المأكولات المن والسلوى يحصلون عليها دون كدٍّ ولا تعب فكانوا يصبحون فيجدونها حولهم ولكن هيهات هيهات فلم يقبلوا تلك الخيرات المتتابعة، وبطروها

(١) فتح البيان ١/ ١٤٩ ـ ١٥٠، وتفسير الطبري ١/ ٤٦٠، والكشاف ١/ ٢٨٤، وتفسير الألوسي ١٢/ ٦٥١.

وطلبوا من موسى أن يدعو الله ليخرج لهم من نبات الأرض الأشياء التي ألفتها أمعاؤهم في مصر وهي الفرائد الخمسة المذكورة، فنزعوا إلى عكرهم عكر السوء كما يقول العلماء، ولما كان طلبهم هذا عجيبًا غريبًا فريدًا في عرف العقلاء في كل أمة ودين دل ذلك على حمقهم وسوء اختيارهم.

وقد وردت تلك الفرائد لتوحي بغرابة المطلوب، وتنعى عليهم استبدالهم الخير وهو المن والسلوى بالذي هو أدنى منه وأقل طعمًا وفائدة وهو هذه الأشياء.

فهل هناك عقلاء يفعلون هذا؟

اللهم إلا أنهم من طول إلفهم لتلك المأكولات في دار الذل والاستعباد - تحت إمرة فرعون - ألفوا اقتيات تلك الأشياء، وترسخ حبها في نفوسهم، ولم يعودوا يطيقون فراقها في أكلهم.

فانظر تلك النفسيات الهابطة، والطباع المزرية وتأملها مليا تجد فيها العجب العجاب مما أوحت به تلك الفرائد، والله أعلم.

- «ويحتمل ألا يكون هذا منهم تشوقًا إلى ما كانوا فيه وبطرًا لما صاروا إليه من المعيشة الرافهة، بل هو من باب تعنتهم وشعبة من شعب تعجرفهم كما هو دأبهم وهجيرهم في غالب ما قُص علينا من أخبارهم»[1] بمعنى أنهم تمردوا على تلك الأشياء التي جاءتهم من الله مباشرة دون أدنى تدخل منهم، فجحدوها وطلبوا سواها مما يحصلون عليه بكد وتعب من الأرض تعنتًا وتعجرمًا على الله ﷻ.

(١) فتح البيان ١/ ١٤٩ .

وإلى ذلك أشار الشيخ الشعراوي بقوله: «ما يخلقه الله بالأمر المباشر منه بكلمة (كن) يكون خيرًا مما جاء بالأسباب؛ لأن الخلق المباشر لا صفة لك فيه عطاء خالص من الله، أما الخلق بالأسباب فقد يكون لك دور فيه كأن تحرث الأرض أو تبذر البذور، ما جاء خالصًا من الله بدون أسبابك يقترب من عطاء الآخرة التي يعطي الله فيها بلا أسباب ولكن بكلمة كن»[1].

فانظر إلى هؤلاء الذين رفضوا هذا الرزق الخالص المباشر من الله ما جبلتهم وما طبيعتهم؟

فهل يصح أن نأمنهم، وأن نسالمهم، وقد تمرد أسلافهم على عطاء ربهم لهم؟!

* * *

الفرائد من الثامنة والعشرين إلى الحادية والثلاثين، وهي (بلحيتي - يجره - تشمت - سكت)، وقد وردت هذه الفرائد في ثلاث آيات في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه:٩٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف:١٥٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف:١٥٤].

---

(١) تفسير الشعراوي ١/ ٣٧٣.

ونلقي الضوء هنا على معاني تلك الفرائد قبل أن ننتقل إلى بيان أسرارها، يقول السمين الحلبي في دلالة ﴿يَجُرُّهُۥٓ﴾: «الجر: الجذب بعنف جررت الشيء أجرّه جرًّا إذا جذبته جذبًا شديدًا، والجر أيضًا السحب، ومنه قول امرئ القيس:

وَقَفْتُ بِهَا أَمْشِي تَجُرُّ وَرَاءَنَا * * عَلَى أَثَرَيْنَا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ[1]

وفي معنى الشماتة يقول: «قوله تعالى: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ الشماتة: إظهار الفرح ببلية تصيب من يعاديك وتعاديه قال الشاعر:

أَشْمَتَّ بِيَ الأَعْدَاءَ حِينَ هَجَرْتَنِي * * وَالْمَوْتُ دُونَ شَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ[2]

وفي معنى ﴿سَكَتَ﴾ يقول: «قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ السكوت والسكون متقاربان، قال الأزهري: معناه سكن يقال: سكت يسكت سكوتًا وسكتًا وسكاتًا وسكن بمعنى واحد، وقال ابن عرفة: انقطع عنه الغضب»[3].

وفي مفردات الراغب يقول: «السكوت مختص بترك الكلام... ولما كان السكوت ضربًا من السكون استعير له في قوله: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾»[4].

وقد عرض المفسرون لتلك الفرائد وجاء حديثهم متقاربًا مع اللغويين.

يقول الشيخ صديق خان: «يجره إليه من شدة غضبه لا هوانًا به... والشماتة

(١) عمدة الحفاظ ١/ ٣٦٥.

(٢) عمدة الحفاظ ٢/ ٣٣٢، ومفردات الراغب ٢٧٣، ولسان العرب (سكت).

(٣) عمدة الحفاظ ٢/ ٢٣٧.

(٤) مفردات الراغب ٢٤٢.

أصلها الفرح ببلية من تعاديه ويعاديك»[1].

و«السكوت: السكون والإمساك عن الشيء، يقال: جرى الوادي ثلاثًا ثم سكت، أي: أمسك وسكن عن الجري... وفيه مبالغة وبلاغة»[2].

هذا، وسياق القصة يحكي أن موسى عليه السلام قد ذهب للقاء ربه أربعين يومًا، وفي هذه الأثناء صنع السامـري عجلًا جسدًا له خوار افتتنت به طائفة من بني إسرائيل فعبدته، وأعلم الله عز وجل موسى بتلك الفتنة ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ [طه:٨٥] فما كان من موسى عليه السلام إلا أن عاد إلى قومه غضبان شديد الأسى والأسف لهذه الردة، والارتكاسة الشديدة، وقبل أن يخاطب السامري، ويقتص منه على فعلته توجه لأخيه هارون - الذي تركه خليفة في قومه - يعاتبـه على ما جرى، وكيف سمح بحدوثه، فأخذ بلحيته يجذبه منها.

هذا هو سياق التعبير بالفريدة الأولى والثانية في تلك القصة.

أما عن سر التعبير بهما فلذلك أسباب منها:

- أن هاتين الفريدتيـن تصوران بدقة شدة احتدام الموقف، فصدر موسى عليه السلام كان يغلي بمراجل الغضب على ما فعله قومه - وهو بين أظهرهم - من عبادة عجل صنعوه بأيديهم. فقد اشتد به الغضب لِما رآه من موقفهم المزري الذي لم يتوقعه، واعتقد في بادئ الأمر أن هارون عليه السلام كان يقدر على منعهم قبل أن يسمع حجته في

(١) فتح البيان ٣/ ٤١٣ـ٤١٤ .

(٢) فتح البيان ٣/ ٤١٦، وانظر مفاتيح الغيب ٦/ ٢٨٥، والقرطبي ٧/ ٢٩٢، وتفسير الجمل ٢/ ١٩٤ .

ذلك؛ ففرَّغ عليه السلام شحنة الغضب المشروعة هذه غيرة لدين الله في أخيه هارون المسئول هو أيضًا عن عقيدة بني إسرائيل، فما كان منه إلا أن جذبه من لحيته وجره من رأسه بعنف إمعانًا في غضبه وضيقه، وكان موسى عليه السلام كما يقول البيضاوي: «حديدًا خشنًا متصلبًا في كل شيء فلم يتمالك حين رآهم يعبدون العجل»[3].

وهكذا صورت الفريدتان هذا الموقف أصدق تصوير، وكشفتا عما كان يعتمل في نفسه عليه السلام من حنق وغضب على أخيه وقومه.

- تومئ هاتان الفريدتان إلى موقف هارون عليه السلام العجيب الغريب من وجهة نظر موسى عليه السلام، حيث ظن أنه قصر في غيابه، وكان بإمكانه أن يردعهم عما أقدموا عليه، وفي ذلك يقول الزمخشري: «وأخذ برأس أخيه أي بشعر رأسه ﴿يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِ﴾ بذؤابته؛ وذلك لشدة ما ورد عليه من الأمر الذي استفزه وذهب بفطنته وظنًّا بأخيه أنه فرط في الكف»[4].

- كما تومئ الفريدتان -من طرف خفي- إلى موقف قومه الأعجب إذ كيف تسول لهم نفوسهم عبادة عجل لا يضر ولا ينفع، ومعجزاته سبحانه لا تنفك عنهم بل هم فيها ليل نهار؟!

فالفريدتان تعكسان هذا الموقف العجيب الغريب بدقة متناهية؛ لأن عبادة العجل كانت انتكاسة في إيمان بني إسرائيل المتذبذب إذ بعد مشاهدة كل تلك المعجزات النيرات يستهويهم السامري، ويستخف بعقولهم، ويجعلهم يعبدون عجلًا

---

(٣) البيضاوي ٢/ ٢٧ .

(٤) الكشاف للزمخشري ٢/ ١١٩ .

صنعه أمامهم، فإلى أي مدى وصل انحطاطهم؟!

إنه لموقف عجيب غريب دفع موسى عليه السلام أن يأخذ بخناق أخيه ويجذبه من لحيته كما تصوره آية طه، وأن يجره بعنف من رأسه كما تصوره آية الأعراف، وقد فعل موسى عليه السلام الأمرين كليهما كما تصوره الفريدتان اللتان التأمتا مع سياقهما أشد التئام. والله أعلم.

- وهنا سر آخر يختص بالفريدة ﴿يَجُرُّهُۥٓ﴾؛ فقد عبر بها دون قوله (يجذبه بعنف) لأنها تصور هذا الأمر بحروفها، وتحكيه بإيقاع أصواتها بدقة متناهية، وقد فطن لذلك العلامة ابن جني حيث يقول: «ومن ذلك أيضًا جر الشيء يجره قدموا الجيم لأنها حرف شديد، وأول الجر بمشقة على الجار والمجرور جميعًا، ثم عقبوا ذلك بالراء وهو حرف مكرر، وكرروها مع ذلك في نفسها؛ وذلك لأن الشيء إذا جر على الأرض - في غالب الأمر - اهتز عليها واضطرب صاعدًا عنها ونازلًا إليها، وتكرر ذلك منه على ما فيه من التعتعة والقلق فكانت الراء لما فيها من التكرير؛ ولأنها أيضًا قد كررت في نفسها في (جر) وجررت أوفق لهذا المعنى من جميع الحروف غيرها، هذا هو محجة هذا ومذهبه، فإن أنت رأيت شيئا من هذا النحو لا ينقاد لك فيما رسمناه، ولا يتابعك على ما أوردناه فأحد أمرين: إما أن تكون لم تنعم النظر فيه فيقعد بك فكرك عنه، أو لأن لهذه اللغة أصولًا وأوائل قد تخفى عنا وتقصر أسبابها دوننا كما قال سيبويه، أو لأن الأول وصل إليه علم لم يصل إلى الآخر»[1].

❊ ❊ ❊

(١) الخصائص ٢ / ١٦٤ ـ ١٦٥، وانظر وحي الحرف والحركة في الصورة الأدبية د/ غانم السعيد ٢٣ .

بعدما فعل موسى عليه السلام مع أخيه ما فعل كما حكته الفريدتان السابقتان أخذ هارون يسكن غضب موسى، ويستعطفه أن لا يُشمت بني إسرائيل فيهما، وهنا تأتي الفريدة الثالثة: ﴿تُشْمِتْ﴾ التي تصور مدى ما كان عليه هؤلاء القوم من عداوة وحسد لموسى وأخيه، وكأنه عند أي خلاف عارض بينهما يتندرون ويشمتون ويقعدون لهم بالمرصاد.

فهل هناك شعب في تاريخ شعوب الأرض فعل ذلك مع نبي من أنبيائهم؟

فهذه حالة فريدة في تاريخ الإنسانية إذ كيف تصدر منهم بل كيف تطرأ على بالهم تلك الشماتة بموسى وهارون عليهما السلام، وهما مَن هما بالنسبة لبني إسرائيل فقد حرراهم من بطش فرعون، وأخرجاهم من دار الكفر والمذلة إلى نعيم الحرية والهداية.

- تدل هذه الفرائد الثلاث السابقة على أن موسى عليه السلام كان في حالة من الغضب والانفعال الشديد لم يحكه عنه القرآن في أي موقف آخر، وحدة المزاج هذه كانت غيرة على دين الله، لا لهوى في النفس ولا لجاه أو سلطان دنيوي، أو أمر مادي.

وهكذا يكون أصحاب الرسالات العظمى في الغيرة على دين الله والدفاع عن مقدساته وحرماته.

كما تدل الفرائد الثلاث على تفرد هذا الموقف في تاريخ الأنبياء جميعا كما هو واضح بجلاء.

وهكذا عكست تلك الفرائد المواقف العجيبة والغريبة من مختلف الاتجاهات والنواحي.

وقد تفردت كل فريدة بلمحة ولقطة لا توجد في غيرها وإن كان المساق الذي يجمعها واحدًا، والله أعلم.

* * *

ثم يأتي الحديث عن الفريدة: ﴿سَكَتَ﴾ وفي اختيارها دون سكن أسرار عديدة منها:

- في ﴿سَكَتَ﴾ معنى لا يوجد في سكن وهي اختصاصها -كما قال الراغب فيما مضى- بترك الكلام، أما سكن فقد يكون السكون عن حركة جسمانية ظاهرة، أو خفية، وقد يكون سكونًا عن كلام أيضًا فهي على ذلك أعم؛ وهذا ظاهر من التعبير بها في قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنعام:١٣].

- هذه الفريدة دون غيرها تجسد غضب موسى عليه السلام تجسيدًا واضحًا للعيان، وتبين أن غضبه على قومه قد اعتمل في صدره حتى غدا إنسانًا يرعد ويزبد، ويصول ويجول يدافع عن حوزته وعرينه. وكأنك تحس بأنفاسه وتشعر بحركاته، وهو يغدو ويروح منفعلًا معاقبًا على ما جرى وحدث.

ولن تنهض لفظة أخرى مهما بلغت من قوة وفخامة ما بلغته هذه الفريدة في قوتها وجمالها وصدقها في تصوير هذا الغضب تصويرا رائعًا.

وكذلك لو فتشت في اللغة جميعها فلن تجد لفظة أقدر وأوفق على وصف استعادة موسى عليه السلام لهدوئه بعد هذا الانفعال الشديد إلا تلك الفريدة.

- نالت هذه الفريدة لفصاحتها وروعتها وحسن استعارتها وقدرتها على

تشخيص الغضب تشخيصًا ظاهرًا نالت عناية شديدة من البلاغيين والمفسريـن، يقول الشيخ سيد قطب: «والتعبير القرآني يشخص الغضب فكأنما هو حي، وكأنما هو مسلط على موسى يدفعه ويحركه حتى إذا سكت عنه وتركه لشأنه عاد موسى إلى نفسه فأخذ الألواح التي كان قد ألقاها بسبب دفع الغضب له وسيطرته عليه»(١).

وقد تحدث ابن عاشور في التحرير والتنوير(٢) عن تلك الفريدة وأطال الكلام عن جمال الاستعارة فيها من شتى طرقها وما تحتمله من كونها مكنية وتبعية وتمثيلية فراجعه هناك حتى لا يطول بنا القول.

* * *

الفريدة الثانية والثلاثون: ﴿نَتَقْنَا﴾ وجاءت في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:١٧١].

ويحكي مساق تلك الفـريدة أن الله ﷻ قد أمرهم بالعمل بها في التوراة، وتنفيذ ما فيها من أحكام، ولكنهم كعهدهم راوغوا في تنفيذها، والعمل بها فأراهم الله معجزة هائلة حتى يجبرهم على أخذ التوراة بقوة وجدية.

ويقول السمين الحلبي عن تلك الفريدة: «قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ﴾ نتق

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٧٦، وتفسير الكشـاف ٢/ ١٢٠، وتفسير المنار ٩/ ١٨٤، ومن بلاغة القرآن ٢٢١ .

(٢) التحرير والتنوير ٩/ ١٢٢، وانظر الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني تحقيق د/ عبد القادر حسين ٣٤٩ .

الشيء: جذبه ونزعه حتى يسترخي كنتق عرى الحمل... وعن أبي عبيدة: زعزعناه واستخرجناه من مقره، وكل شيء قلعته ورميت به فقد نتقته، ونتقت الشيء: نقضته، وهو يرجع إلى معنى الرمي وإلى غيره، ونتقناه: رفعناه بدليل قوله: ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾... وقوله: ﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ﴾ كأنه قلع من أصله»[1].

وفي لسان العرب يقول: «النتق: الزعزعة والهز والجذب والنقض، ونتق الشيء نتقًا: جذبه واقتلعه، وفي التنزيل: ﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ﴾، أي: زعزعناه ورفعناه، وجاء في الخبر: أنه اقتلع من مكانه»[2].

ويقول الفخر الرازي: «قال أبو عبيدة: أصل النتق قلع الشيء من موضعه والرمي به، يقال: نتق ما في الجراب إذا رمى به وصبه، وامرأة ناتق ومنتاق إذا كثر ولدها؛ لأنها ترمي بأولادها رميًا.

فمعنى ﴿نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ﴾، أي: قلعناه من أصله وجعلناه فوقهم»[3].

فأصل النتق كما يذكرُ اللغويون والمفسرون هو قلعُ الشيء من موضعه والرمي به، أو زعزعتُه واستخراجُه من مقره ثم رفعه.

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا عبر هنا بنتق، وعبر برفع في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾؟ وهل معنى اللفظين واحد كما يذهب البعض؟

أقول: إن في نتق إشاراتٍ لا توجد في غيرها مما يماثلها أو يقاربها؛ لأن نتقَ الجبل

(١) عمدة الحفاظ ٤/ ١٦٨، ومفردات الراغب ٥٠٣، والمعجم الوسيط ٢/ ٩٣٦ .
(٢) لسان العرب (نتق) .
(٣) مفاتيح الغيب ١٣/ ٣٣٦، وانظر فتح البيان ٩/ ١٦٣ .

معناه أن الله ﷻ قد اقتلعه من جذره، ونزعه من أُسِّه ثم رفعه فوق رؤوسهم؛ لأنهم أبوا قبول أحكام التوراة لغلظها وثقلها عليهم.

فالفريدة تحكي بدَلالتها حالتين:

الأولى: حالةَ النزع والقلع، والثانيةَ حالةَ الرفع.

أما رفع فهي تشير إلى المرحلة الثانية فحسب، ومن ثم فإن الفريدة قد وقعت في موقعها الأمثل الذي لا يمكن لغيرها أن ينوب منابها، أو يحل محلها.

- هذه الفريدة تحكي بإيقاعها وجرس حروفها معنى النزع والقلع ثم الرفع بدقة متناهية، ومن يكررْ هذه الفريدةَ على لسانه بتؤدة وأناة يشعر بذلك من جراء التاء المفتوحة وبعدها القافُ الشديدة المجهورة الساكنة ثم المدُ في (نا) فإن ذلك كله يعكس بدقة ووضوح الاستطالة ثم النزع والرفع.

- التعبير بـ ﴿نَتَقْنَا﴾ في تلك الآية أكثر تلاؤما من التعبير برفعنا لأن المولى ﷻ ذكر لفظ الجبل مع نتقنا، وفي هذا إشارة دقيقة إلى أن الجبل الذي هو عُنوان الصلابة والقوة، وأمارة الرسوخ والثبات كان نتقه أي خلخلته وزعزعتُه من أصله ثم رفعُه سهلًا يسيرًا على المولى ﷻ ومن ثم جاء التعبيرُ بالنتق في هذا المقام أشدَّ تلاؤم من الرفع إذ الرفع ليس في دلالته نزع من الأصل والجذر، ومن ثم فقد تناسب الرفع مع لفظة الطور التي لا تدل على تلك المعاني.

وهكذا جاءت كل لفظة متناغية مع ما جاورها تنادى كل كلمة على أختها، وتنسجم مع سياقها، وهذا دأب الذكر الحكيم كتابُ العربية المعجزُ الخالد.

- تومئ الفريدةُ إلى تفرد موضعها بنصها وفصها في القرآن العظيم كما تشيرُ إلى تفردِ تلك الحالةِ في تاريخ الإنسانية مذ كانت وإلى يوم القيامة، وأن موسى عليه السلام انفرد بهذه المعجزةِ القاهرةِ الباهرةِ من سائرِ الأنبياء فبان مِن ذلك كلِّه أن لتلك الفريدةِ أسرارًا كثيرةً، وإشاراتٍ دقيقةً لا يمكنُ لغيرها أن يُغنيَ غناها.

* * *

الفريدة الثالثة والثلاثون: ﴿فَاقِعٌ﴾، وأتت في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ﴾ [البقرة:٦٩].

ووردت في قصة القتيل الذي وقع في أمره خلاف بين بني إسرائيل فأمرهم الله بذبح بقرة أي بقرة وضربه بعضو من أعضائها، وعندئذ سيخبر عمن قتله، وهذا أمر ميسور لو نفذوه دون مراوغة، ولكنهم كدأبهم شددوا على أنفسهم فطلبوا أوصاف تلك البقرة وكان يكفيهم أية واحدة، فمن أجل ذلك شدد الله عليهم وأمرهم بذبح بقرة تعبوا في الحصول عليها وما كان أغناهم عن ذلك لو استجابوا بداية.

وقد جاء في سياق تلك القصة فريدتان **(فاقع - لا شية)**.

وفي دلالة ﴿فَاقِعٌ﴾ يقول السمين الحلبي: «﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ أي: خالص، يقال: أصفر فاقع، أي: صادق الصفرة، وأسود حالك وحانك، وأبيض يقق، وأخضر ناصع، وأحمر قانئ»[1].

ومن المفسرين يقول الزمخشري: «الفقوع أشد ما يكون من الصفرة وأنصعه،

(١) عمدة الحفاظ ٣/ ٢٩٠، ومفردات الراغب ٣٩٨.

يقال في التوكيد: أصفر فاقع ووارس، كما يقال أسود حالك... وعن وهب: إذا نظرت إليها خيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها»[1].

وإذا كان الأمر كذلك فلم آثر فاقع على غيرها ؟

لابد أن في تلك الفريدة أسرارًا عديدة منها:

- أن حروف الفريدة تنطق بنصاعة اللون وشدته، انظر إلى القاف الشديدة المتبوعة بالعين القوية والتي زادها تنوينها قوة، كل ذلك يدل على أن الصفرة في تلك البقرة قد بلغت حدها النهائي بحيث لا توجد صفرة من جنسها يمكن أن تتفوق عليها، فأدت الفريدة بحروفها ونغم أصواتها المعنى أفضل أداء و أوفاه كما يحسه كل ذي ذوق سليم وطبع مستقيم إذا أدار حروف الفريدة على لسانه، وأنعم فيها نظره.

- هذه الفريدة أنسب في الدلالة على شدة الصفرة، وقد أشار إلى ذلك اللغويون والمفسرون فيما مضى حين جلبوا لكل لون صفته التي تدل على كماله فيه فجاءت الفريدة في موضعها التي لا يصح أن يحل غيرها محلها بوجه من الوجوه، فضلًا عن كونها أوجز وأفصح من قولنا شديدة الصفرة لو عبر بها.

- تومئ الفريدة إلى أن هذا اللون كان من الندرة والتفرد في هذه البيئة بمكان، ومن ثم لم يعثروا عليه كما تذكر الروايات إلا بمشقة وتعب وبحث مضنٍ، كما تومئ إلى أن هذا الموضع من قصة موسى عليه السلام قد جاء في القرآن مرة واحدة لم يتكرر.

* * *

(١) تفسير الكشاف للزمخشري ١/ ٢٧٨، والفتوحات الإلهية للجمل ١/ ٦٤، والألوسي ١/ ٦٨٦.

الفريدة الرابعة والثلاثون: ﴿لَا شِيَةَ﴾، وجاءت في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِى ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [البقرة:٧١].

وعن تلك الفريدة يقول السمين الحلبي: «قوله تعالى: ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾، أي: ليس فيها لون يخالف لونها. وأصل ذلك من وشي الثوب إذا نسجه على لونين فأكثر»(١).

ومن المفسرين يقول الشيخ صديق خان: «﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي: لا لون فيها غير لونها، والشية: مأخوذة من وشي الثوب إذا نسج على لونين مختلفين، وثور موشى: في وجهه وقوائمه سواد... والمعنى أن هذه البقرة خالصة الصفرة ليس في جسمها لمعة من لون آخر»(٢).

أما لِمَ عبر بتلك الفريدة دون غيرها؟ فلذلك أسباب عديدة منها:

- أن هذه الفريدة أدل على المطلوب بإيجاز شديد، فهي أوجز قطعا مما لو قيل: لا لون فيه يخالف لونها، كما أن مادة تلك الفريدة دون غيرها تثبت أنها خالصة الصفرة ليس في جسمها لمعة من لون آخر، ولو كان لونًا ضئيلًا منمنمًا لا يكاد يرى بالعين المجردة.

---

(١) عمدة الحفاظ ٤/ ٣٦٢، ومفردات الراغب ٥٦١ .

(٢) فتح البيان ١/ ١٥٩، وانظر معاني القرآن للفراء ١/ ٤٨، والطبري ١/ ٥٢١، ومفاتيح الغيب ٣/ ١٦٩، والقرطبي ١/ ٤٥٤، وتفسير أبي السعود ١/ ٨٩، وتفسير الألوسي ١/ ٦٩٣ .

- تلك الفريدة تؤكد على لون البقرة من جهة غير التي تنظر إليها الفريدة السابقة فهي تركز على أن الصفرة الشديدة في البقرة لا يختلط معها لون آخر، فهي كلها صفراء من أخمص قدمها إلى منبت شعرها ليس فيها لون آخر، وهذا أمر عجيب غريب فريد لا يكاد يتوافر في بقرة أي بقرة، ولكنهم لما شددوا على أنفسهم ولم يرضخوا للأمر بذبح أي بقرة من أول مرة شدد الله عليهم ورفع وتيرة المطلوب منهم حتى وجدوها بملء مسكها ذهبًا كما يقول المفسرون[1].

وهذا يعني أنهم بحثوا عن البقرة التي تحمل هذه الصفات الدقيقة فلم يجدوا إلا واحدة فعكست هاتان الفريدتان تفرد تلك البقرة في صفاتها ووجودها، والله أعلم.

* * *

الفريدة الخامسة والثلاثون: ﴿يَتِيهُونَ﴾، وجاءت في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة:٢٦].

ويحكي سياق تلك الفريدة أن بني إسرائيل أمرهم الله ﷻ بدخول الأرض المقدسة، فتقاعسوا وخافوا وجبنوا وقالوا لموسى: إن فيها قومًا جبارين، وإنا لن ندخلها ماداموا فيها، فعاقبهم الله ﷻ وكتب عليهم التيه في صحراء سيناء أربعين عامًا.

وفي معنى ﴿يَتِيهُونَ﴾ يقول السمين الحلبي: «قال تعالى: ﴿يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾، والتيه: الحيرة، وتاه يتوه تيها كباع يبيع بيعًا فهو تائه أي حائر، وتاه يتوه توهًا فهو تائه، ففيها لغتان، ووقع في التيه والتوه أي: موضع الحيرة، وأصله

(١) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٣، وتفسير ابن كثير ١/ ١٨٠ .

من التيهاء وهي المفازة المجهولـة المسلك لعدم وجود منار أو علم بها؛ فمن سلكها حصل له التيه»[1].

ويقول الطبري: «معنى ﴿يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يحارون فيها ويضلون، ومن ذلك قيل للرجل الضال عن سبيل الحق: تائه»[2]. وإذا كانت ﴿يَتِيهُونَ﴾ بمعنى: يحارون ويضلون فلم اصطفى هذه الفريدة على غيرها؟

لابد أن يكون في تلك الفريدة خصوصيات لا توجد فيما يقاربها، منها:

- أنها تدل على المطلوب بدقة ووضوح بخلاف (يتحيرون) فإن المرء قد يحتار ويتردد في سلوك طريق ما ولكنه لا يتوه فيه أو يضل عنه، أما التائه فهو حيران لا يهتدي لدرب، ولا يعرف طريقًا صائبًا يسلكه، وهكذا كانت حالة بني إسرائيل فقد غم الله عليهم المكان الذي كانوا فيه فلم يقـدروا على الخروج منه، وظلوا فيه حيارى تائـهين أربعين عامًا.

ويؤكد ما ذهبنا إليه أن أصله -كما مر عند السمين الحلبي- من التيهاء، وهي المفازة المجهولة المسلك لعدم وجود منار أو علم بها فمن خاضها ضل وتاه فيها، ومن ثم كانت الفريدة أدق وأكمل في إيصال المعنى مما يقاربها، والله أعلم.

- تعكس هذه الفريدة تفرد تلك الحالة في تاريخ الأنبياء، وفي تاريخ الإنسانية

---

(١) عمدة الحفاظ ١/ ٣١٣، ومفردات الراغب ٧٣.

(٢) تفسير الطبري ٤/ ٥٨٣، وانظـر الكشاف ١/ ٦٠٥، والقرطبـي٦/ ١٢٩، ومفاتيح الغيب ١٠/ ٦٤٩، والألوسي ٤/ ٥٨٣، وفتح البيان ٢/ ٤٧٩، وتفسير المنار ٦/ ٢٧٧، والتحرير والتنوير ٦/ ١٦٧.

جمعاء إذ لم يعهد في تاريخ الأمم والشعوب الغابرة والباقية أن تاه مثل هذا الجمع الغفير، والحشد الكبير في مفازة من المفازات سوى بني إسرائيل، ولو تتبعوا النجوم واتجاهاتها لخرجوا من تلك البرية، ولكن الله ﷻ أعجزهم عن ذلك عقوبة لهم على سوء صنيعهم فالأمر - كما يقول الألوسي - كان «من خوارق العادات؛ إذ التحير في مثل تلك المسافة على عقلاء كثيرين هذه المدة الطويلة مما تحيله العادة، ولعل ذلك كان بمحو العلامات التي يستدل بها، أو بأن ألقي شبه بعضها على بعض»[1].

- في الفريدة إيماء من طرف خفي إلى هلاك معظم هذا الجيل الذي رفض دخول الأرض المقدسة في هذا التيه، ونشوء جيل جديد فيه من عناصر البأس والقوة والاعتماد على النفس ما فيه فهو -كما يقول الشيخ سيد قطب- «جيل يعتبر بالدرس، وينشأ في خشونة الصحراء وحريتها صلب العود، جيل غير هذا الجيل الذي أفسده الذل والاستعباد والطغيان في مصر، فلم يعد يصلح لهذا الأمر الجلل، والذل والاستعباد والطغيان يفسد فطرة الأفراد كما يفسد فطرة الشعوب»[2].

* * *

الفريدة السادسة والثلاثون: ﴿يَنقَضَّ﴾، وجاءت في قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا﴾ [الكهف:٧٧].

---

(١) تفسير الألوسي ٤/ ٥٨٣.

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٨٧٣، ومع الأنبياء في القرآن ٢٥٥، والقصص القرآني إيحاؤه ونفحاته ٣٢٨.

وقد وردت في ثنايا الحديث عن أهل القرية التي استطعم موسى والعبد الصالح -عليهما السلام- أهلها فأبوا لبخلهم الشديد أن يطعموهما، وقد رد لهم العبد الصالح عليه السلام هذه الإساءة بالإحسان حيث وجد جدارًا أوشك على السقوط فأقامه مما أثار حفيظة موسى عليه السلام، وسأله عن الحكمة فيما فعل مخالفًا للاتفاق بينهما ألا يسأله عن شيء حتى يحدثـه عنه العبد الصالح عليه السلام.

وعن معنـى تلك الفريدة يقول السمين الحلبي: «قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ أي: ينهدم، يقال: انقض الجدار ينقض انقضاضًا.

وهو مطاوع قضضت وقرئ ﴿ينقاض﴾ أي: ينقطع من أصله»[1].

ويقول الألـوسي: «﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾، أي: يسقط، وماضيه انقض على وزن انفعل نحو انجـر، والنون زائدة؛ لأنه من قضضته بمعنـى كسرته، لكـن لما كـان المنكسر يتساقـط، قيل: الانقضاض: السقـوط، والمشهـور أنه السقوط بسرعة كانقضاض الكواكب والطير»[2].

وإذا كان الانقضاض بمعنى السقوط فإن إيثار ﴿يَنقَضَّ﴾ على يسقط مما يمكن أن يحل محلها كان لسمات عدة منها:

- هذه الفـريدة تصور من خلال جرسها، وصفات حروفها سرعة الانهيار الذي كان سيحدث للجدار، تأمل قوة وشدة وقلقلة حرف القاف ثم قوة جرس الضاد

(١) عمدة الحفاظ ٣/ ٣٧٠، ومفردات الراغب ٤٢٠ ومختار الصحاح ٢٢٥ .

(٢) تفسير الألوسي ١٠/ ٥٦٠، وفتح البيـان ٥/ ٤٨٣، والكشـاف ٢/ ٤٩٤، والقرطبي ١١/ ٢٥ .

فإنهما يحكيان قلقلة الجدار، وتحلل بنيانه، علاوة على ما في سرعة النطق بمقاطعها من إشارة إلى سرعة تهاوي البنيان.

- أن الفريدة تحمل دلالة ليست موجودة في يسقط؛ لأن الانقضاض -كما يقول الألوسي- هو السقوط بسرعة، ولفظ يسقط لا يفهم منه السرعة على إطلاقه، فالجدار -من شدة ميله- أوشك أن يسقط فجأة وبسرعة دون لفت نظر لأصحابه كي يُقَوِّموا ميله، ويصلحوا حاله، هذا مكمن الفرق بينهما، ومن ثم لا يصح وضع إحداهما مكان الأخرى.

- هذه الفريدة أفصح في هذا المقام، وأكثر انسجامًا مع سياق الكلام من غيرها، وقد زادها قوة وجمالًا وخلابة مصاحبتُها للاستعارة في قوله: ﴿يُرِيدُ﴾ هذه الاستعارة الموحية المشخصة التي كست الكلام رونقًا وبهاء، وخلعت على الجمادات صفات العقلاء، وإلى هذا أشار جلة المفسرين: يقول الرازي: «فإن قيل كيف يجوز وصف الجدار بالإرادة مع أن الإرادة من صفات الأحياء؟ قلنا: هذا اللفظ ورد على سبيل الاستعارة، وله نظائر في الشعر قال:

يُرِيدُ الرُّمْحُ صَدْرَ أَبِي بَـرَاءٍ ** وَيَرْغَبُ عَنْ دِمَاءِ بَنِي عَقِيلِ

وأنشد الفراء:

إِنَّ دَهْرًا يَلُفُّ شَمْلِي بِجُملٍ ** لَـزَمَـانٌ يَـهُـمُّ بِالإِحْـسَـانِ

ونظيره من القـرآن قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، وقوله تعالى: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾»[1].

(١) مفاتيح الغيب ٢٠/ ٣٦١ ـ ٣٦٢١، وتفسير الألوسي ١٠/ ٥٦٠ .

ويقول القرطبي: «﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ أي: قرب أن يسقط، وهذا مجاز وتوسع وقد فسره في الحديث بقوله مائل، فكان فيه دليل على وجود المجاز في القرآن، وهو مذهب الجمهور، وجميع الأفعال التي حقها أن تكون للحي الناطق متى أسندت إلى جماد أو بهيمة فإنما هي استعارة أي لو كان مكانهما إنسان لكان ممثلًا لذلك الفعل، وهذا في كلام العرب وأشعارها كثير»[1].

- الإشارة إلى مسلك العبد الصالح عليه السلام العجيب والغريب من هؤلاء القوم اللئام الذين رفضوا ضيافتهما وهم في أشد الحاجة لطعامهما، وبالرغم من ذلك فعل ما فعل مما جعل موسى عليه السلام يخل بالتزامه معه في ألا يسأله عن الحكمة فيما يفعله، ويأتي به من خوارق وعجائب.

***

الفريدة السابعة والثلاثون والثامنة والثلاثون: (أعيبها - غصبًا)، ووردتا في قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا﴾ [الكهف:٧٩].

وجاءتا في سياق ذكر الأسباب التي حدت بالخضر عليه السلام أن يخرق السفينة التي ركبها الخضر وموسى عليهما السلام.

وعن دلالة هاتين الفريدتين يقول السمين الحلبي: «قوله تعالى: ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾، أي: أجعل فيها عيبًا، والعيب والعاب: ما يصير به الشيء عيبة، أي: مقرًّا

(١) تفسير القرطبي ١١/ ٢٥، وانظر الكشاف ٢/ ٤٩٤، وفتح البيان ٥/ ٤٨٣ .

للنقص، وعبته: جعلته معيبًا إما بالفعل كقوله: ﴿أَنْ أَعِيبَهَا﴾، وإما بالقول وذلك إذا ذممته»[1].

و«الغصب: أخذ مال الغير والاستيلاء عليه قهرًا، قال تعالى: ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ وتغصبت: الشيء أخذته وقبلته بِكُرهٍ»[2].

ومن المفسرين يقول الألوسي: «﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أجعلها ذات عيب بالخرق، ولم أرد إغراق مَنْ بها كما حسبت، ولإرادة هذا المعنى جيء بالإرادة، ولم يقل: فأعبتها... ﴿غَصْبًا﴾ من أصحابها وانتصابه على أنه مصدر مبين لنوع الأخذ، والظاهر أنه كان يغصب السفن من أصحابها، ثم لا يردها عليهم، وقيل: كان يسخرها ثم يردها»[3].

أما عن سر ورود هاتين الكلمتين فريدتين فلذلك أسباب منها:

- أن هاتين الفريدتين أوفق في أداء المعنى المراد؛ فهما يطابقان معناهما أشد تطابق، وينسجمان مع محور القصة أشد انسجام، كما هو ظاهر بجلاء لكل متأمل في سياقهما، ومن ثم فلا يمكن لغيرهما أن ينوبا منابهما.

- أن في الفريدتين إيجازًا واضحًا يدركه كل من ينعم النظر فيهما، ويقارن بينهما وبين المعاني التي ذكرت لهما لدى اللغويين والمفسرين فيما مضى، والإيجاز سمة رئيسة من سمات الفرائد القرآنية كما ذكرنا مرارًا.

- تومئ هاتان الفريدتان إلى أمرين غاية في الغرابة: فالفريدة: ﴿أَعِيبَهَا﴾ تومئ

(١) عمدة الحفاظ ٣/ ١٧٢، ومفردات الراغب ٣٦٦ .

(٢) عمدة الحفاظ ٣/ ٣٧٠، ومختار الصحاح ١٩٩ .

(٣) تفسير الألوسي ١٠/ ٥٦٧ ـ ٥٦٨، وتفسير الجمل ٣/ ٣٩، وفتح البيان ٥/ ٤٨٣ .

إلى أن العبد الصالح نزع لوحا من ألواح السفينة، أو أحدث فيها خرقًا واضحًا حتى إذا رآها الملك الغاصب على تلك الحالة أدرك أن لا حاجة له فيها، وهذا هو مقصد العبد الصالح عليه السلام من عيبها وبالرغم من هذا النزع أو الخرق سلمت السفينة، ولم تغرق وبقيت لأصحابها من المساكين، كما تومئ الفريدة ﴿غَصۡبٗا﴾ إلى أن الملك الغاصب حين رآها كما هو مفهوم السياق تركها ولم يستول عليها وكان تركه لها من الأمور الغريبة غير المعتادة في مثل تلك الحالات بل هو أمر قدره الله وأرغمه عليه فأشارت الفريدتان إلى غرابة وتفرد هذا الأمرين، والله أعلم.

- تشير هاتان الفريدتان، والفريدة السابقة أيضًا إلى أمر عجيب في تاريخ الأنبياء جميعًا؛ فالأنبياء هم المعلمون والموجهون لغيرهم في كل زمان ومكان، وهم مصدر العلم، وينبوع المعرفة الحقيقية، ولكن الأمر في هذه القصة جرى على غير هذا العرف المعتاد؛ فقد تعلم موسى الرسول على يد عبد من عباد الله الصالحين علمه أمورًا غاية في العجب والغرابة لم يعطها المولى عز وجل لموسى، ورزقها هذا العبد الصالح.

وفي ذلك دلالة على طلاقة القدرة الإلهية التي منحت علمًا لدُنيًّا لبشر غير نبي لم تعطها لرسول صنعه الله على عينه ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ [طه:٤١] وفي هذا إشارات جمة لا يدركها القلم، ولا يحيط بها المرء، وكلها من قبيل الخوارق، والله أعلم.

- تشير الفرائد الثلاث أيضًا إلى أن الذي أتى به الخضر عليه السلام كان غريبًا فريدًا مخالفًا المنطق الظاهري في النظر للأشياء، فعكست الفرائد هذه الأمور العجيبة كلها.

وبهذا تنتهي الفرائد في قصة موسى ﵇، ويلاحظ أن جل - بل كل - الأمور الفريدة والغريبة في تلك القصة رُمِزَ إليها بألفـاظ فرائد، علاوة على ما فيها من أسرار تعبيريـة أخرى أفضنا القول فيها بما وفقنا الله ﷻ لاستخراجه والتقاطه، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

المبحث السابع

أسرار التعبير بالفرائد في قصة داود وسليمان عليهما السلام

داود وسليمان عليهما السلام من أنبياء بني إسرائيل بعد عصر موسى بزمانٍ، وقد آتاهما الله علمًا وحكمة وملكًا عظيمًا، وحكى القرآن قصتهما في آيات كثيرة، وسور عديدة من الكتاب الكريم.

وقد وردت في قصتهما تسع فرائد اختص داود عليه السلام بفريدة واحدة، وسليمان عليه السلام بثماني فرائد، ولعل كثرة الفرائد في قصة سليمان عليه السلام يعود إلى كثرة الغرائب، والأمور الفريدة العجيبة في قصته، ومن يراجع قصتهما في الذكر الحكيم كاملة يلمس مصداق ما أقول.

وهذه الفرائد على ترتيب دراستها هي: (السرد - ففهمناها - فتبسم - الهدهد - الخبء - عفريت - جفان - الصافنات - رخاء)

الفريدة الأولى: ﴿ٱلسَّرۡدِ﴾، وجاءت في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [سبأ:١١].

وقد وردت في سياق امتنان الله ﷻ على عبده داود ﵇ الذي آتاه الله فضلًا عظيمًا فقد كانت الجبال تسبح معه، وتأوب الطير حوله، وذلل لـه الحديد طيِّعا بين يـديه يشكله كيـف شاء، وعلمه صناعة الدروع على نمط لم يُسبق به من قبل.

والفريدة ﴿ٱلسَّرۡدِ﴾ مستعملة هنا في غير معناها الحقيقـي، وهي - كما يقول السمين الحلبي - «السرد - في الأصل - نسج ما يخشُن ويغلظ كنسج الدروع، وخرز الجلد، واستعير لنظم الحديد فقوله: ﴿وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِ﴾، أي: ضيِّق فيها؛ حتى لا يغلق بعضها من بعض، فاستعار السرد لذلك... والمعنى: تابع بين حِلق الزرد كي تتناسق، ويقال للحلق سرد. ومعنى التقدير فيها أن لا تجعل المسامير دقاقًا فتُغلق، ولا غلاظًا فتقصم»[1].

وجاء حديث المفسرين عن تلك الفريدة أكثر تفصيلًا يقول الشيخ صديق خان: «﴿وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِ﴾ السرد: نسج الدروع، ويقال السرد والزرد، كما يقال: السراد والزراد لصانع الدروع، والسرد أيضًا الخرز يقال: سرد يسرد إذا خرز، ومنه: سرد الكلام إذا جاء به متواليًا... ومعنى سرد الدروع: إحكامها، وأن يكون نظام حلقها وِلاء غير مختلف، قال قتادة: كانت الدروع قبل داود ثقالًا فلذلك أمر هو بالتقدير فيما يجمع الخفة والحصانة... وقال البقاعي: إنه لم تكن في حلقها مسامير لعدم الحاجة إليها بسبب إلانة الحديد، وإلا لم يكن بينه وبين غيره فرق، ولا كان للإلانة كبير فائدة»[2].

---

(١) عمدة الحفاظ ٢/ ٢١٥، ومفردات الراغب ٢٣٥، ومختار الصحاح ١٢٤ .

(٢) فتح البيان ٧/ ٤٢٣، والألوسي ١٤/ ٦٩٦، والتحرير والتنوير ٢٢/ ١٥٦ .

هذا ما ذكره اللغويون والمفسرون حول الفريدة.

لكن ما هو السر في ورودها فريدة وحيدة؟

أرى -والله أعلم- أن لذلك أسبابًا منها:

- أن هذه الفريدة أوجز مما فُسرت به كما هو واضح، والإيجاز سر بديع من أسرار الفرائد بوجه عام، علاوة على ما فيها من استعارة أكسبت الكلام قوة وفخامة، وأبانت عن أن حلق الحديد كانت في يد داود عليه السلام عند خرزها سهلة لينة طيعة كسهولة النسج والخرز، فكان الصعب العسير على غيره سهلًا يسيرًا عليه؛ لأن الله عز وجل قد ألان له الحديد وطوعه بين يديه، ومن ثم أعقب الفريدة بوجوب شكر الله عز وجل على منحه العظيمة التي أعطاه إياها.

- هذه الفريدة تشير إلى أمر فريد عجيب علمه الله لداود عليه السلام، إما على نحو لم يكن مسبوقا به مطلقًا، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء:٨٠]، أو على نحو لم يكن مسبوقًا به من قبلُ بمعنى أنه صنع هذه الحلق -كما يقول الشيخ صديق خان نقلًا عن البقاعي- «دون مسامير لعدم الحاجة إليها بسبب إلانة الحديد، وإلا لم يكن بينه وبين غيره فرق، ولا كان للإلانة كبير فائدة»[(١)].

- تدل هذه الفريدة على تفرد داود عليه السلام من بين الأنبياء المذكورين في القرآن بمهنة الحدادة، ومهارته في صناعة الدروع بتعليم من ربه سبحانه فكان تطويع الحديد الذي ينسج منه حلق الدروع معجزة له عليه السلام، ومعلوم أن بعض الأنبياء

(١) فتح البيان ٧/ ٤٢٣ .

مارسوا أعمالًا ومهنًا أومأت إليها بعض الفرائد لم تكن لغيرهم مثل داود عليه السلام هنا، ومثل نوح وموسى عليهما السلام فيما مضى.

وهنا ملحوظة دقيقة هي أن المولى عز وجل أورد في معجزة إلانة الحديد فريدةً هي ﴿ٱلسَّرۡدِ﴾، ولم يأت في تسبيح الجبال وتأويب الطير بفرائد وهما معجزتان انفرد بهما داود عليه السلام علي غيره من الأنبياء أيضًا؛ وذلك راجع - والله أعلم - إلى أن المعجزة الوارد فيها تلك الفريدة تمس شئون الناس، وتتصل بحياتهم اتصالًا شديدًا؛ لأن الدروع كانت تقيـهم شر أعدائهم، وتحصنهم من بأسهم، فنعمة الشكر فيها أوجب، والمنة فيها أوضح، والمنفعة فيها أعم وأشمل.

أما هاتان المعجزتان فهما من خواص داود عليه السلام قاصرتان عليه لا يتعدى نفعهما وأثرهما لأمته، وكل الفرائد الواردة في قصة سليمان عليه السلام - كما سيأتي - من هذا المنطلق الذي أوضحناه.

من هنا نفهم السر في عدم ورود فرائد في كل المعجزات التي وردت في القرآن لطائفة من الأنبياء، واقتصار الفرائد غالبًا على ما يتصل بحياة الناس خيرًا أو شرًّا، نعيمًا أو عذابًا كما أبرزناه في المباحث السابقة، وكما سيأتي بعد، والله أعلم.

❊ ❊ ❊

الفريدة الثانية: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا﴾، وقد جاءت هذه الفريدة الفعلية في قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:٧٩].

ووردت في سياق امتنان الله على عبده سليمان بتفهيمه الفصل في قضية وقع فيها

نزاع بين رجلين، وقد حكم فيها داود ﷺ بحكم رآه صائبًا، وجاء حكم سليمان في القضية أصوب[1].

وقد ذكر الراغب معنى تلك اللفظة فقال: «الفهم: هيئة للنفس بها تتحقق معاني ما يحسن، يقال: فهمت كذا، وقوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ وذلك إما بأن جعل الله له من فضل قوة الفهم ما أدرك بـه ذلك وإما بأن ألقي ذلك في رُوعِهِ، أو بأن أوحي إليه وخصه به»[2].

وأما المفسـرون فقد جاء كلامهم حول الفريـدة مقتضبًا نظرًا لاشتهار دلالتها فـي أذهان كثيـر من الناس يقول القرطبي: «قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ أي: فهمناه القضية والحكومة فكنى عنها إذ سبق ما يدل عليها»[3].

أما لماذا جاءت هذه اللفظة فريدة وحيدة وكان من الممكن الاستغناء عنها بما يقاربها نحو علمناه وغير ذلك؟ فمرد ذلك - والله أعلم - إلى أمور منها:

- أن هذه الفريدة أوفق بسياق الكلام من غيرها؛ لأن الحكم في هذه القضية لم يكن نتاج تفكير وإنعام نظر وتأمل طويل مما قد يقتضيه لفظ العلم بل - كما يفهم من السياق - كان وليد اللحظة أدخله المولى ﷻ في قلب سليمان ساعتئذ، وأفهمه له من حينه، فهو شيء أُلهم به سليمان ﷺ إلهامًا، وأُلقي به في روعه إلقاء سريعًا.

- أومأت الفريدة إلى حالة عجيبة في دنيا الناس؛ إذ المعتاد المتعارف عليه أن

(١) انظر تفصيل تلك القضية في موضعها من كتب التفسير المختلفة .
(٢) مفردات الراغب ٤٠٠، وعمدة الحفاظ ٣/ ٣٠٠، والمعجم الوسيط ٢/ ٧٣٠ .
(٣) تفسير القرطبي ١١/ ٣٠٧، والكشاف ٢/ ٥٧٩، وفتح البيان ٦/ ١٧٥ .

يكون الأكبر سنًّا هو الأصوب في الحكم على صحة الأشياء، والبتّ فيها من الصغير الذي لم تعركه الحياة بتجاربها وخبراتها مثلما عركت الكبير، فلما جاء الأمر هنا على غير المعتاد والمتوقع في دنيا الناس عبر بهذه الفريدة للإيماء إلى ذلك، والله أعلم.

- وقد تدل هذه الفريدة على أن الله ﷻ مكَّن سليمان من فهم تلك القضية أكثر من داود ﷺ، ولم يبتعد داود عن الصواب في فهمها «فمعنى قوله: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَ﴾ أنه ألهمه وجها آخر في القضاء هو أرجح لما تقتضيه صيغة التفهيم من شدة حصول الفعل أكثر من صيغة الإفهام، فدل على أن فهم سليمان للقضية كان أعمق، وذلك أنه أرفق بهما، فكانت المسألة مما يتجاذبه دليلان فيصار إلى الترجيح والمرجحات لا تنحصر، وقد لا تبدو للمجتهد، والله تعالى أراد أن يظهر علم سليمان عن أبيه ليزداد سروره به، وليتعزى على من فقده من أبنائه قبل ميلاد سليمان»[(١)].

- وقد تدل الفريدة أيضًا على أن الله ﷻ اختص سليمان ﷺ بالحكمة في فهم كثير من القضايا عن أبيه داود ﷺ، ولا يُنقص هذا من قدر داود إذ قد يختص نبي بصفة ما لا تكون في غيره من الأنبياء، ومن ثم وجدنا النظم الكريم يعقب الفريدة بقوله سبحانه: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾ أي: كُلًّا منهما اختصه الله بحكم وعلم لم يؤته لغيره، أو انفرد كل منهما عن الآخر بعلم لم يكن للآخر، وهذا من أفضال الله ﷻ على هذين النبيين الكريمين.

- تشير الفريدة -من طرف خفي- إلى أن هذا الحكم الذي أفهمه الله ﷻ لسليمان في معالجة تلك الحادثة كان في بداية عهده بالملك والنبوة، وكأنه تجريب

---

(١) التحرير والتنوير ١٧/ ١١٨ .

وتدريب له على كيفية قيادة رعاياه وجنوده من الإنس والجن والطير والحشرات، وسياستهم بقوة وحزم واقتدار مما لم يعطه لأحد آخر من الأنبياء، فأومأت الفريدة -والله أعلم- إلى ما اختص الله ﷻ به سليمان من إتقان سياسة التعامل في كل ما يعن له من أمر، ومن هنا عرف بسليمان الحكيم، وكانت مملكته أعظم الممالك حينئذ بفضل سياسته الحكيمة القائمة على فهم الأمور بدقة، والتعامل معها بحكمة.

وهذا تعليم للملوك وللساسة بمحاولة فهم طبيعة شعوبهم فهما جيدًا، وسياستهم لها سياسة رشيدة حكيمة يلينون لهم حينًا، ويشددون حينًا، وقديمًا قيل: إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

* * *

الفريدة الثالثة: ﴿تَبَسَّمَ﴾ وأتت في قوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل:١٩].

ويحكي سياق الفريدة أن سليمان ﷺ مر على وادي النمل فسمع نملة تقول لقرنائها: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل:١٨] فتبسم ضاحكًا من قولها إعجابًا بها وبحكمتها، وأيقن مدى النعمة الكبرى التي منحها الله له حيث أقدره على إدراك حديث النملة تلك المخلوقة الصغيرة فتوجه إلى ربه سبحانه بالشكر على هذه النعم الجزيلة.

وقد أدلى اللغويون بدلوهم في هذه الفريدة يقول السمين الحلبي: «البسم ابتداء: الضحك والأخذ فيه، وقيل هو الضحك من غير قهقهة وفي الحديث: «كان ضحكه

تبسمًا»، وقوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾، أي: أسرع في الضحك وشرع فيه، قال في الكشاف: أي: جاوز حد التبسم إلى الضحك، قلت: وحينئذ تقول النحاة في (تبسم زيد ضاحكًا) إن ضاحكًا حال مؤكدة، وليس بواضح لأن فيها معنى زائدًا على عاملها، وكان ضحك سليمان عليه السلام فرحًا بفضل الله لما ترتب على ذلك من منافع الدنيا والآخرة؛ لأنها معجزة يؤمن بها كل من عرفها ولم يكن أشرًا وبطرًا وسفهًا كضحك بعض اللاهين»(١).

وقد تحدث المفسرون عن معنى هذه الفريدة، وفرقوا كذلك بين الضحك والتبسم فقالوا: «﴿فَتَبَسَّمَ﴾ سليمان ابتداء، ضاحكا انتهاء... وكل من التبسم والضحك والقهقهة انفتاح في الفم لكن الأول انفتاح بلا صوت أصلًا، والثاني مع صوت خفيف، والثالث مع صوت قوي وكان ضحك سليمان تعجبًا من قولها وفهمها، واهتدائها إلى تحذير النمل، أو فرحًا لظهور عدله»(٢).

أما لماذا عبر بهذه اللفظة الفريدة؟ فلذلك أسرار عديدة منها:

- الدلالة على اختصاص سليمان عليه السلام بمعرفة لغة صغار الحشرات التي لا تكاد ترى بالعين المجردة إلا بعد تأمل ونظر دقيق إلى الأرض ومن ثم فصوتها يكون ضعيفًا جدًّا على قدر صغر جسدها، وكانت هذه معجزة عظيمة لم يؤتها المولى عز وجل لأحد من الخلق قبله أو بعده، فتبسم من ذلك سرورًا -كما يقول الزمخشري- «وسروره بما آتاه الله مما لم يؤت أحدًا من إدراكه بسمعه ما همس به بعض الْحُكْلِ الذي هو مثل في

(١) عمدة الحفاظ ١/ ٢١٨، والمعجم الوسيط ١/ ٥٩، ومختار الصحاح ٢١ .

(٢) فتح البيان ٧/ ٧٨، والألوسي ١٣/ ٤٣٩، والتحرير والتنوير ١٩/ ٢٤٣ .

الصغر والقلة، ومن إحاطته بمعناه، ولذلك اشتمل دعاؤه على استيزاع الله شكر ما أنعم به عليه من ذلك، وعلى استيفائه لزيادة العمل الصالح والتقوى»[1] وغير ذلك كثير مما قد تلمح إليه الفريدة.

– الإشارة إلى الفروق الدقيقة بين الألفاظ التي يظن بعض الناس أنها مترادفة؛ لأن الضحك هنا فيه معنى زائد عن التبسم –كما ذهب اللغويون والمفسرون– فبان بوضوح أن لكل لفظة هوية خاصة بها، وإن اشترك اللفظان في أصل الدلالة، وعليه فإن التبسم هو الشروع في الضحك بدون صوت أو قهقهة، ثم لما زاد إعجاب سليمان بفصاحة النملة وحكمتها في قولها ازداد سرورًا وإعجابًا بها فانتقل من مرحلة التبسم إلى مرحلة الضحك وهي انفراج الشفتين وبدو الأسنان من السرور مع سماع صوت خفيف، وهذا يتلاءم تمام التلاؤم مع سياق الكلام المبني على شكر هذه النعم العظيمة «ولعله إنما لم يقل سبحانه (فتبسم من قولها) بل جاء –جل وعلا– بـ ﴿ضَاحِكًا﴾ نصبًا على الحال؛ ليكون المقصود بالإفادة التجاوز إلى الضحك بناء على أن المقصود من الكلام الذي فيه قيد إفادة القيد نفيًا أو إثباتًا، وفيه إشعار بقوة تأثير قولها فيه عليه السلام حيث أداه ما عراه منه إلى أن تجاوز حد التبسم آخذا في الضحك، ولم يكن حالة التبسم فقط»[2].

– توحي هذه الفريدة من طرف بعيد إلى معجزة أخرى خارقة للعادة هي علم النملة بأن المار بها هو نبي الله سليمان وجنوده «فتعجَّبَ من أنها عرفت اسمه، وأنها

---

(١) تفسير الكشاف ٣/ ١٤٢ .

(٢) تفسير الألوسي ١٣/ ٤٤٠ .

قالت: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ فوسمته وجنده بالصلاح والرأفة، وأنهم لا يقتلون ما فيه روح لغير مصلحة، وهذا تنويه برأفته وعدله الشامل لكل مخلوق لا فساد منه»[1].

- هذه الفريدة من أظهر الفرائد في الإيماء بوضوح وانكشاف إلى الأسرار الثلاثة التي تعكسها معظم الفرائد، وهي تفرد موقعها في القرآن، وفي تاريخ الأنبياء، وتاريخ الإنسانية جمعاء، والله أعلم.

❊ ❊ ❊

الفريـدة الرابعة: ﴿ٱلۡهُدۡهُدَ﴾[2]، وقد وردت في قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾ [النمل:٢٠].

بعدما عرض النظم الحكيم لحديث النملة عن سليمان وجنوده انتقل للحديث عن أمر آخر غريب وعجيب وهو قصة الهدهد مع سليمان عليه السلام.

وقد اقتصر اللغويون على تعريفهم للهدهد بقولهم: «والهدهد طائر معروف، وجمعه هداهد»[3].

وقد استفاض بعض المفسرين في تعريف الهدهد فقال: «الهدهد نوع من الطير وهو ما يقرقر، وفي رائحته نتن، وفوق رأسه قزعة سوداء، وهو أسود البراثن، أصفر

---

(١) التحرير والتنوير١٩/ ٢٤٣، وانظر مفاتيح الغيب ٢٣/ ١٩٦، وتفسير الجمل ٣/ ٣٠٦.

(٢) لم ترد هذه الفريدة في رسالة المفاريد، ولعله عدها من (هَدَّ) التي وردت مرة واحدة أيضا فلم يأت بها، والراجح أن هذه اللفظة من (هَدْهَدَ) الرباعي فهي فريدة مادة وصيغة كما أوردها صاحب المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

(٣) عمدة الحفاظ ٢٨١، والمعجم الوسيط ٢/ ١٠١٧، والمصباح المنير٢٤٣.

الأجفان، يقتات الحبوب والدود يرى الماء من بعد، ويُحِس به في باطن الأرض فإذا رفرف على موضع عُلـم أن به ماء، وهذا سبب اتخاذه في جند سليمان»[1] والإتيان بهذه اللفظة فريدة وحيدة يرجع لأسرار عديدة منها:

- الإيماء إلى عدة أمور غريبة عجيبة صدرت من هذا الطائر الصغير الضعيف فهو:

أولًا: قد تفرد - عن جماعة الطيور التي سخرها الله ﷻ لسليمان - بحديث طويل معه فيه جرأة ولهجة حادة وتحدٍ شديد، وذلك في قوله: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ [النمل:٢٢]، أي: بالرغم من كونك ملكًا نبيًّا، ولك من القوة والصولجان ما لك فقد غاب عن علمك ما أخبرتك به، وهذا يعد من الأمور العجيبة الغريبة الفريدة أن يتحدث طائر صغـير مسخـر لسليمان بهذه اللهجة القوية الشديدة، ويتحداه هذا التحدي العجيب.

ثانيًا: الإشارة إلى أن هذا الهدهد العجيب كان قوي الإيمان بالله ﷻ وكان على علم كامل أنه وحده سبحانه هو المستحق للعبادة دون غيره، ومن ثم استنكر أشد الاستنكار عبادة هؤلاء القوم للشمس من دون الله، ولعمري فقد تفوق بذلك على أناسي كثيرة.

ثالثًا: الإشارة إلى أن هذا الهدهد قام بمهمة فريدة جليلة وعظيمة لم يستطع أي جندي آخر من جنود سليمان الكثيرة أن يقوم بها؛ إذ طار مسافات شاسعة من فلسطين إلى اليمن، ووقف على شرفة قصر بلقيس وألقى إليها خطاب سليمان عليه السلام،

(١) التحرير والتنوير ١٩/ ٢٤٥ .

كل ذلك أمور فريدة اختص بها هذا الهدهد، فعكست هذه الفريدة هذه الأمور كلها، واستحق أن يخلد اسمه في أجل كتاب هو القرآن الكريم.

- دلالة الفريدة على تفرد موضعها في القرآن فلم ترد في سورة أخرى كما دلت على اختصاص سليمان عليه السلام بمعرفة منطق الطير من بين الأنبياء بل والإنسانية جمعاء.

* * *

الفريدة الخامسة: ﴿ٱلۡخَبۡءَ﴾، ووردت في قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ [النمل:٢٥].

وجاءت تلك الفريدة على لسان الهدهد وهو يحكي لسليمان عليه السلام ما أحاط به دونه، ويستنكر مسلك هؤلاء في عبادة غير الله عز وجل و﴿ٱلۡخَبۡءَ﴾ - كما يذكر السمين الحلبي - «كل غائب وقيل: كل مدخر مستور، وقيل: المراد السر، وقيل: خبء السماء المطر، وخبء الأرض النبات»(١).

ولم يبعد المفسرون عن هذا المعنى، يقول العلامة الجمل: «الخبء: مصدر خبأت الشيء أخبؤه خبئا من باب نفع أي: سترته، ثم أطلق على الشيء المخبوء، ونحوه (هذا خلق الله)، وفي التفسير: الخبء في السموات المطر، وفي الأرض النبات»(٢).

هذا، وفي إيثار الذكر الحكيم لهذه الفريدة دون ما يقاربها أسرار عديدة منها:

- أن التعبير بالفريدة دون غيرها يتسق مع السياق أشد اتساق؛ لأن الذي تفوه

(١) عمدة الحفاظ ١/ ٥٥٦، ومفردات الراغب ١٤١ .

(٢) الفتوحات الإلهية للجمل ٣/ ٣١٠، وتفسير الألوسي ١٣/ ٤٦٨ .

بهذه الفريدة هو الهدهد، والهدهد أعطاه الله ﷻ القدرة على كشف المخبوء المستور في باطن الأرض فهو يظل يحفر بمنقاره حتى يصل إلى ما اشتمه، وهذه صفة لصيقة به عُرفت عنه قديمًا وحديثًا، ومن ثم عبر بالفريدة التي هي ألصق صلة بمهمته، والتي يتفوق فيها على غيره.

وإلى هذا أشار الألوسي بقوله: «واختيار هذا الوصف لما أنه أوفق بالقصة حيث تضمنت ما هو أشبه شيء بإخراج الخبء، وهو إظهار أمر بلقيس وما يتعلق به، وعلى هذا القياس اختيار ما ذكر بعد من صفاته ﷻ وقيل إن تخصيص هذا الوصف ﴿ٱلۡخَبۡءَ﴾ بالذكر لما أن الهدهد أرسخ في معرفته، والإحاطة بأحكامه بمشاهدة آثاره التـي من جملتها ما أودعه الله تعالى في نفسه من القدرة على معرفة الماء تحت الأرض»[1].

وهكذا التأمت الفريدة مع سياقها أشد التئام، ولا يغني غيرها غناءها، فيا للعجـب الشديد من هذا الالتئام، وتلكم الدقة المتناهية في أسلوب الذكر الحكيم!

- تتناغى الفريـدة كذلك مع السياق العام للقصة؛ فالهدهد حين تغيب عن سليمان بدون إذنه أتى له بأخبار ومعارف كانـت مخبؤة مستـورة عنه لا يعلم عنها شيئًا في بلاد ليست بعيدة عنه كثيرًا، وقد سخر الله له الجان والريح، وأتاه من كل شيء، وبالرغم من ذلك لم يعلم أن بلقيس ملكة سبأ كانت تعبد الشمس هي وقومها من دون الله إلا عن طريق هذا الهدهد الذي كشف لهم هذا الأمر المستور.

فانظر إلى هذا التلاؤم وذاك التشاكل في ألفاظ الذكر الحكيم، وهذا - إن دل -

---

(١) تفسير الألوسي ١٣/ ٤٦٨ـ٤٦٩ وتفسيـر ابن كثير ٣/ ٣٦١، والتحرير والتنوير ١٩/ ٢٥٥.

يدل على إعجاز لا يرقى إليه عقل بشري، فأنى للبشر التقاط هذه اللقطات؟!

* * *

الفريدة السادسة: ﴿عِفۡرِيتٞ﴾، وجاءت في قوله تعالى: ﴿قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾ [النمل:٣٩].

والمعنى: «قال مارد من الجن أنا أُحضِرُ إليك عرشَ بلقيس قبل أن تقومَ من مجلسِك، وكان مجلسُ سليمان عليه السلام كما يقول المفسرون من الصبح إلى الظهر في كل يوم، وغرضه أن يأتيَه به في أقلَّ مِنْ نصف نهار»(١).

والعفريت كما يقول السمين الحلبي: «هو المتمردُ من الجن الخبيثُ منها، وقيل: هو النافذ القوي مع خبث، ويستعار ذلك للآدميين استعارة الشيطان لهم، قال ابن قتيبة: هو من قولهم رجل عفريت وهو الموثق الخلق»(٢).

أما المفسرون فعرفوا هذه الفريدة بقولهم: «العفريت: المارد الغليظ الشديد القوي، قال النحاس: يقال للشديد إذا كان معه خبث ودهاء: عفر وعفرية وعفريت، وقال قتادة: هو الداهية، وقيل: هو رئيس الجن»(٣).

وقد آثر الذكر الحكيمُ التعبيرَ بهذه الفريدة لما فيها من سماتٍ تعبيرية وخصائصَ فنيةٍ لا توجد في سواها من ذلك:

- اتساق هذه الفريدة دون غيرها مع المطلوب اتساقًا تامًا، فلما كان المطلوب

---

(١) تفسير الصابوني ٢/ ٩٩٤، وفي ظلال القرآن ٥/ ٢٦٤١ .

(٢) عمدة الحفاظ ٣/ ١١٦، ومفردات الراغب ٣٥١ .

(٣) فتح البيان ٧/ ٩٢، وتفسير الألوسي ١٣/ ٤٩٤، والتحرير والتنوير ١٩/ ٢٧٠ .

-وهو إحضار عرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين في وقت وجيز- أمرًا جللًا عجيبًا فريدًا في نوعه انتدبَ الماردُ القوي الشديدُ من الجانِّ نفسه لهذه المهمة الجليلة؛ لأنه رأى أنه أقدرُ مِن غيره على إنجازها في أقلِّ وقتٍ ممكنٍ، فاختير هذا اللفظُ الفريدُ لهذا المطلبِ الغريبِ العجيبِ فتم التناسبُ والاتساقُ بين الفريدةِ ومُقامِها.

- هذه الفريدةُ دون غيرِها تدلُّ بكثرةِ حروفِها على بسطةِ معناها؛ فإن كثرةَ المبنى تدل على سعة المعنى، وهذا واضحٌ بدقةٍ من اصطفاء تلك الفريدة إذ لم يقل: وقال الجن أو واحد منهم، أو الشيطان مثلًا. ولفظتا الجان والشيطان مذكورتان في قصة سليمـان في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ [سبأ:١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ [ص:٣٧]، فلمّا ترك التعبيرَ بهذين اللفظين، وآثر الفريدة ﴿عِفْرِيتٌ﴾ دل ذلك على أن في لفظة ﴿عِفْرِيتٌ﴾ خصوصية ولطيفةً زائدةً عمّا في لفظتي الجان والشيطان، فبان أن القرآن يضع كلَّ لفظة في موضعها الأليق بها الأشكل بوجودها مما لا يمكن أن يسد غيرُها مسدَّها.

كما ظهر أيضًا أنَّ هناك فروقًا دقيقةً بين هذه الألفاظ الثلاثة التي تشترك في معنى واحد ثم تستقل كل لفظة بجزئية من الدلالة خاصة بها، وهذا - إن دل - يدل على نفـي الترادف بمعنى التطابق التام والتماثل الكامل بين لفظين يشتركان في معنى واحدٍ في الذكر الحكيم، وهو ما ذهبنا إليه في هذا البحث، وأكدنا عليه بالتطبيـق العملي مِرارًا وتكرارًا.

- تومئ هذه الفريدة إلى تفرّدِ هذا الموضعِ في قصة سليمان في القرآن كما تدل على عظيمِ ملك سليمان إذ سخّر الله ﷻ له الجان ونزع منه خاصية الإرعاب والتخويف

لبني الإنسان حيث كان يجلس في مجلس سليمان عليه السلام مع الإنس في مكانٍ واحدٍ لا يؤذيهم أو ينكل بهم أو يتلبسهم كما يُفهم بوضوحٍ من سياق هذه الفريدة مما يُنبئ عن أن ملكَ سليمان عليه السلام حوى من العجائبِ والغرائبِ والفرائدِ ما لم يُؤته الله عز وجل لأحدٍ غيرِه من الأنبياء في تاريخ الإنسانية جمعاء.

* * *

الفريـدة السابعة: ﴿جِفَانٍ﴾، ووردت في قوله تعالـى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

وجاءت هذه الفريدة في سياق امتنان الله عز وجل على عبده سليمان حيث سخر له الجان يعمل له ما يشاء مما ذكرته الآية الكريمة.

وقد ذكر السمين الحلبي معنى هذه الفريدة فقال: «الجفان جمع جفنة، والجفنة الوعاء المعـروف، خُصّت بوعاء الطعام، ولتعارف العرب بمدحها ومدح من يطعم فيها خصها تعالى بالذكر في قوله تعالى: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ جريًا على ما يألفونه ويتمدحون به، ومنه قول حسان من الطويل:

لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ بِالضُّحَى * * وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا

ويقولون للسيد جفنة يمدحونه بذلك لأنه يطعم الناس فيها»(١).

ولم يبعد المفسرون عما قاله اللغويون يقول الشيخ صديق خان: «جفان جمع جفنة

(١) عمدة الحفاظ ١/ ٣٧٩، ومفردات الراغب ٩٢ .

وهي القصعة الكبيرة، قال الواحدي: قال المفسرون يعني قصاعًا في العظم كحياض الإبل يجتمع على القصعة الواحدة ألف رجل يأكلون منها»[1].

وآثر القرآن التعبير بهذه الفريدة دون ما يقاربها لأنه يتجلى فيها أسرار عديدة منها:

- ملاءمة هذه الفريدة لسياق الكلام أشد ملاءمة؛ لأن الذي صنع هذه الجفان هم الجان، ولما كان الجان من القوة والشدة بمكان تناسب معه أن يصنع أعظم أواني الطعام، وهي الجفان التي تكفي لأن يأكل منها ألف رجل كما يقول المفسرون.

- الإيماء إلى أن هذه الجفان -على أي معنى كان- كانت واسعة جدًّا، وكبيرة جدًّا كالحياض العظيمة لم يوجد مثلها من قبل في دنيا الناس؛ لأن الجن صنعتها بحذق ومهارة بأمر من سليمان عليه السلام، ومعلوم أن الجن يقدر -بما ركب الله فيه من قوة خارقة- على ما لا يقدر عليه البشر غالبًا، أو يصنع ما يصنعه البشر ولكن بسرعة وخفة.

فكانت هذه الجفان آنذاك شيئًا غريبًا عجيبًا فريدًا لم يعهد عند الأقوام والأمم الأخرى، حتى صارت من لوازم ملكه العظيم.

ومن ثم جاءت الفريدة مجموعة جمع تكسير للكثرة دلالة على تعدد الجفان وكثرتها حتى تستطيع استيعاب الجم الغفير، والحشد الكبير من جنوده وأتباعه من الإنس والجن الذين يأكلون في تلك الجفان.

- هذه الفريدة دون غيرها أليق بمقام المدح، وأكثر دلالة على ارتفاع شأن صاحبها بين الناس كما يفهم من كلام السمين الحلبي؛ بدليل أن العرب المخاطبين

(١) فتح البيان ٧/ ٤٣٥، وتفسير الألوسي ١٤/ ٧٠٣، والتحرير والتنوير ٢٢/ ١٦٢ .

بالقـرآن كانوا يتمدحون بعظمها واتساعها، فكانت عندهم أكبر الأواني المعـدة للطعام في هذا الغرض، وهذا ما كان سليمان عليه السلام يقـوم به من إعداد الجفان العظيمة ليأكل فيها جنوده ورعيته، وفي هذا دلالة على كرمه البالغ، وجوده الوافر.

- وهناك من يرى أن هذه الجفان ربما لا تكون معدة للطعام، وإنما لوضع الماء فيها، وهذا ما ألمـح إليه ابن عاشور بقوله: «شبهت الجفان في عظمها وسعتها بالجوابي وهي جمع جابية، وهي الحوض العظيم الواسع العميق الذي يجمع فيه الماء لسقي الأشجار والزروع:

قال الأعشى :

نَفَى الذَّمَّ عَنَ آلِ الْمُحَلَّقِ جَفْنَةٌ ❊❊ كَجَابِيَةِ الشَّيْخِ الْعِرَاقِيِّ تَفْهَقُ

أي: الجفنة في سعتها كجابية الرجل العراقي، وأهل العراق أهل كروم وغروس فكانوا يجمعون المـاء للسقي، وكانت الجفان المذكورة موجودة في الهيكل المعروف عندنا ببيت المقدس لأجل وضع الماء ليغسلوا فيها ما يقربونه من المحرمات كما في الإصحاح الرابع من سفر الأسفار الثاني»(١).

- تومئ الفريدة إلى تفرد موضعها في القرآن، وفي تاريخ الأنبياء، فلم يحك القـرآن عن نبي آخر أن أنعم الله عليه بمثل هذه الأمور التي أنعم بها على سليمان، وتفرد هذه الفريدة في تاريخ الأنبياء ينسجم تمامًا مع كون سليمان عليه السلام ملكًا نبيًّا آتاه الله عز وجل ما يتناسب مع هذا الملك والنبوة من عجائب كثيرة كما هنا، وفيما مضى، وكما سيأتي.

❊ ❊ ❊

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/ ١٦٢ .

الفريدة الثامنة: ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾، وعرضها الذكر الحكيم في قوله تعالى: ﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ﴾ [ص:٣١].

وقد وردت في سياق المنن التي عَدَّدَهَا الله ﷻ لعبده سليمان في تلك السورة الكريمة.

وقد ذكر اللغويون المراد من الصافنات على أكثر من وجه ففي عمدة الحفاظ يقول: «قوله تعالى: ﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ﴾، أي: الخيل القائمات، يقال: صفن الفرس أي: قام، وأهل اللغة يقولون: أن يثني الفرس إحدى يديه أو رجليه فيقف على ثلاث وهو أجود الخيل، وأنشد:

أَلِفَ الصُّفُونَ فَلا يَزَالُ كَأَنَّهُ ** مِمَّا يَقُومُ عَلَى الثَّلَاثِ كَسِيرَا

وقيل: هي قيامها مطلقًا، ومنه الحديث: « قمنا خلفه صفونا»، أي: صافين أقدامنا»[(١)].

كما نقل الشيخ صديق خان في تفسيره اختلاف أهل اللغة في معنى الفريدة، فقال: «الصافنات: جمع صافن. وقد اختلف أهل اللغة في معناه: فقال القتيبي والفراء: الصافن في كلام العرب الواقف من الخيل أو غيرها... وقال الزجاج: هو الذي يقف على إحدى اليدين ويرفع الأخرى، ويجعل على الأرض طرف الحافر منها حتى كأنه يقوم على ثلاث، وهي الرجلان وإحدى اليدين، وقد يفعل ذلك بإحدى رجليه وهي علامة الفراهة»[(٢)].

---

(١) عمدة الحفاظ ٢/ ٣٩٩، ومفردات الراغب ٢٩١ .

(٢) فتح البيان ٨/ ١٦٦ .

وفي تفسير الألوسي يقول: «الصافن من الخيل: الذي يرفع إحدى يديه أو رجليه ويقف على مقدم حافرها... والصفون من الصفات المحمودة في الخيل لا تكاد تتحقق إلا في العرب الخلص»[1].

بعد هذا العرض المستفيض في معاني تلك الفريدة لدى اللغويين والمفسرين نقول: لقد آثر الذكر الحكيم التعبير بهذه الفريدة لأمور عديدة منها:

- أنها أوجز مما فسرت به -كما هو بين بوضوح- علاوة على أنه لا توجد لفظة أخرى تقاربها في المعنى من الممكن أن تحل محلها حتى نقارن بينهما، فاقتضى سياق الكلام وجودها فحلت في موقعها الأجدر بها.

- الدلالة على أن تلك الجياد **إما**: أنها كانت نوعية فريدة لا يوجد لها في جودتها ونجابتها وعتقها نظير، ومن ثم وُصفت بوصفين: «الصفون والجودة ليجمع لها بين الوصفين المحمودين واقفة وجارية، يعني: إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها، وإذا جرت كانت سراعًا خفافًا في جريها»[2]، **وإما**: أنها كانت كثيرة وفيرة عنده، وتحمل سمات عالية من صفات العتق والكرم والأصالة ما ليس لدى غيره من الأمم والشعوب، وعلى كلا الرأيين فهذا مما يتناسب مع اتساع ملك سليمان وكثرة جنوده، والله أعلم.

- تعكس الفريدة تفرد سليمان ﵇ من بين الأنبياء المذكورين في القرآن بهذه

---

(١) تفسير الألوسي ١٥/ ٥٠٧ ـ ٥٠٨، والتحرير والتنوير ٢٣/ ٢٥٤ .

(٢) فتح البيان ٨/ ١٦٧، وتفسير الصابوني ٣/ ١٢٢٢، والقصص القرآني إيحاؤه ونفحاته ٣٥٦ .

الكثرة من الخيل ذات الصفات الحميدة، وهذا يدل على أنه لم يقطع سوقها وأعناقها كما يقول بعض المفسرين بل الراجح أنه كان شديد الحب لها والحدب عليها، فكلما كانت تمر أمامه يعيدها ليمسح على سوقها وأعناقها حُبًّا وإعجابًا بها، وهذا الذي يتلاءم مع شكر النعمة، ويتناسب مع شخص سليمان الملك النبي عليه السلام، وإلى هذا الأخير مال كثير من المفسرين.

* * *

الفريدة التاسعة: ﴿رُخَآءً﴾، وجاءت في قوله تعالى: ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ﴾ [ص:٣٦]، وقد ذكر السمين الحلبي معناها فقال: «قوله تعالى: ﴿رُخَآءً﴾ أي: لينة طيبة، والرخاء الواسع، ومنه الحديث: «ليس كل الناس مرخى»[أي: موسع عليه]، وأصل ذلك من الرخاوة، والرخو ضد الصلب، ومنه الحروف الرخوة ضد الشديدة»[1].

أما المفسرون فقد فصلوا القول فيها تفصيلا يقول الشيخ صديق خان: «﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً﴾، أي: لينة الهبوب ليست بالعاصف مأخوذة من الرخاوة، والمعنى: أنها ريح لينة لا تُزعزع، ولا تعصف مع قوة هبوبها وسرعة جريها، ولا ينافي هذا قوله في آية أخرى ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ [الأنبياء:٨١]؛ لأن المراد أنها في قوة العاصفة، ولا تعصف، وقيل: إنها كانت تارة رخاء، وتارة عاصف على ما يريد سليمان ويشتهيه، وهذا أولى في الجمع بين الآيتين»[2].

---

(١) عمدة الحفاظ ٢/ ٨٨، ومفردات الراغب ١٩٧، ومختار الصحاح ١٠١ .

(٢) فتح البيان ٨/ ١٧٣، وتفسير الألوسي ١٥/ ٥٣٢، والتحرير والتنوير ٢٣/ ٢٦٤ .

وإذا كان الأمر كذلك فلما اختار تلك الفريدة دون سواها؟

أرى أن لذلك مزايا عدة منها:

- أن حروف تلك الفريدة دون غيرها تصور هبوب هذه الريح أقوى تصوير «فالصوت هو الذي يوحي، ويرسم الحركة في عملية نطق تحاكي الحدث فإن الضمة على الراء تعني انضمام الشفتين على حرف ليس من حروف اللين، واستدارة الشفتين تتطلب جهدًا، وفي هذا قوة الريح، ثم يأتي الانتقال من الضم إلى الفتح على حرف حلقي ليدعو إلى تصور بدء سهولة، وتكثر السهولة في مد الألف فليس هناك انقباض ولا انكماش بل تدرج من الصعب إلى السهل مما يمثل طواعية الريح للنبي بأمر الخالق، ولا يكون هذا في كلمة سوى رخاء»[1].

- هذه الفريدة تحمل في جوانحها المعاني السابقة عند اللغويين والمفسرين ومقام الكلام يقبلها ولا يرفضها، فهي ريح لينة طيبة واسعة سخرها الله ﷻ لسليمان يجريها كيف يشاء، ولن تؤدي لفظة أخرى هذه المعاني جملة، فجاءت الفريدة في مكانها.

- الإشارة إلى أن تلك الريح لها خاصية عجيبة فقد انتزع الله منها صفة العذاب والهلاك؛ أقول هذا لأن لفظ الريح المفرد المعرف بأل ورد في بقية مواضعه في القرآن في مقامات العذاب والهلاك[2]، فهذه الريح العاصفة المهلكة قد طوعها الله ﷻ لسليمان، وجعلها لطيفة لينة سهلة منقادة له حيث أراد.

- الدلالة على أن تسخير هذه الريح الرخاء كان أمرًا فريدًا خارقًا للعادة اختص

---

(١) جماليات المفردة القرآنية ٣٢ .

(٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٤١٤ .

الله به سليمان ولم يعطه لأحد قبله أو بعده، وقد منح الله ﷻ سليمان تلك الخصيصة عقب الفتنة التي افتتن بها الواردة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص:٣٤]، فدعا الله ﷻ بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص:٣٥].

فاستجاب الله ﷻ وسخر الله له الريح عقب دعائه هذا مباشرة كما تنبئ عنه دلالة الفاء في قوله فسخرنا فكان هذا الأمر من الفضائل الكبرى، والمنن العظمى التي اختصه بها سبحانه، والله أعلم.

❊ ❊ ❊

المبحث الثامن

أسرار التعبير بالفرائد القرآنية في قصة يونس عليه السلام

قصة يونس عليه السلام لم تشغل في القرآن حَيِّزًا كبيرًا مثل القصص السابقة فقد جاءت في القرآن في آيات قليلة في أربع سور فحسب هي: (يونس - الأنبياء - الصافات - القلم).

وقد اشتملت هذه القصة الكريمة على أربع فرائد هي على ترتيب دراستها (أبق - فساهم - يقطين - ذا النون).

وقد وردت الفرائد الثلاث الأُول في سورة الصافات في قوله تعالى: ﴿ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ﴾ [الصافات ١٤٠- ١٤٦].

وهذه الفرائد الثلاث في تلك الآيات البينـات تحكي أمورا فريدة غريبة حدثت ليونس عليه السلام.

وسوف نعرض لأسرار تلك الفرائد تباعًا بعد عرض ما قاله اللغويون والمفسرون فيها، فأقول وبالله التوفيق:

ذكر اللغويون أن ﴿أَبَقَ﴾ بمعنى هرب يقول الراغب: «أَبَق العبد يأبَق إباقًا، وأبَق يأبِق إذا هرب»[1].

وهذا ما ذكره المفسرون مع تفصيلاتٍ يقول الشيخ صديق خان: «وأصل الإباق: الهرب من السيد لكن لما كان هروبه من قومه بغير إذن ربه وصف به فهو استعارة تصريحية أو مجاز مرسل من استعمال المقيد في المطلق فالله هو سيده، وهو عبد له»[2].

وقد آثر الذكرُ الحكيمُ ﴿أَبَقَ﴾ على هرب؛ لأنها تميزت بسماتٍ وخصوصياتٍ كثيرة منها:

- أنها أبلغ مما يقاربها مثل (هرب)؛ لأنها من قبيل المجاز، والمجاز أبلغ من الحقيقة كما يقول البلاغيون على اختلافٍ في نوع المجاز هنا، فالألوسي يرى أن في ﴿أَبَقَ﴾ «استعارة تصريحية، أو مجاز مرسل من استعمال المقيد في المطلق، والأول أبلغ»[3].

وابن عاشور يرى أن «﴿أَبَقَ﴾ هنا استعارة تمثيلية شبهت حالة خروجه من البلدة الذي كلفه فيها ربه بالرسالة تباعدا من كلفة ربه بإباق العبد من سيده الذي

---

(١) مفردات الراغب ٣، ومقاييس اللغة ١/ ٣٨، ولسان العرب(أبق) .

(٢) فتح البيان ٨/ ١٢٧، وتفسير القرطبي ١٥/ ١٢٢، وتفسير النسفي ٤/ ٢٨ .

(٣) تفسير الألوسي ١٥/ ٤٠٩، وفتح البيان ٨/ ١٢٧ .

كلفه عملا»[1].

وعلى أي توجيه -مما سبق- في نوع المجازِ فالمجازُ فيها أبلغ وأجمل من الحقيقة كما هو بيِّن.

- الإباق يختص بأنه هروبُ العبدِ من سيده من غير خوف، ولا كدِّ عملٍ[2]، أما الهرب فهو على العكس من ذلك؛ إذ يكون نتيجةَ خوف وكد عمل، ومشقة زائدة، ولم يكن يونس عليه السلام كذلك، فبان أن تلك الفريدةَ هي أوفقُ وأليق بحاله عليه السلام في كونه عبدًا لربه، وظهر أيضًا أن بين اللفظتين فرقًا دقيقًا لا يمكن أن يُستخدمَ أحدُهما مكانَ الآخر.

- الإباق -كما يُشيرُ السياق- قد استُعمل في خروج يونس عليه السلام دون إذن ربه حيث وردت الفريدة في سياق الحديث عن يونس عليه السلام حين ضاق ذرعا من تكذيب قومه له، وكان قد أنذرهم بقدوم العذاب عليهم، فلما تأخر عنهم العذابُ خرج مغاضبًا لهم متوجها تُجاه البحرِ دون إذن من ربه، والهرب لا يحتاج إلى إذنٍ أصلًا، فبين اللفظتين فرقٌ آخرُ من هذه الجهةِ.

- تختص هذه الفريدةُ بخصوصيةٍ عجيبة إذ إنها - كما يقول العلماء - لا تقال إلا من المولى عز وجل لأنبيائه، ولا يصح من العباد أن يتلفظوا بها عن الأنبياء في غير القرآن تأدبًا واحترامًا، يقول السمين الحلبي: «الإباقُ: هربُ العبد من سيده، ولما كان الخلق كلُّهم عبيدَه قال تعالى في حق عبده يونس صلى الله عليه وسلم: ﴿إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ

(١) التحرير والتنوير ٢٣/ ١٧٣ .

(٢) لسان العرب، والمصباح المنير (أبق) .

﴿ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ إذ لله أن يقول ما يشاء، ولا يجوز لنا أن نقول أبق نبي إنما ذلك لله تعالى»[1].

- تومئ الفريدة إلى أن هذا الصنيعَ من يونس عليه السلام كان أمرًا عجيبًا فريدا ليس له نظير في تاريخ الأنبياء؛ إذ لم يصبر عليه السلام هنيهة، واستبد به الضجر من تكذيب قومه له؛ حيث لامه ربُّ العزةِ سبحانه على ما فعله في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾، ومن ثَمَّ فتَفَرُّدُ هذا الموضعِ بنصه في الذكر الحكيم كان إيماءً إلى ذلك، والله أعلم.

أما عن ﴿سَاهَمَ﴾ فقد أجمع اللغويون على أنها بمعنى (قارع) يقول السمين الحلبي: «قوله: ﴿فَسَاهَمَ﴾ أي: قارع أي خرج السهم عليه لا له»[2].

وهذا ما ذهب إليه المفسرون يقول الشيخ صديق خان: «المساهمة أصلها المغالبة وهي الاقتراع، وهو أن يخرج السهم على من غلب، قال المبرد: أي: فقارع أهل السفينة، قال: وأصله من السهام التي تجال، والمعنى فصار من المغلوبين»[3].

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا عبر بها دون قارع؟

أرى -والله أعلم- أن في ﴿سَاهَمَ﴾ أسرارًا كثيرة لا توجد في قارع منها:

- أن ﴿سَاهَمَ﴾ أسهل لفظًا، وأخف نطقًا، كما أن فيها معنى لا يوجد في قارع إذ تنص على أن القرعة كانت تجال بالسهام على عادة العرب في إجراء القرعة بها إذا عن لهم أمر من الأمور اختلفوا فيه، ولعلها أخذت عن هؤلاء القوم، وكانوا أول من قارع بالسهام، والقرآن يعمد إلى اختيار اللفظة التي تضفي على السياق إشعاعات لا

(١) عمدة الحفاظ ١/ ٥٠ .
(٢) عمدة الحفاظ ٢/ ٢٦٣ .
(٣) فتح البيان ٨/ ١٢٧ .

تكون في غيرها مما يقاربها، والله أعلم.

- الإيماء إلى أن ما حدث ليونس من الاقتراع عليه كان أمرًا عجيبًا فريدًا في تاريخ الأنبياء؛ إذ لم يحدث لنبـي آخر قط مثل هذا الأمر فعكست الفريدة تفرد يونس عليه السلام بهذا الأمر كما عكست تفرد موضعها في الذكر الحكيم.

- تشير الفريدة إلى عدالة ركاب المركب إذ لم يزجوا بيونس في البحر من أول الأمر بالرغم من أن يونس ركب الفلك متأخرًا وهو مملوء كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾، بل لجئوا إلى القرعة وهم يعلمون أن واحدًا من المجموع ستقع عليه القرعة لا محالة ولم يعترض أحد منهم على ذلك كما يفهم من سياقات الآيات، وهذه كلها أمور فريدة غريبة عجيبة في مثل هذا الزمان أشارت إليها الفريدة.

* * *

أما الفريدة: ﴿يَقۡطِينٖ﴾ فقد اختلف اللغويون في معناها على آراء شتى: فالسمين الحلبي يقول: «قوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ﴾ هو كل شجر لا ينبت على ساق بل ينبسط ويفترش على وجه الأرض كالقثاء والقرع والحنظل، ووزنه تفعيل من قطن بالمكان إذا لازمه ومنه قواطن مكة»[1].

وهذا ما ذهب إليه المفسرون مع زياداتٍ يقول الشيخ صديق خان: «﴿مِّن يَقۡطِينٖ﴾ هـو شجرة الدباء، وقال المبرد: اليقطين يقال لكل شجرة ليس لها ساق، بل يمتد على وجه الأرض نحو: الدباء والبطيخ والحنظل، فإن كان لها ساق تقلها فيقـال

(١) عمدة الحفاظ ٣/ ٣٨١.

لها: شجرة فقط...

قال ابن عباس: اليقطين القرع، وعليه الجمهور.

وفائدته: أن الذباب لا يجتمع عنده، وأنه أسرع الأشجار نباتًا وامتدادًا وارتفاعًا، قال ابن جزي: وخص الله القرع لأنه يجمع برد الظل، ولين الملمس، وكبر الورق، وأن الذباب لا يقربه فإن جسد يونس حين ألقي لم يكن يتحمل الذباب»[1].

وقد آثر الذكر الحكيم التعبير بهـذه الفريدة على غيرها لأمور عديدة منها:

- أن الفريدة وإن كان المراد بها القرع على رأي الجمهور إلا أن ترك التعبير بالقرع، واختيارها يومئ إلى أنها تحمل في طياتها كل المعاني التي ذكرها لها العلماء - فيما مضى - وهي بذلك تكون أوفى دلالة وأكثر ثراء من غيرها.

- الإشارة إلى أنها شجـرة نبتت نباتًا عجيبًا فريدًا، فهي لم تأخذ المراحل الطبيعية المعتادة التي تعارف عليها البشر في نمو الأشجار من إلقاء البذرة ثم تعهدها بالرعاية والعناية إلى أن تنمو وتكبر وتورق وتثمر بل كل هذا لم يحدث، واختصر الأمر اختصارًا.

فقد نبتت مورقـة مثمرة وارفـة الظلال بالأمر الإلهي كوني فكانت، ومن ثم نُسب الإنبـات إلى المولى سبحانه مباشرة بضمير العظمة في قوله: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا﴾، فكان هذا الإنبات على وجه الإعجاز.

- الإيماء إلى تفرد هذه اليقطينة في شفاء بعض الأمراض لا يشركها فيها غيرها،

(١) فتح البيان ٨/ ١٣٠ .

وأدعو علماء النباتات[1] لملاحظة هذا الأمر؛ لأن اختيار القرآن لها دون غيرها في هذا المقام ليس عبثًا بل هو من أقوى الدلائل على تميزها بسمات وخصوصيات ليست في غيرها. فقد أظلت يونس وساعدت بسرعة على التئام جسده، واندمال جراحه من أثر احتكاكه في بطن الحوت.

- تدل الفريدة على تفرد موضعها في القرآن فهي المرة الوحيدة التي ذكرت فيها هذه الشجرة في القرآن، كما أن هذه الحادثة أضحت حالة فريدة في تاريخ الأنبياء والإنسانية جمعاء، والله أعلم.

* * *

الفريدة الرابعة: ﴿ذَا النُّونِ﴾، وقد وردت في قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧].

والنون كما يقول السمين الحلبي: «الحوت كما صرح به في قوله: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ [القلم:٤٨]، والمراد به نبي الله يونس بن متى عليه السلام، وإنما أضيف يونس إلى النون لابتلاعه إياه، ويجمع على نينان نحو: حوت وحيتان، وقال بعضهم النون الحوت العظيم فخصصه»[2].

(١) بعدما كتبت هذا الكلام علمت أن هناك رسالتين جامعيتين نوقشتا في فوائد هذه اليقطينة الطبية من خلال قراءتي لمقال في جريدة الأهرام الإثنين ٢١ يوليو٢٠٠٣ للدكتور زغلول النجار، وقد لفت الانتباه إلى أهمية تلك الشجرة في شفاء بعض الأمراض، وكشف عن الإعجاز القرآني في ذكرها، كما أثبتته هاتان الرسالتان.

(٢) عمدة الحفاظ ٤/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤، ومفردات الراغب ٥٠٠

وهذا ما ذهب إليه المفسرون أيضًا يقول ابن كثير: «﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ يعني الحوت صحت الإضافة إليه بهذه النسبة»[1].

ومادام الأمر كذلك فلماذا أتى بهذه اللفظة فريدة وحيدة مادة وصيغة، وفي القرآن مرادف لها مستعمل عند من يقول بالترادف؟

أرى -والله أعلم- أن في الفريدة دلالات لا توجد في غيرها منها:

- أن لفظة النون جاءت في حديث الله ﷻ المباشر عن يونس ﵇، أما الحوت فقد ورد في سياق الحديث عن الرسول ﷺ بذكر أخبار الأنبياء قبله تسلية له لما كان يعانيه من كفار قريش، والخطاب فيها موجه له ﵇ مباشرة كما ترى.

فاختلاف اللفظتين لاختلاف السياقين، وكل لفظة التأمت مع سياقها التئامًا شديدًا، وليس هذا من قبيل التنوع أو التفنن في الأسلوب دون غرض - حاشا وكلا - بل هناك فائدة تُرتجى من جراء هذا الاختلاف تتمثل: «في أن بين اللفظتين تفاوتًا كبيرًا في حسن الإشارة إلى الحالين، وتنزيل الكلام في الموضعين، فإنه حين ذكره في موضع الثناء عليه قال: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾، ولم يقل (صاحب الحوت)، ولفظ النون أشرف لوجود هذا الاسم في حروف الهجاء في أوائل السور نحو: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم:١].

هذا بالإضافة إلى ما يشتمل عليه هذا الحرف من أسرار باهرة في علم الله تعالى، قال السهيلي: ولقد قيل: إن هذا قسم بالنون والقلم وإن لم يكن قسمًا فقد عظمه

(١) تفسير ابن كثير٣/ ١٩٣، والكشاف ٢/ ٥١٨، والجمل٣/ ١٤٣، وفتح البيان٦/ ١٨٣ والتحرير والتنوير١٧/ ١٣٠ .

بعطف المقسم عليه وهو القلم.

وهذا الاشتراك يشرف هذا الاسم وليس في اللفظ الآخر -وهو الحوت- ما يشرفه، ثم قال: فالتفت إلى تنزيل الكلام في الآيتين يلُح لك ما أشرت إليه في هذا فإن التدبر لإعجاز القرآن واجب مفترض»[1].

وهذا كله يدل على نفي الترادف كما أثبتنا في بحث سابق حيث استخدم القرآن لفظة اليم والبحر، والجبل والطور، والقرية والمدينة[2] عَلَمًا على مكان واحد، ولكن اختلفت الألفاظ لاختلاف السياق، وكانت لكل لفظة لمحة ولقطة في سياقها ميزتها عن قريناتها كما بيناه هناك تفصيلًا، ولو كانت الألفاظ متحدة المعنى من جميع الوجوه لكان هذا اللفظ يصلح مكان ذاك دون أدنى فرق، ولم يقل بذلك أحد من أهل العلم المحققين فثبت أن لكل لفظة في القرآن دلالة تختلف بها عما يقاربها في المعنى، أو عما يرادفها كما يذهب من يقول بالترادف، والله أعلم.

- في هذه الفريدة غرابة في الاستعمال وقلة في التداول، وهذه الغرابة اتسقت مع غرابة فعل يونس عليه السلام إذ خرج مغاضبًا لقومه دون إذن ربه، ثم عتاب الله له على ذلك، وإنجائه من بطن الحوت في سابقة لم تحدث لأحد في تاريخ البشرية جمعاء، ولذلك نُسب إلى الحوت تشريفًا له، وتذكيرًا بفضل الله عليه وتعليمًا للمؤمنين بعدم اليأس مع ذكر الله تعالى فإنه المنجي من كل هم وغم وكرب، والله أعلم.

❊ ❊ ❊

(١) الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية ص٣٥٠، و القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته ص٣٤٧، والبرهان في علوم القرآن ٤/ ٦٢ - ٦٣، وتفسير الثعالبي ٣/ ٦٢ .

(٢) انظر مصر في القرآن دراسة بلاغية ص ٤٩٧ ـ ٤٩٨ـ ٥٠٩ ـ ٥٤١ ـ ٥٤٢ .

المبحث التاسع

أسرار التعبير بالفرائد في قصة زكريا عليه السلام

قصة زكريا عليه السلام ذكرت في القرآن العظيم في سورتين اثنتين سورة آل عمران المدنية، وسورة مريم المكية، وقد حوت تلك القصة القصيرة فريدتين: (اشتعل - رمزًا)، وجاءت الفريدة الأولى في سورة (مريم) في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم:٤].

وسياق الفريدة يحكي دعاء زكريا عليه السلام ربه أن يرزقه - على كبره - بولد تقر به عينه، ويرثه في النبوة.

وقد ذكر السمين معنى تلك اللفظة فقال: «قوله تعالى: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾، أي: أسرع فيه الشيب إسراع النار في الحطب، وهو من أبلغ الاستعارات، ولم يكتف بالاستعارة حتى أسند الاشتعال إلى الرأس، وأخرج الشيب تمييزًا مبالغة في ذلك، والأصل اشتعل شيب الرأس»[1].

---

(١) عمدة الحفاظ ٢/ ٣١٨، ومفردات الراغب ٢٦٩ .

وفي المعجم الوسيط قال: «أشعل النار وغيرها أوقدها وألهبها واشتعلت النار التهبت واتقدت، واشتعل فلان غضبًا هاج، واشتعلت الرأس ونحوه: انتشر فيه الشيب، وفي التنزيل: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾»[1].

وقد فصل الشيخ صديق خان الحديث أكثر عن الفريدة فقال: «الاشتعال في الأصل انتشار شعاع النار، فشبه به انتشار بياض شعر الرأس في سواده بجامع البياض والإنارة، ثم أخرجه مخرج الاستعارة بالكناية[2] بأن حذف المشبه به، وأداة التشبيه، وهذه الاستعارة من أبدع الاستعارات وأحسنها»[3].

وإذا كان الأمر كذلك فلمَ آثر الذكرُ الحكيم التعبيرَ بتلك الفريدةِ دون غيرها؟

أرى -والله أعلم- أن فيها دَلالاتٍ جمةً، وإيماءاتٍ مهمةً منها:

- أن الفريدةَ ﴿اشْتَعَلَ﴾ أدقُّ لفظًا، وأقوى دلالـة من انتشر مثلًا إذ تفيد بذاتها - لِمَنْ يتأملُها بدقة - أن جميع رأسِ زكريا عليه السلام شعرة شعرة قد صار كله أشيبَ وهذا يعني أنه قد بلغ من الكبر حدًّا لا يقدر معه أن يُنجبَ؛ بدليل أن عمودَ بدنِه، وقوامَ صلبِه، وهي عظامه قد وهنت وفترت.

---

(١) المعجم الوسيط ١/ ٥٠٤، ولسان العرب (شعل) .

(٢) ويجوز أن يكون فيها استعارة تبعية بأن شبه انتشار الشيب وكثرته باشتعال النار في الحطب، واستعير الاشتعال للانتشار واشتق منه اشتعل بمعنى انتشر، كما يجوز أن يكون في الكلام استعارة تمثيلية، وبالجملة فهذه العبارة الوارد فيها الفريدة تحتـوي على خصوصيات جمة، وقد لاقت عناية كبيرة من أهل البلاغة والتفسير، ولكن لم يشر أحد منهم إلى كون هذه اللفظة فريدة وحيدة في القرآن، وإبراز سر التعبير بها، وهو ما أخذه هذا البحث على عاتقه .

(٣) فتح البيان ٦/ ٥، والكشاف ٢/ ٥٠٢، والبيضاوي ٢/ ١٤، والقرطبي ١١/ ٧٧، ومفاتيح الغيب ٢٠/ ٣١٨ وتفسير الألوسي ١٠/ ٦٨١، وفتح القدير للشوكاني ٣/ ٣٢١

ومن أمارات هذا الوهن أن الشيب قد شَمِلَ رأسَه كلَّها بصورة لا يتوقع مَن يراها أن يكون مِن صاحبها إنجابٌ فوقعت الفريدةُ في موقعها الأليقِ بها، ولا يمكن لغيرها أن يسد مسدها، علاوة على أنها من أجمل الاستعارات كما أجمع العلماء إذ صورت الشيب كأنه نار قد اشتد لهبُها وضرامُها فأخذت في الاشتعال حتى شمِلت الرأسَ كلَّه فلم يبقَ فيه سوادٌ ألبتة.

وقد ذهب إمامُ البلاغة ومفتقُ أكمامِها عبدُ القاهر الجرجاني في هذه اللفظة مذهبًا مغايرًا فهو يرى أن الفضلَ والمزيةَ والاستعارة في هذه اللفظة لا يعود إليها ذاتِها بل إلى النظمِ الذي حلت فيه، ولو غُير هذا النظمُ لذهبت الجِدَةُ والروعة والفصاحةُ يقول: «وجملة الأمر أنا لا نُوجِبُ الفصاحةَ للفظةٍ مقطوعةٍ مرفوعةٍ مِن الكلامِ الذي هي فيه ولكنا نُوجبُها لها موصولةً بغيرها، ومُعلقًا معناها بمعنى ما يليها، فإذا قلنا: في لفظةِ ﴿اشْتَعَلَ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ إنها في أعلى رتبة من الفصاحة لم تُوجَبْ تلك الفصاحةُ لها وحدها ولكن موصولًا بها الرأس معرفا بالألف واللام، ومقرونا إليهما الشيب منكرًا منصوبًا»[1].

والذي جعل الإمامَ الجهبذ يذهبُ هذا المذهبَ، ويَنفي الفصاحةَ والجدة والروعة عن الكلمة مفردة قبل أن تدخلَ سياقها أنه في سفره الخالد (دلائل الإعجاز) كان يدافع عن إعجاز القرآن الكريم في وجه طوائفَ عديدةٍ ارتأى بعضُها أنه يرجع إلى المعنى، وبالغ بعضُها فارتأى أنه يعود إلى اللفظ.

أما الإمام فقد رأى أن الإعجاز يكمن في النظم جملةً واحدةً دون النظر إلى اللفظ

---

(١) دلائل الإعجاز تحقيق شاكر ٤٠٢ ـ ٤٠٣، وانظر الإيضاح للقزويني ٣٣٧.

إلا مِن خلال هذا النظم، وهذا - وإن كنا نسلم له به - لا يقلل من شأن انتقاء القرآن لألفـاظه مفـردةً فهـي منتقاةٌ في مكانها في أعلى درجات الانتقاء والاصطفاء، وإذا قُورنت بما يقاربُها - وهي مفردةٌ - ظهـر فيها من الدَّلالاتِ والإيحاءات ما ليس في غيرها كما أثبتته تلك الدراسة.

ولو ذهبنا إلى ما ذهب إليه الإمام - عليه سحائبُ الرحمة تترى - وقلنا: إن لفظة (انتشر) تصلـح مكان ﴿اشْتَعَلَ﴾، لفات بهذا كثير من الإيماءات التي توحي بها تلك الفريدةُ وغيرُها من فرائدِ هذا البحثِ الذي يقوم كله على بيان مدي الدقة الشديدة في اصطفاء القرآن لألفاظه اصطفـاء فاق الوصف، وبلـغ الحد كمـا أثبت هذا البحث بوضوح شديد.

- في الفريدة أيضًا كما يقول الشيخ سيد قطب «لون من التخييل يتمثل في الحركة الممنوحة لما من شأنه السكون، فحركة الاشتعال هنا تُخَيِّل للشيب في الرأس حركةً كحركة اشتعال النار في الهشيم»[1]، وهذا التصوير لا يوجد في غير تلك الفريدة.

- في الفريدةِ إيماءٌ إلى تفرد موضعها في الذكر الحكيم، وإلى تفردِ هذا الموقف في تاريخ الأنبياء والإنسانية جمعاء، وهذا الموقف يختلف عن موقف إنجاب خليل الله إبراهيم لإسحاق وهو شيخ كبير من وجوه عديدة منها: أن إبراهيـم عليه السلام سبق لـه إنجاب إسماعيل، وزكريا عليه السلام لم ينجب أحدا قبل يحيى، وإبراهيم عليه السلام لم يطلب من ربه في كبره أن ينجب ولدا آخر غير إسماعيل لكن جاءته البشرى بالإنجاب على غير توقع كما يفهم من الآيات، و زكريا عليه السلام طلـب ذلك من ربه مباشرة، وقـدم الأعذار

(١) التصوير الفني في القرآن ٧٨ بتصرف يسير.

التي تمنعه من الإنجاب بصورة طبيعة، وسارة زوج إبراهيم عليه السلام كانت عجوزًا بنص القرآن الكريم، أما امرأة زكريا عليه السلام فكانت عاقرًا بنص آيات القرآن الكريم. وبينهما فرق كما ترى، فالموقفان متغايران، وكل منهما كان أمرًا معجزًا خارقًا للعادة فريدًا في تاريخ الإنسانية، ومن ثم عكست الفرائد في الموقفين تفرد تلك الحالتين، والله أعلم.

* * *

الفريدة الثانية: ﴿رَمْزًا﴾ وقد وردت في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران:٤١].

وسياق الفريدة يحكي عن طلب زكريا من ربه آية يعرف بها بداية حمل زوجه بعدما استجاب لدعائه، فأخبره أنه عندما لا يقدر على الكلام مع الناس ثلاثة أيام وهو سوي معافى فهذه علامة الحمل.

وقد تحدث السمين عن معنى الفريدة فقال: «قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ أي: إشارة إما بالشفتين، وإما بالحاجبين، أو اليدين، ولهذا سمي كلامًا لقوله:

إِذَا كَلَّمَتْنِي بِالْعُيُونِ الْفَوَاتِرِ * رَدَدتُّ عَلَيْهَا بِالْعُيُونِ الْبَوَادِرِ

وأصله الحركة، وقيل للبحر: راموز لحركة أمواجه، والرمز أيضًا الصوت الخفي، وما ارمازَّ أي لم يتكلم، وكتيبة رمازة: أي: لا يسمع منها إلا رمز لحركتها»(١).

(١) عمدة الحفاظ ٢/ ١٢٦، ومفردات الراغب ٢٠٩، وراجع الإعجاز البياني للقرآن د/ بنت الشاطئ ٣٩٢.

وفي لسان العرب قال: «الرمز تصويت خفي باللسان كالهمس ويكون تحريك الشفتين بكلام غير مفهوم باللفظ من غير إبانة صوت إنما هو إشارة بالشفتين، وقيل الرمز: إشارة وإيماء بالعينين والحاجبين والشفتين والفم، والرمز في اللغة كل ما أشرت إليه مما يُبان بلفظ بأي شيء أشرت إليه بيد أو بعين»[1].

ومن المفسرين يقول الشيخ صديق خان: «﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ أي: إشارة، والرمز في اللغة الإيماء بالشفتين أو العينين أو الحاجبين أو اليدين، وأصله الحركة، وهو استثناء منقطع لكون الرمز من غير جنس الكلام، ورجحه القاضي، وقيل هو متصل على معنى أن الكلام ما حصل به الإفهام من لفظ أو إشارة أو كتابة، وهو بعيد، والصواب الأول وبه قال الأخفش والكسائي»[2].

وإذا كان الرمز بمعنى الإشارة أو الإيماء كما أجمع العلماء فلماذا عدل عنهما وأتى بتلك الفريدة؟

لا بد أن الفريدة تحتوي على لمحات لا توجد في غيرها منها:

- أن في الفريدة دلالة زائدة لا توجد في هذين اللفظين وهي الحركة كما هو واضح من أصل معناها عند اللغويين والمفسرين، فالفريدة تدل بوضوح تام على أن زكريا عليه السلام كان ممنوعا من الكلام لا لعاهة أو آفة أو مرض ألم به بل كان منعه

(١) لسان العرب (رمز)، والمصباح المنير ٩١، ومختار الصحاح ١٠٨ .

(٢) فتح البيان ٢/ ٥٣، وتفسير الألوسي ٣/ ١٠٢، والكشاف ١/ ٤٢٩، ومفاتيح الغيب ٧/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤، والقرطبي ٤/ ٨٠، وتفسير الجمل ١/ ٢٦٩، والتحرير والتنوير٣/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣ .

من الكلام آية ومعجزة على ابتداء حمل زوجه، وكان مع ذلك قادرًا على أن يحرك جسده وأعضاءه بل كان يحرك لسانه بذكر الله تعالى فحسب كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ [آل عمران:٤١]، فكان مع عدم قدرته على مخاطبة الناس، والحديث معهم بلسانه قادرًا على عبادته وتسبيحه سبحانه حركة وكلامًا.

كما أن التعبير بالرمز أشمل وأعم من الإشارة والإيماء والمقام يقتضي التعميم وعدم التحديد؛ لأن المقصود أنه سيحدث قومه في تلك المدة بكافة الطرق والوسائل التي يقدر على الإبانة بها سوى الكلام ولا يدل على ذلك إلا الرمز لاتساع دلالته كما مر.

واللفظان اللذان يقاربان الفريدة في معناها لا يدلان بأصل وضعهما على الحركة، ولا يحملان ما في الفريدة من معاني جمة ومن نكات ولطائف مهمة.

فمن ثم كانت الفريدة أدل على المطلوب، وأدق في إيصال المعنى المراد، ولا يمكن لغيرها أن يغني غناءها، أو يسد مسدها، والله أعلم.

- تومئ الفريدة إلى أن امتناع زكريا عليه السلام عن الكلام كان بسبب مانع خارجي لا دخل للإنسان فيه، فزكريا عليه السلام كان قادرًا على الحركة والكلام، وكان منعه من قبيل الإعجاز بخلاف الإشارة الواردة على لسان مريم عليها السلام في قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾ [مريم:٢٩] فامتناع مريم عن الكلام لم يكن عن مانع خارجي بل كانت قادرة على التعبير عن مكنون نفسها ولكنها تعلم أن قومها لن يصدقوها إن تكلمت.

ولذلك علمها ربها أن تقول في مواجهتهم ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦]، فبين اللفظين فرق من هذه الجهة.

وكل لفظة هي أوفق بسياقها، وأجدر بأن تحل في محلها دون غيرها، وهذا من إعجاز الذكر الحكيم، وبلاغاته اللامتناهية.

- عكست هذه الفريدة تفرد هذه الحالة بنصها في القرآن، كما عكست تفرد تلك الحالة العجيبة الغريبة في تاريخ الأنبياء والإنسانية جمعاء، فلم يحك القرآن أن أحدًا آخر من البشر حدث له ما حدث لزكريا عليه السلام وإلى هذا أشار الشيخ سيد قطب بقوله: «فإذا زكريا يجد في نفسه غير المألوف في حياته وحياة غيره، لسانه هـذا هو لسانه، ولكنه يحتبس من كلام الناس، وينطلق لمناجاة ربه أي قانون يحكم هذه الظاهرة؟ إنه قانون الطلاقة الكاملة للمشيئة العلوية، فبدونه لا يمكن تفسير هذه الغريبة»[(١)].

❁ ❁ ❁

(١) في ظلال القرآن ١/ ٣٩٥.

المبحث العاشر

أسرار التعبير بالفرائد القرآنية في قصة عيسى ومَريَم عليهما السلام

جاء الحديث عن عيسى ومريم عليهما السلام في القرآن في أكثر من سورة مكية ومدنية، وباستقراء تلك المواضع المختلفة وجدتها قد اشتملت على فريدتين اثنتين الأولى: ﴿ٱلْمَخَاضُ﴾، وهي خاصة بالعذراء البتول مريم عليها السلام، والثانية: ﴿تَدَّخِرُونَ﴾، وهي خاصة بعيسى عليه السلام.

وقد وردت الأولى في قوله تعالى: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ [مريم:٢٣].

والمخاض هو وجع الولادة، ففي المعجم الوسيط يقول: «المخاض وجع الولادة وهو الطلق، وفي التنزيل العزيز: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾»(١).

وهو المعنى نفسه الذي أوردته كتب التفسير، يقول الشيخ صديق خان:

(١) المعجم الوسيط ٢/ ٨٩١، ومختار الصحاح ٢٥٨، والمصباح المنير ٢١٦ .

«المخاض، أي: وجع الولادة، وهو مصدر مخضت المرأة تمخض مخضًا ومخاضًا إذا دنا ولادها»[1].

وفي التعبير بهذه الفريدة إيماءات عديدة منها:

- الإيجاز فكلمة واحدة أوجز من كلمتين، وإذا كانت الكلمة الواحدة تؤدي الغرض بدقة، وهي أوفى بالمراد فهي أولى في التعبير من غيرها؛ لأن البلاغة العالية تكمن في الإيجاز في القول إذا اقتضاه مقام الكلام، والقرآن هو سنام البلاغة، وقمتها الشامخة.

- تشير الفريدة إلى اختصاص مريم عليها السلام من بين نساء العالمين بهذا الأمر العجيب المعجز، فإن منشأ الخلائق كما هو معلوم على أصناف أربع:

١- من دون أب ولا أم وهو آدم عليه السلام.

٢- من أب وأم وهم جميع الخلائق.

٣- من أب دون أم وهي حواء.

٤- من أم دون أب وهو عيسى عليه السلام الذي ولدته مريم عليها السلام بدون الأسباب المعتادة التي تعارف عليها البشر فانفردت دون نساء الأرض بمعجزة إلهية عظيمة حطمت ناموس الكون في الولادة بدون أب، وهو شيء فريد عجيب كما كانت ولادة آدم من غير أب ولا أم، وولادة حواء من غير أم شيئًا عجيبًا فريدًا في دنيا الناس، ولكنه عند ربك هين سهل ميسور.

(١) فتح البيان ٦/١٧، وتفسير الكشاف ٢/٥٠٦، والقرطبي ١١/٩٢، وتفسير الألوسي ١٠/٧٢٦.

فكيف تغيب هذه البدهية عن العقلاء من النصارى الذين جعلوا من ولادة عيسى على هذا النحو حجة على كونه ابنا لله ؟ حاشا وكلا.

وفي قصص كثير من الأنبياء أمور كثيرة أعجب وأكثر غرابة من ذلك أومأت إليها الفرائد السابقة واللاحقة.

فكيف غاب هـذا كله عن عقلاء هؤلاء القوم؟ أم أنه التقليد الأعمى للآباء كما قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢].

- هذه اللفظة بحكم كونها الفريدة الوحيدة مادة وصيغة في قصة مريم عليها السلام أرى -والله أعلم- أنها كما أومأت إلى الأمور السابقة كلها تشير أيضًا إلى كل الأمور العجيبة الفريدة التي ذُكرت عن مريم في القرآن مثل: رزقها فاكهة الصيف في وقت الشتاء، وفاكهة الشتاء في وقت الصيف، فالفـريدة تلخص أطوار حياتها العجيبة الغريبة.

وليس هذا افتئاتا على اللفظة، وتحميلها أكثـر من معناها؛ لأن طبيعة التعبير بالفرائد -كما رأينا- في هذه الدراسة تشير دوما إلى أشياء فذة عجيبة وقعت على غير العادة، والله أعلم.

- تدل الفريدة على تفرد هذا الموضع بنصه وفصه في القرآن الكريم فلم يتكرر ألبتة بأي صورة من الصور.

كما أن في الفريدة إشارة واضحة إلى أنه عندما اشتد طلقها، وتحرك الجنين نازلًا من بطنها كانت بمفردها في مكان قصي تحت جذع نخلة تنادي ربها، وتناجيه أن يخفف عنها وقع ما هي فيه.

وهذا أيضًا أمر غير مألوف في ولادة النساء في كل عصر ومصر، وبهذا تتناسق الفريدة مع سياق القصة أيما اتساق، والله أعلم.

* * *

الفريدة الثانية: ﴿تَدَّخِرُونَ﴾، وقد جاءت في قوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:٤٩].

وقد جاءت الفريدة في سياق بشارة الملائكة لمريم أن الله سيرزقها بكلمة منه اسمه المسيح ثم أخذ في تعداد صفاته وأحواله عند كبره كما تدل عليه تلك الآية والآيات السابقة واللاحقة، وفي معنى الفريدة يقول السمين الحلبي: «قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدَّخِرُونَ﴾ أي: تخبئون، يقال: دخرت الشيء، أي: خبأته... ويقال: دخرته وادَّخرته: أعددته للعقبى، وفي صفته ﷺ كان لا يدخر شيئا لغد»(١).

ولم يخالف المفسرون اللغويين في معنى هذه الفريدة يقول الشيخ صديق خان: «﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ أي: بما أكلتم البارحة من طعام وما خبأتم منه»(٢).

---

(١) عمدة الحفاظ ٢/ ٣٧، ومفردات الراغب ١٨٠، ولسان العرب (ذخر)، والمعجم الوسيط ١/ ٣٢١.

(٢) فتح البيان ٢/ ٦١، وتفسير الألوسي ٣/ ١٣٧، ومفاتيح الغيب ٧/ ٢٢٦.

وإذا كان الأمر كذلك فعدوله إلى تلك الفريدة دون (تخبئون) مثلا لما فيها من نكاتٍ عديدة منها:

- أنها تعكس بإيقاع أصواتِها، وجرس حروفِها من الشَّدة الموجودة على الدال المجهورة المنقلبة عن تاء الافتعال، ثم الخاء الحلقية المكسورة وما فيها من استعلاء وتفخيم، ثم الراء المجهورة وما فيها من تكرار كل ذلك يعكس بوضوح تمسكهم وحرصَهم على الادخار حتى صار عمودَ حياتِهم، ومحور دنياهم.

وهل هناك أعظمُ مِن حرصِهم وشُحِّهم في قولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران:١٨١] تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، وقد دفعهم هذا الادخار إلى أنهم استحلوا الربا، وسيطروا به على الفقراء قديمًا وحديثًا.

واللفظة التي تقارب هـذه الفريدة لا تنهض حروفها لأداء هذه المعاني، والله أعلم.

- الفريدةُ تُصوِّرُ تصويرًا دقيقًا حرصَ بني إسرائيلَ وشراهتَهم وجشعَهم؛ حيث يجمعون ويخبئون في بيوتهم كلّ ما يمكن أن يُدخَرَ من مال ومتاع وغيرِهما يؤكد هذا حذفُ مفعول الادخار لإفادة العموم.

فاللفظةُ - بما لها في الفطرة اللغوية من صدى - تصورُ النحيزةَ الذميمة، والضريبةَ القبيحة المستكنة في نفوسهم المغروسة في طباعهم المستمرة في أجيالهم؛ بدليل استعمال المضارع ﴿تَدَّخِرُونَ﴾ وما في دَلالته من التجدد والاستمرار؛ وبدليل التعبير بالإنباء دون الإخبار؛ لأن الإنباءَ يعني: الإخبار بالأمور المهمة الخفية التي لا يطلع عليها أحدٌ.

وهكذا تناسبت الفريدةُ مع سياقها، وجاءت في موضعها يتيمةً وحدها.

- الادخار في حد ذاته خُلُقٌ غيرُ ذميمٍ وقد أوصى به النبي ﷺ ليكون عدةً وذخيرةً لما يُستقبَلُ مِن الزمان، ولكنَّ هذا الأمرَ لدى بني إسرائيل قد اتخذ منعطفًا خطيرًا في حياتهم، وعبْرَ تاريخهم الطويل حتى أصبح ظاهرةً فريدةً وغريبة تشكلُ قسماتِ شخصياتِهم، ونهجَ حياتِهم؛ بدليل أن عيسى ﵇ جمع بني إسرائيل كلَّهم في هذه الفريدة كما تدل عليه واوُ الجماعة في ﴿تَدَّخِرُونَ﴾ العائدةُ عليهم، ولم يخص أحدًا منهم فكان هذا الادخارُ - جشعًا وطمعًا وحبًا في الكنز والجمع -من الصفات الملاصقة لهم التي تفردوا وعُرِفوا بها في العالمين- يؤكد ذلك من سياق الآية أن المعجزات الأخرى الواردة مع الفريدة في الآية نفسها قد تكررت بعينها في سورة المائدة دون هذه الفريدة فحسب في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠].

فدلت هذه الفريدةُ على تفرد هذا المسلك الذميم في بني إسرائيل وعلى تفرد موطنها في الذكر الحكيم، وعلي تفرد عيسى ﵇ بتلك المعجزة الباهرة من بين الأنبياء، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

المبحث الحادي عشر

أسرار التعبير بالفرائد في الحديث عن المصطفي ﷺ

وقد ورد في حقه ﷺ أربع عشرةَ فريدةً هي (نبتهل - فَظًّا - دُلُوك - فتَهَجَّدْ - لا تَخُطُّهُ - قابَ - قَوْسَيْنِ - الْوَتِينِ - الْمُزَّمِّلُ - الْمُدَّثِّرُ - لا تُحَرِّكْ - بِضَنِينٍ - انْحَرْ - الأَبْتَرُ).

وجميع هذه الفرائـد تتصل به ﷺ اتصالًا وثيقـًا إما وصفـًا له، أو حديثًا مباشرًا عنه والعجيب أن هذا العدد من الفرائد لم يرد في حق نبي آخر من الأنبياء صلوات الله عليهم جميعًا، بل كانت الفرائد التي تتصل بالرسل السابقين مباشرة أقل من ذلك بكثير كما اتضح فيما مضى، وهذه مَيْزةٌ تميَّزَ بها ﷺ.

وقد اقتصرنا هنا على الفرائد التي وردت في حقه وشخصه ﷺ ولن نعرض للفرائد الواردة في حق أصحابه؛ حيث ستدرس في الجزء الثاني من هذه الدراسة إن شاء الله تعالى.

هذا ويلحظ في تلك الفرائد أنها كلها وردت في سور مكية ما عدا ثنتين وردتا في سورة آل عمران المدنية.

وسوف نعرض لهذه الفرائد تباعا على حسب ترتيب ورودها في المصحف الشريف، فنقول وبالله التوفيق:

الفريدة الأولى: ﴿نَبْتَهِلْ﴾ وجاءت في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [آل عمران:٦١].

وقد ذكر السمين الحلبي معنى هذه الفريدة فقال: «البهلة اللعن، يقال: بهله الله، وعليه بهلة، وبهلتُه أي لعنته، ومنه المباهلة، وهي الاجتهاد في الدعاء يقال: بهل الله الكاذب منا، وابتهل في الدعاء أي: اجتهد فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾، أي: نفعل المباهلة... والبهل أيضًا والابتهال في الدعاء الاسترسال فيه والتضرع، ومنه قول الشاعر: نظر الدهر إليهم فابتهل.

أي: استرسل إليهم فأفناهم، ومن فسر الابتهال من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ باللعن فلا شك أن الإرسال في هذا المكان لأجل اللعن»[١].

ولم يبعد المفسرون في دلالة هذه الفريدة عن اللغويين.

يقول الشيخ صديق خان: «﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ نتضرع إلى الله، وأصل الابتهال

(١) عمدة الحفاظ ١/ ٢٧١، ومفردات الراغب ٦١، ولسان العرب (بهل)، والمعجم الوسيط١/ ٧٦.

الاجتهاد في الدعاء باللعن وغيـره، يقال بهله الله أي: لعنه، والبهل اللعن، قال أبو عبيد والكسائي: نبتهل نلتعن، ويطلق على الاجتهاد في الهلاك، قال في الكشاف: ثم استعمل في كل دعاء يجتهد فيه، وإن لم يكن التعانًا»[1].

وهنا يتبادر سؤال لم آثر التعبير بتلك الفريدة دون ما يقاربها مثل نلتعن ونتضرع؟

لا بد أن يكون وراء هذه التغاير أسرار منها:

- أن في تلك الفريدة زيادة في المعنى لا توجد في (نتضرع ونلتعن)، وهي أن الابتهال يحمـل في حناياه هذين المعنيين، يدل على ذلك أن أصل الابتهال -كما مر لدى اللغويين والمفسرين- هو الاجتهاد في الدعاء باللعن، والاسترسال والتضرع فيه.

أما التضرع فهو دعاء بمذلة وانكسار للواحد القهار، ولا يفهم منه اللعن مطلقًا.

أما نلتعـن ففيهـا معنى الطـرد والإبعاد، وليس فيـها معنى الاجتهاد في الدعاء وهو المفهوم من سياق الكلام، ناهيك عن أن نلتعن لو عُبر بها فليس فيها مراعاة لمقام النبي ﷺ حيث سيُذكر اللعن على لسانه مباشرة، والقرآن يتسامى بألفاظه أن يكون لها إيحاءات غير مناسبة في آذان السامعين والمخاطبين.

فثبت أن الفريدة أدق معنى، وأوفى بالمراد من غيرها، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يسد غيرها مسدها كما رأينا.

هذا وقد وجه الفخر الرازي -في تفسيـره- الدلالات التي تحتملها الفريدة

---

(١) فتح البيان ٢/ ٧٤، وتفسير القرطبي ٤/ ١٠٤، وتفسير الجمل ١/ ٢٨٣، وفتح القدير ١/ ٣٤٧.

فراجعها هناك[1]؛ لأنه ليس من غرضنا هنا التركيز على الجانب اللغوي إنما هدفنا إبراز الأسرار الكامنة وراء اصطفاء التعبير بتلك الفرائد، والله أعلم.

- تعكس تلك الفريـدة - دون غيرها - العدالة المطلقة؛ لأن المباهلة لا تكون إلا بعد إقامة الحجة، ورفع الشبهة، وإثبات الوحدانية وعندها «فالإله الذي يستطيع أن ينزل اللعنة هو الإله الحق، وهو سينزل اللعنة على من يشركون به، ولو كانت اللعنة تنزل من الآلهة المتعددة فسوف تنزل اللعنة على أتباع الإله الواحد، ولهذا كانت الدعوة إلى المباهلة، والبهلة وهي ضراعة إلى القوة القاهرة التي تتصرف في الأمر لتنهي الخلاف»[2].

- هذه الفريدة تتسق مع سياق سورة آل عمران المدنية اتساقًا واضحًا فإن سورة آل عمران تحدثت عن وفد نصارى نجران وما كان من أمر محاجته للرسول ﷺ ورفضه الابتهال خوفًا من عواقبه.

ولم يذهب أحد من النصارى إلى مكة إبان البعثة على وجه مناهضة الدعوة بل كان المصطفى ﷺ وهو بمكة يوجه خطابه لمشركي قريش، ومشركي العرب من حوله، ومن ثم لا نجد لنصارى العرب أيَّ ذكر في هذه السور المكية، وجاء ذكرهم في السور المدنية لاحتكاك المؤمنين بهم في المدينة، ولقدوم وفد نصارى نجران على الرسول ﷺ وهو في المدينة.

فاتسقت الفريدة مع سياق السورة المدنية أيما اتساق، والله أعلم.

---

(١) مفاتيح الغيب ٧/ ٢٥٩، والكشاف ١/ ٤٣٤ .

(٢) تفسير الشعراوي ٣/ ١٥٢٩ .

- تومئ الفريدة إلى تفرد هذا الموضع في الذكر الحكيم، كما تومئ إلى تفرد تلك الحالة في تاريخ الأنبياء فلم يحدث أن باهل نبي من الأنبياء السابقين أحدًا من مشركي الأمم السابقة.

وفي هذا دلالة ساطعة على أن رسالة الإسلام هي الرسالة الخاتمة، وأنها رسالة حق وصدق لا امتراء فيها؛ بدليل أن المباهلة تختص به ﷺ، ولكنه ثقة بربه ويقينًا بصحة دعوته ضم إلى المباهلة أهله وأعزته، وفيه كما يقول العلامة الجمل: «أكبر دليل على صحة نبوته؛ لأنه لم يرو أحد مسلم، و لا نصراني أنهم أجابوا إلى المباهلة لأنهم عرفوا صحة نبوته، وأن دعاءه مجاب لا بد»[1].

ولما كان هذا أمرًا تفرد به النبي عليه السلام عبر بلفظ وحيد فريد إيماء إلى ذلك، علاوة على أن هذه المباهلة قامت مقام المعجزة الكائنة بالفعل، والله أعلم.

* * *

الفريدة الثانية: ﴿فَظًّا﴾، وجاءت في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

والآية الوارد فيها الفريدة تتحدث بالثناء على أخلاق المصطفى ﷺ «وتنفي عنه سوء الخلق، وغلظة الطبع، وجفاء المعاملة، وقسوة القلب؛ لأنه لو كان كذلك -حاشاه- لانفضوا عنه، ولكنهم لرقته ورحمته بأمته التفوا حوله وعاملهم معاملة

---

(١) الفتوحات الإلهية للجمل ١/ ٢٨٢ .

إنسانية كريمة»[1].

والفظ كما يـذكر السمين هو: «القاسي القلـب الغليظ الجانب السيء الخلق، قال الأزهري أصل الفظ: ماء الكرش يعتصر فيشرب عند إعواز الماء، وشِدَّةِ الضرورة، وسمي فظا لغلظ شربه»[2].

ويقول العلامة الجمل عن معنى الفريدة: «الفظاظة الجفوة في المعاشرة قولًا وفعلًا، والغلظة التكبر، ثم تجوز به عن عدم الشفقة، وكثرة القسوة في القلب... وعن الغلظة تنشأ الفظاظة فلم قُدمت؟ قيل: قدم ما هو ظاهر للحس على ما هو خاف في القلب؛ لأنه كما تقدم أن الفظاظة الجفـوة في العشرة قولًا وفعلًا، والغلظـة قساوة في القلب، وهذا أحسن من جعلهما بمعنى واحد، وجُمع بينهما تأكيدًا»[3].

واجتباء التعبير بهذه الفريدة لما فيها من معان عديدة منها:

- أن من يتأمل حروفها مليـًّا يجدها تحكي بوقع أصواتها، وجرس حروفها معنى الفظاظة والجلافة المنتفية عنه ﷺ، تأمل صوت الظاء المجهورة المفخمـة المستعلية الواقعـة بعد الفاء المهمـوسة الرخوة وكأنها تصور حالة الرجل الفظ الذي يكون هادئًا صامتًا ثم يأتي بغتة بأفعال وأقوال غير لائقة.

فحروف هذه الفريدة عكست هـذا المعنى بدقة متناهية فاقت الوصف كما نحسه ونلمسه.

---

(١) تفسير الصابوني ١/ ٢٢٣ .

(٢) عمدة الحفاظ ٣/ ٢٨٦، ولسان العرب (فظظ)، والقاموس المحيط ١/ ٩٠٠ .

(٣) الفتوحات الإلهية للجمل ١/ ٣٢٩ ـ٣٢٠، ومفاتيح الغيب ٨/ ٥٢٨ .

- هـذه الفريدة أخصر مما فُسرت به - كما هو واضح لمن يتأمل معناها لدى اللغويين والمفسرين - والقرآن كما أكدنا مرارًا ينحو نحو الإيجاز إذا اقتضاه سياق الكلام، وهذا يجعلها من الدقة والفصاحة بمكان سامق.

ناهيك عن أن هذه الفريدة هي واسطة العقد في هذا السياق. فجاءت منسجمة مع سياقها أشد انسجام.

- الإشارة إلى تفرد النبي ﷺ بالخلق الرفيع، والمقام الأسنى البديع بين الخلائق أجمعين مصداقًا لقوله عز اسمه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]، ومن دلائل ذلك أن هذه الفريدة وردت في مقامٍ لو عامل فيه الرسول ﷺ أصحابه - من الرماة الذين خالفوا أمره في غزوة أحد مما ترتب عليه ما ترتب - لو عاملهم بالقسوة والغلظة والشدة لما لامه ربه، ولكان هذا جزاء عادلًا لهم؛ لأنهم تسببوا فيما حدث في غزوة أحد، ولكنه ﷺ ارتقى بخلقه الكـريم عن معاقبتهم، وعاملهم بالرفق واللين والرحمة؛ لأنهم خالفوا لاعن قصد المخالفة، ولكن عن تأويل ورؤية ارتأوها، والله أعلم.

فكان هذا الموقف من المواقف الفريدة التي دلت على سمو خلقه ورقة طبعه مما تعجز العبارة عن وصفه، ومثل هذا كثير جدا مما كان سببًا في دخول العديد من الناس في دين الله أفواجًا.

- هذه الفريدة تؤكد على ما ذهبنا إليه من عدم وجود الترادف بمعنى التطابق الكامل في القرآن الكريم؛ لأنها أُعقبت بقوله تعالى: ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾، وهناك فرق بيِّن بين غلظ القلب والفظاظة.

فالفظاظة خشونة في اللفظ، وشراسة في الخُلُق، وبشاعة في الطبع تنجم من المعاشرة والمخالطة وهي مستعارة «من الفظ وهو ماء الكرش، وذلك مكروه شربه لا يتناول إلا في أشد ضرورة»[(١)]. ولا يحس المرء ببشاعته إلا بعد تذوقه ومخالطته للفم.

أما غلظة القلب فهي صفة خفية لازمة في النفس تجعل صاحبها عديم الشفقة قاسيًا لا يرق لأحد من الناس، ولا يألم لألمهم، ولا يقدر مشاعرهم، فعواطفه ليست جياشه بل جاسية غليظة، فبان أن القرآن يضع كل لفظة في موقعها الأنسب لها، ولو أدرت كلام العرب كله لكي تضع لفظة مكانها لأعياك ذلك.

❊ ❊ ❊

الفريدة الثالثة والرابعة: (دلوك - فتهجد)، ووردتا في قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ٧٨ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء:٧٨-٧٩].

والفريدة الأولى لا تتصل اتصالًا مباشرًا بالمصطفى ﷺ لأنها من فرائد الظواهر الكونية التي سنعرض لها في الجزء الثاني من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى، وإنما عرضنا لها هنا؛ لأن الخطاب في الآية موجه لرسولنا الكريم عليه أفضل الصلوات والتسليم؛ ولأنها مرتبطة بالفريدة التي معها أشد ارتباط.

وقد اختلف اللغويون في المراد من الفريدة ﴿دُلُوكِ﴾:

ففي المصباح المنير يقول: «دلكت الشمس والنجوم دلوكًا من باب قعد زالت

(١) مفردات الراغب ٣٥٦.

عن الاستواء، ويستعمل في الغروب أيضًا»[1].

ويقول السمين الحلبي: «الدلوك الزوال وهو ميلها عن الاستواء إلى الغروب»[2].

وقد توسع المفسرون في معنى هذه الفريدة، وأوردوا جميع الآراء فيها يقول الشيخ صديق خان: «اختلف العلماء في الدلوك على قولين: أحدهما: أنه زوال الشمس عن كبد السماء قاله عمر وابنه... واختاره ابن جرير، والقول الثاني: أنه غروب الشمس قاله علي وابن مسعود.... والحاصل أن اللفظ يجمعهما؛ لأن أصل الدلوك الميل والشمس تميل إذا زالت وإذا غربت، والحمل على الزوال أقوى القولين لكثرة القائلين به»[3].

ويقول الألوسي مؤيدا الرأي الأول: «وقد يستأنس في ترجيح القول الأول مع ما سبق بأن أول صلاة صلاها النبي ﷺ نهار ليلة الإسراء الظهر»[4].

ويرى ابن عاشور أن كلمة ﴿دُلُوكِ﴾ تعم الظهر والعصر والمغرب يقول: «الدلوك من أحوال الشمس، فورد بمعنى زوال الشمس عن وسط قوس السماء في طريق مسيرها اليومي، وورد بمعنى ميل الشمس عن مقدار ثلاثة أرباع القوس وهو وقت العصر، وورد بمعنى غروبها، فصار لفظ الدلوك مشتركا في المعاني الثلاثة.

---

(١) المصباح المنير ٧٦، ومختار الصحاح ٨٧ .

(٢) عمدة الحفاظ ٢/ ١٥ ـ ١٦، ومفردات الراغب ١٧٣ .

(٣) فتح البيان ٥/ ٣٩٠ .

(٤) تفسير الألوسي ١٠/ ٩٧، وتفسير الشعراوي ١٤/ ٨٦٩٧ .

والغسق الظلمة وذلك وقت العشاء ويسمى العتمة أي الظلمة. وقد جمعت الآية أوقاتا أربعة فالدلـوك يجمع ثلاثة أوقات باستعمال المشترك في معانيه والقرينة واضحة... فكلمة دلوك لا تعادلها كلمة أخرى»[١].

وقد سبق القرطبي ابن عاشور بهذا الرأي متابعًا فيه ابن عطية فقال: «قال ابن عطية الدلوك: هو الميل - في اللغة - فأول الدلوك هو الزوال وآخره هو الغروب، ومن وقت الزوال إلى الغروب يسمى دلوكًا؛ لأنها في حالة ميل، فذَكَرَ الله تعالى الصلوات التي تكون في حالة الدلوك، وعنده فيدخل في ذلك الظهر والعصر والمغرب»[٢].

وهذا ما أميل إليه لما في أدلته من قوة.

وعليه فإن في انتخاب هذه الفريـدة خصائص فنيـة، وأسرارًا تعبيرية جمة منها:

- أن هذه الفريدة أوجز وأخصر مما لو قال: أقم الصلاة عندما تميل الشمس للزوال عند من يرى أنها الظهر، أو أقم الصلاة عندما تدلك الشمس في وسط السماء على رأى من يقول إنها صلاة العصر، أو أقم الصلاة عندما تميل الشمس للغروب على رأي من يذهب أنها صلاة المغرب، أو أقم الصلاة عند زوال الشمس وقت الظهـر والعصـر والمغرب، فعلى أي رأي من هذه الآراء الفريدة أوجز وأخصر.

وإن كنت أذهب إلى ما ذهب إليه ابن عطية والقرطبـي وابن عاشور في أن هـذه الفريدة من المشتـرك اللفظي، وهي تدل على الأوقات الثلاثة جملة.

وهذا من استعمال المشترك اللفظـي فـي جميع معانـيه لقيام القرينة الدالة عليه،

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ١٨٢ .

(٢) تفسير القرطبي ١٠/ ٣٠٤ .

والتي تتمثل في أن العشاء مدلول عليها بلفظ الغسق وهو العتمة والظلمة، والفجر مشار إليه بقوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.

فبقي أن الفريدة تدل على هذه الأوقات الثلاثة، وهذا من أسرار اختيارها هنا، ولا يمكن لغيرها أن يحل محلها كما ترى بجلاء، والله أعلم.

- تدل هذه الفريدة -والله أعلم- على تفرد أمة محمد ﷺ بإقامة الصلوات عند دلوك الشمس مذ فرضت حتى يوم القيامة لا يشترك معهم في ذلك الوقت أمة من الأمم الغابرة والباقية، فالصلاة في هذه الأوقات تفرد بها المسلمون عن سائر الخلق أجمعين، أقول هذا؛ لأن القرآن الذي بين أيدينا لم يتحدث عن أوقات صلوات الأمم الأخرى وتحدث في هذه الآية عن أوقات صلوات المسلمين؛ حيث ذكر صلاة الظهر والعصر والمغرب على أرجح الآراء في قوله: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾، وصلاة العشاء في قوله: ﴿غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾، وصلاة الفجر في قوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ وقد اختصت صلاة الظهر والعصر والمغرب بلفظة فريدة وحيدة.

فيفهم من ذلك -والله أعلم- أن هذه الصلوات في تلك الأوقات الثلاثة قد تفرد بها المسلمون عن سائر الأمم الأخرى التي فُرضت عليها صلواتٌ، والله أعلم.

وعن الفريدة الثانية يقول السمين الحلبي: «قوله تعالى: ﴿فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾، أي: اترك الهجود وهو النوم، فتفعل فيه للسلب نحو: تحنث وتأثم أي جانب الحنث والإثم، فحقيقة التهجد السهر، وإلقاء النوم ولكن المراد بالآية أخص من ذلك وهو التنفل بالصلاة، وقوله: ﴿بِهِۦ﴾ أي: القرآن في الصلاة، ومن ثم غلب التهجد على

التنفل بالصلاة ليلًا، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [المزمل:٢]»[(١)].

وفي مختار الصحاح يقول: «تهجد: نام ليلًا، وهجد وتهجد سهر وهو من الأضداد ومنه قيل لصلاة الليل التهجد»[(٢)].

وقد عرض المفسرون لمعنى الفريدة فلم يخرجوا عما سبق يقول الشيخ صديق خان: «التهجد مأخوذ من الهجود، وقال أبو عبيدة وابن الأعرابي: هو من الأضداد؛ لأنه يقال: هجد الرجل إذا نام وهجد: إذا سهر، وقال الأزهري: الهجود في الأصل: هو النوم بالليل، ولكن التفعل فيه لأجل التجنب، ومنه تأثم وتحرج أي: تجنب الإثم والحرج، فالمتهجد من تجنب الهجود فنام بالليل»[(٣)].

هذا وقد آثر النظم الكريم التعبير بتلك الفريدة لأسرار عديدة منها:

- التأكيد على أن نبينا الكريم كان لا يلبث أن ينام حتى يستيقظ لصلاة الليل؛ لأن التهجد - كما يذهب المفسرون - لا يسمى تهجدا إلا إذا سبقه نوم فلو لم ينم الإنسان وصلى لا يقال تهجد، وأي لفظة أخرى لا يفاد منها هذا المعنى.

ومن ثم كان التهجد أمرًا شاقًّا لا ينهض به إلا أولو العزم؛ «لأنه في الوقت الذي ينام فيه الناس، ويخلدون إلى الراحة، وتتثاقل رؤوسهم عن العبادة يقوم الرسول ﷺ بين يدي ربه مناجيًا متضرعًا فتتنزل عليه منه الرحمات والفيوضات، فمن قام من الناس في هذا الوقت، واقتدى به ﷺ فله نصيب من هذه الرحمات،

---

(١) عمدة الحفاظ ٤/ ٢٧٨، ومفردات الراغب ٥٣٤ .

(٢) مختار الصحاح ٢٨٨، والمصباح المنير ٢٤٢ .

(٣) فتح البيان ٥/ ٣٩٣، ومفاتيح الغيب ١٩/ ١٦٥، وتفسير القرطبي ١٠/ ٣٠٧ .

وحظ من تلك الفيوضات، ومن تثاقلت رأسه عن القيام فلا حظ له»[1].

ومن ثم جاءت الفريدة على صيغة التفعل للإشارة إلى أنه ﷺ كان يلقي النوم عن نفسه إلقاء ويتجنبه تجنبًا، وأنه كان شديد الحرص على قيام الليل والتمسك به مما لا يضارعه في ذلك أحد ألبتة، والله أعلم.

- تلمح تلك الفريدة إلى أن صلاة التهجد كانت خصوصية لرسول الله ﷺ اختصه الله ﷻ بها زيادة على ما فرضه سبحانه عليه وعلى أمته من الصلوات الخمس، وهي واجبة في حقه ﷺ؛ «لأن في قيام الليل قوة إيمانية وطاقة روحية، ولما كانت مهمة الرسول فوق مهمة الخلق كان حظه من قيام الليل أزيد من حظهم، فأعباء الرسول ﷺ كثيرة، والعبء الثقيل يحتاج الاتصال بالحق الأحد القيوم حتى يستعين بلقاء ربه على قضاء مصالحه... وقوله تعالى: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ النافلة هي الزيادة عما فرض على الجميع ﴿لَّكَ﴾ أي: خاصة بك دون غيرك»[2].

- في تلك الفريدة أيضًا -والله أعلم- إما إشارة إلى اختصاص نبينا الكريم بإقامة صلاة التهجد من بين الأنبياء جميعا فلم يصلها أحد منهم ألبتة؛ بدليل أنه لم يرد في الذكر الحكيم -صراحة- أن الله ﷻ أمر نبيا آخر من الأنبياء بقيام الليل كما أمر به المصطفى ﷺ في أكثر من آية في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل١: ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق:٤٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء:٧٩]، وإما أنهم كانوا يصلونها، ولكنها لم تكن

---

(١) تفسير الشعراوي ١٤/ ٨٧٠١ بتصرف يسير.

(٢) السابق ١٤/ ٨٧٠٢.

مفروضة عليهم كما فرضت على رسولنا العظيم صلوات الله عليهم أجمعين، وفي كلتا الحالتين فتلك ميزة تميز بها رسولنا العظيم، والله أعلم.

* * *

الفريدة الخامسة: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ﴾، ووردت في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨].

ومعنى الآية: «أي وما كنت يا محمد تعرف القراءة ولا الكتابة قبل نزول القرآن لأنك أمي، قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ أميا لا يقرأ شيئًا ولا يكتب... والآية احتجاج على أن القرآن من عند الله لأن النبي أمي، وجاءهم بهذا الكتاب المعجز المتضمن لأخبار الأمم السابقة، والأمور الغيبية، وذلك أكبر برهان على صدقه ﷺ»[(١)].

وقد عرض السمين الحلبي للفريدة فقال: «قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ أي: لا تكتبه، والخط الكتب؛ لأنه ذو خطوط. والخط المد، والخط كل ماله طول، وكل أرض طويلة فهي خط نحو: خط اليم، وإليه تنسب الرماح فيقال رماح خطية ورمح خطي»[(٢)].

ومن المفسرين يقول الشيخ صديق خان: «﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ أي: ولا تكتبه؛ لأنك لا تقدر على الكتابة، وخص اليمين لأن الكتابة غالبًا تكون باليمين أي:

(١) تفسير الصابوني ٢/ ١٠٤٩.

(٢) عمدة الحفاظ ١/ ٥٩١، ومفردات الراغب ١٥١، والمصباح المنير ٦٦، ومختار الصحاح ٧٦، والمعجم الوسيط ١/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣.

ولا كنت كاتبًا»[1].

وإذا كان الخط بمعنى الكتابة فلم تركها وهي مذكورة في القرآن على صيغ متعددة وآثر تلك الفريدة؟

أرى والله أعلم أن وراء هذا الاختيار أسرارًا منها:

- أن تلك الفريدة دون غيرها تنفي عنه ﷺ معرفة الكتابة بأبلغ طريق وأخصره؛ لأن نفي الخط يستلزم نفي الكتابة بكل صورة من الصور، ونفي الكتابة لا يستلزم نفي الخط؛ لأن من ضروريات الكتابة معرفة كيف تخط الحروف، وتضع بعضها بجوار بعض.

وفيها أيضًا دلالة على أنه عليه السلام كان لا يميز بين الخط العربي وغير العربي، فمجرد الخط أي خط لم يك يعرفه، وهذا أدعى لنفي الكتابة عنه بالأولى.

فإيثار هذه الفريدة لأنها أقوى وأدق في نفي معرفته ﷺ بالكتابة وفيها إعجاز بارع، ودقة فائقة كما ترى.

- قد تشير الفريدة -والله أعلم- إلى تفرد المصطفى ﷺ بهذا الأمر في تاريخ الأنبياء، وهذا من دلائل صدقه ونبوته؛ لأن الله عز وجل علم في علمه الأزلي أن أول شبهة يأخذها عليه الكفار، ويتعلقون بها أنه تلقى ما يقوله مما قرأه، وتعلمه من الأمم الأخرى التي لها كتب سماوية، وقد قالوا هذا بالرغم من كونه أميا لم يقرأ ولم يكتب، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً

(١) فتح البيان ٧/ ٢١٨، والقرطبي ١٣/ ٣٥٣، وتفسير الألوسي ١٤/ ١٨٧ .

﴿وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان:٥] فبمَ يدعون ويتبجحون إذا كان قارئا كاتبا بالفعل؟ «وحتى على فرض أن رسول الله ﷺ كان قارئًا كاتبًا ما جاز لهم أن يرتابوا؛ فهذا القرآن يشهد بذاته على أنه ليس من صنع البشر، فهو أكبر جدا من طاقة البشر، ومعرفة البشر وآفاق البشر، والحق الذي فيه ذو طبيعة مطلقة كالحق الذي في هذا الكون، وكل وقفة أمام نصوصه توحي للقلب بأن وراءه قوة، وبأن في عباراته سلطانًا لا يصدران عن بشر»(١).

وبالرغم من هذه الحقيقة الجلية في صدق القرآن وصحة نبوته ﷺ لم يترك الله ﷻ أية ذريعة أو شبهة واهية تشكك في صدقه ﷺ ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:٤٢].

❊ ❊ ❊

الفريدة السادسة والسابعة: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾، ووردتا في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم:٩].

وقد ذكر السمين الحلبي معنى هاتين الفريدتين فقال: «﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ أي: قدر قوسين... والقوسان معروفان وهو ما يرمى عنهما... والقوس: الذراع بلغة أزد شنؤة، قال مجاهد قاب قوسين، أي: قدر ذراعين»(٢).

ولم يختلف كلام المفسرين عن اللغويين كثيرًا، ولكنه كان أكثر شرحًا وتفصيلًا،

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٤٦.

(٢) عمدة الحفاظ ٣/ ٤٠٥ ـ ٤٠٦، ومفردات الراغب ٤٢٩ ـ٤٣٠، والمصباح المنير ١٩٨، ومختار الصحاح ٢٣١ ـ ٢٣٢.

يقول الشيخ صديق خان: «﴿فَكَانَ﴾ مقدار ما بين جبريل ومحمد ﷺ، أو ما بين محمد ﷺ وربه تعالى ﴿قَابَ﴾، أي: قدر ﴿قَوْسَيْنِ﴾ عربيين، والقاب والقيب والقاد والقيد والقيس: المقدار، ذكر معناه في الصحاح.

قال الزمخشري: وقد جاء التقدير بالقوس والرمح والسوط والذراع والباع والخطوة والشبر والإصبع. والقاب ما بين المقبض والسية، ولكل قوس قابان، قال بعضهم: أراد قابي قوس فقلبه.

وقال سعيد بن المسيب: القاب صدر القوس العربية حيث يشتد عليه السير الذي يتنكبه صاحبه، ولكل قوس قاب واحد، فأخبر أن جبريل قرُب من محمد كقرب قاب قوسين.

قال الزجاج: أي: فيما تقدرون أنتم والله سبحانه عالم بمقادير الأشياء ولكنه يخاطبنا على ما جرت به عادة المخاطبة فيما بيننا... وعن أبي سعيد قال لما أسري بالنبي ﷺ اقترب من ربه فكان قاب قوسين أو أدنى ألم تر إلى القوس ما أقربها من الوتر»[1].

هذا وقد آثر الذكر الحكيم التعبير بهاتين الفريدتين لما فيهما من أسرار جمة منها:

- أن هاتين الفريدتين -دون غيرهما- تعدان مثلًا واضحًا في إفادة شدة القرب، وهما يتناسبان مع المخاطبين بالقرآن إبان نزوله أشد تناسب؛ لأن القرآن يخاطب العرب بما جرت به عادتهم في المخاطبة أو على ما انطبعت عليه سلائقهم اللغوية،

(١) فتح البيان ٩/ ١٦١-١٦٢، وتفسير الألوسي ١٧/ ١٢٤، والتحرير والتنوير ٢٧/ ٩٦

فهو تقريب لهم ليدركوا مقدار اقتراب الرسول ﷺ من جبريل في السموات العلا، وقد رآه ﷺ على صورته الملكيـة التي خُلق عليها مرتين: الأولى: عند بدء الوحي، والثانية: في رحلة المعراج كما يقول المفسرون، وهذا أمر تفرد به المصطفى ﷺ عن بقيـة الأنبياء.

أو أن الفريدتين تمثيل ليقف المخاطبون على مقدار اقترابه ﷺ من ربه علـى حسب اختلاف آراء العلماء في ذلك، فجاءت الفريدتان في موقعهما لا يغني غيرهما غناءهما، والله أعلم.

- تدل هاتان الفريدتان المتلازمتان على تكريم الله ﷻ لنبيه محمد ﷺ تكريما لا نظير له لدى الأنبيـاء السابقين، فإذا كان موسى ﷺ كلمه ربه تكليمًا فإن محمدًا ﷺ صعد إلى الملكوت الأعلى، ورأى من آيات ربه الكبرى ما رأى.

كل هذه لم ينله أحد من أنبياء الله ﷻ ورسلِه وهم كُثْرٌ، فدلت الفريدتان على اختصاصه ﷺ عن جميع الأنبياء بأمر عظيم رفيع فريد غاية التفرد في تصوره.

فإدريس ﷺ الذي قال فيـه ربـه: ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم:٥٧]، وعيسى ﷺ الذي قال فيه ربـه: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾ [النساء:١٥٨] لم يرد في القرآن، ولا في الأحاديث الصحيحة ما يثبت أنهما اتصلا بالملأ الأعلى كما اتصل به رسولنا الكريم.

وفي أحاديث المعراج الصحيحة أن نبينا ﷺ كان يمر بأحـد الأنبياء في كل سماء يتجاوزها، وهذا يعني أن المصطفى ﷺ فحسب هو الذي تجاوز الملأ الأعلى، وبلغ سدرة المنتهى، وهناك رأى من آيات ربه الكبرى ما يعجز القلم عن خطه ووصفه، فهل هناك تكريم أعظم وأرفع من هذا التكريم؟!

وكل هذا إيذان بارتفاع قدره وعلو شأوه وسمو مكانته ليس على الإنس قاطبة بل على جميع الملائكة أجمعين بدليل وصوله ﷺ إلى الملكوت الأعلى، وعدم صعود جبريل ﷺ معه إلى الملأ الأعلى.

- تشير الفريدتان إلى تفرد موضعهما في القرآن فمعجزة المعراج إلى السماوات العلا لم تذكر في أية سورة أخرى عدا هذه السورة المباركة

- كما تشير الفريدتان إلى تفرد تلك المعجزة في تاريخ البشرية، فهي لم تحدث قبلًا، ولن تحدث بعدًا إجلالًا وإعظامًا لجناب المصطفى ﷺ.

وهذا يؤكد ما ذكرناه في أكثر من موضع أن من ضمن أسرار الفرائد بالدرجة الأولى أنها توحي بتفرد الموقف أو الحالة التي وردت فيها في تاريخ الأنبياء والبشرية جمعاء، وهذا من أوضح الأمثلة على ذلك عدا ما في منطوق كل الفرائد من أسرار جمة نحاول استنباط ما فيها من دلالات بتوفيق الله ﷻ على حسب المنهج الذي انتهجناه.

* * *

الفريدة الثامنة: ﴿ٱلۡوَتِينَ﴾، وجاءت في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ﴾ [الحاقة:٤٦].

ومعنى الوتين كما يقول السمين: «عرق مستبطن في القفا إذا انقطع مات صاحبه لا محالة، ويقال: إنه عرق متصل بالكبد لكنه يسقيها لا يعيش من انقطع منه، وقيل: هو مناط القلب إذا انقطع لم يكن معه حياة، وقد وُتن الرجل فهو موتون، أي: قطع وتينه»(١).

(١) عمدة الحفاظ ٤/ ٣٢٥، ومفردات الراغب ٥٤٨، ومختار الصحاح ٢٩٥ .

ومن المفسرين يقول الشيخ صديق خان: «﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ هو عِرْقٌ يجري في الظهر حتى يتصل بالقلب، وهو مناطه إذا قطع مات صاحبه، قال الواحدي: والمفسرون يقولون: إنه نياط القلب، وقال ابن عباس: عرق القلب، وعنه قال: نياط القلب، وعن مجاهد: هو حبل القلب الذي في الظهر وهو النخاع... قال ابن قتيبة: لم يرد أنا نقطعه بعينه بل المراد منه أنه لو كذب علينا لأمتناه فكان كمن قطع وتينه»[(١)].

وهذا الاختلاف في تحديد مكان الوتين لا يهمنا كثيـرًا؛ لأن المحصلة واحدة فأيًّا كان المعنى فهو عرق إذا انقطع مات صاحبه من توه.

إذن فاصطفاء التعبير بهذه الفريدة دون قولـه مثلا لقطعنا منه عرق الموت فيه إشارات مهمة منها:

- أن الفريـدة أخصر من ذلك كما هو واضح بجلاء، وهذا الإيجاز من دلائل حسنها وفصاحتـها وقوتها، ومن ثم فقـد حلت في محلها الأمثل وموضعها الأمكن.

- وهنا لطيفة أخرى وهي أنه كان من الممكن أن يقال: (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لقضينا عليه)، ولكنه آثر التعبير بتلك الفريدة؛ لأن فيها «تصويرًا للإهلاك بأفظع ما يفعله الملوك بمن يغضبون عليه وهو أن يأخذه بيمينه، ويكفحه بالسيف، ويضرب عنقه»[(٢)].

- كما أن فيها أيضًا إيحاءات وإشارات جمة منها: أن القرآن الكريم هو كلام رب العالمين سبحانه؛ لأن تـلك الفريدة بعينها تبرز طلاقة القدرة الإلهية، وجلال المشيئة

---

(١) فتح البيان ١٠/ ٥٧ ٢٩، والتحرير والتنوير ٢٩/ ١٤٦ .

(٢) تفسير الألوسي ١٨/ ٢٩ .

الربانية التي لا يعجزها شيء، فلو فُرض وخالف سيد المرسلين كلام رب العالمين فلن يمهله ربه بل سيعاجله بالعقوبة، وسيقطع منه الوتين كناية عن أخذه فورًا بقوة وشدة دون رفق وهوادة.

ومادام لم يحدث ما ذُكر فهذا دليل بيِّنٌ على كذب ما ادعاه المشركون فيه من كونه يتقول على الله الأقاويل، ودليل أبين على أنه ﷺ كان صادقًا في كل ما يبلغه عن ربه سبحانه.

وفي الفريدة أيضًا كما يقول الشيخ سيد قطب: «حركة عنيفة هائلة مروعة حية في الوقت ذاته، ووراءها الإيحاء بقدرة الله العظيمة وعجز المخلوق البشري أمامها، وضعف البشر أجمعين، كما أن وراءها الإيماء إلى جدية هذا الأمر التي لا تحتمل تسامحا ولا مجاملة لأحد كائنا من كان، ولو كان هو محمد الكريم الأثير الحبيب ووراءها بعد هذا كله إيقاع الرهبة والهول والخشوع»[1].

- ومن جماليات تلك الفريدة أيضًا أنها من مبتكرات القرآن في أساليبه ومخاطباته يقول ابن عاشور: «ولم أقف على أن العرب كانوا يكنون عن الإهلاك بقطع الوتين فهذا من مبتكرات القرآن»[2].

* * *

الفريدة التاسعة: ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾، ووردت في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل:١].

وأجمعت كتب اللغة على أن ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ هو: «المتلفف وأصله المتزمل... قال

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٨٩.

(٢) التحرير والتنوير ٢٩/ ١٤٦.

امرؤ القيس:

كَأَنَّ ثَبِيرًا فِي عَرَانِينِ وَبْلِهِ * * كَبِيرُ أُنَاسٍ فِي بِجَادٍ مُزَمَّلِ

ومنه قيل للفافة الراوية والقربة زمال، وقال في قتلى أُحُدٍ «زملوهم في ثيابهم ودمائهم»، أي: لفوهم»[1].

وكذلك أجمعت كتب التفسير على هذا المعنى يقـول الألوسي: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ أي: المتزمل مـن تزمـل بثيابه إذا تلفـف بها فأدغم التاء في الزاي»[2].

ومادام الأمر كذلك فلم عبر بهذه الفريدة دون غيرها؟

لابد أن تكون في الفريدة دلالات و إيحاءات لا توجد فيما يدانيها منها:

- أن هذه الفريدة تتجانس مع قول النبي ﷺ لخديجة رضي الله عنها زملوني زملوني، فجاء النداء الإلهي مطابقا للطلب النبوي، ولو قال يا أيها المتلفف لما كان بهذه الحلاوة وتلك الفخامة والطلاوة، والقرآن يتأنق في اختيار مفرداته التي هي أوفق بتصوير المعنى وتأديته أتم أداء وأحسنه وأفخمه كما هنا.

- تناغي تلك الفريدة مع مقامها، وانسجامها كـذلك مع سبب نزولـها انسجامًا واضحًا «فقد روي في الصحيح أن رسـول الله ﷺ لما جاءه جبريل وهو في غار حراء - في ابتداء الوحي - رجع إلى خديجـة يرجف فؤاده فقـال زملوني، زملوني

(١) عمدة الحفاظ ٢/ ١٦٨، ومفردات الراغب ٢١٩، والمصباح المنير ٩٧، ومختار الصحاح ١١٦.

(٢) تفسير الألوسي ١٨/ ١١٩، وفتح البيان ١٠/ ١٧.

لقد خشيت على نفسي وأخبرها بما جرى فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾»[1].

- في النداء بتلك الفريدة تعظيم له عليه السلام وتكريم؛ لأن «الأصل في النداء أن يكون باسم المنادى العلم إذا كان معروفا عند المتكلم، فلا يعدل من الاسم العلم إلى غيره من وصف أو إضافة إلا لغرض يقصده البلغاء من تعظيم وتكريم نحو: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، أو تلطف وتقرب نحو: (يا بني ويا أبت)، أو قصد تهكم نحو: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر:٦]، فإذا نودي المنادى بوصف هيئته من لبسة أو جلسة أو ضجعة كان المقصود في الغالب التلطف به والتحبب إليه ولهيئته.

ومنه قول النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب وقد وجده مضطجعًا في المسجد بجنبه: «قم أبا تراب»، وقوله لحذيفة يوم الخندق: «قم يا نومان»، وقوله لعبد الرحمن بن صخر الدوسي وقد رآه حاملًا هرة صغيرة في كمه: «يا أبا هريرة»فنداء النبي بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ نداء تلطف وارتفاق، ومثله قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾»[2].

- في تلك الفريدة إشارة للمصطفى ﷺ وتنبيه بعدم الراحة والسكون والاستعداد مذ هذه اللحظة لعظائم الأمور؛ لأنه مقبل على مهام جليلة وعظيمة سيتغير فيها وجه التاريخ والإنسانية بهذا الدين الخاتم على يد سيد المرسلين المتلفلف بثيابه.

- في التعبير بهذه الفريدة دلالة على تفرد النبي ﷺ بهذا النداء، فلم يرد مثله

---

(١) تفسير الصابوني ٣/ ١٦٣٠ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٩/ ٢٥٥ .

في القرآن لنبي آخر بل قد اقتصر الذكر الحكيم على نداء الأنبياء بأسمائهم مجـردة (يا نوح - يا هود - يا صالح - يا إبراهيم - يا لوط - يا إسماعيل) ولم ينادَ ﷺ باسمه مطلقا بل نودي بوصف من أوصافـه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ تكريـمًا لـه وتعظيمًا، وتحبُّبًا إليه وتلطفـًا وارتفاقًا به فاختص ﷺ بهذه النداءات التي تنم عن المحبـة والإكرام والإعظام من بين الأنبياء جميعًا، عليـهم أفضل الصلوات والتسليم.

* * *

الفريدة العاشرة: ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، وجاءت في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر:١].

والمدثر -كما يقول الراغب-: «أصله المتدثر فأدغم، وهو المتدرع دثاره، يقال: دثرته فتدثر، والدثار: ما يتدثر به»[(١)].

ويقول الألوسي: «أصله المتدثر وهو على الأصل في حرف أبي من تدثر لبس الدثار، وهو ما فوق القميص الذي يلي البدن، ويسمى شعارًا لاتصاله بالبشرة والشعر، ومنـه قوله عليه السلام: «الأنصار شعار والناس دثار»، والتركيب كما قيل: دائر مع معنـى الستر على سبيل الشمول»[(٢)].

هذا، والتعبير بتلك الفريدة عقب التعبير بالمزمل فيما مضـى يؤكد على اختلاف الفريدتيـن في المعنى، وأن بينهما فروقا ملحوظة تستدعى التأمل والتفكر وإنعام النظر.

---

(١) مفردات الراغب ١٦٧، والمصباح المنير٧٢، ومختار الصحاح٨٣ .

(٢) تفسير الألوسي ١٨/ ١٤٦ .

يدل على ذلك أن سورة المدثر التي بدأت بتلك الفـريدة اختلف سبب نزولها عن سبب نزول سورة المزمل: «قال المفسرون كان ﷺ يتعبد في غار حراء فجاءه جبريل بالآيات الكريمة ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ...﴾ الآيات، وهي أول ما نزل عليه من القرآن فرجع يرجف فؤاده فقال لخديجة زملوني زملوني فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا...﴾ الآيات، ثم فتـر الوحي فحزن ﷺ فبينما هو يمشي سمع صوتا من السماء فرفع رأسه، فإذا الملك الذي جاءه بحراء جالسًا على كرسي بيـن السماء والأرض، فعـراه ﷺ من رؤيته الرعب والفزع فجاء إلى أهله فقال دثروني دثروني فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ [المدثر١-٢]»(١).

فبان من سبب النزول أن الفـريدة ﴿ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ عُبر بها بعدما رأى الرسول عليه السلام جبريل على هيئته الطبعية على كرسي بين السماء والأرض، وكانت هذه أول مرة يراه فيها علـى تلك الصورة فكان خوفه أعظم، ورعبه أشد بخلاف ما كان عليه الحال في غار حراء فإنه عليه السلام لم يره بتلك الهيئة فكان خوفه أقل فناسبه أن يعبر معه بلفظة أخف حدة وهي المزمل، ولما كان رعبه أقوى وخوفه أشد عبر معه بلفظة أقوى في حروفها، وإيقاع أصواتها وهي المدثر، وبذلك فقد تجانست كل فريدة مع سياقها وسبب نزولها، والله أعلم.

وهذا من دلائل إعجاز الذكر الحكيم الساطعة التي لا يقدر بشر على مراعاتها، وتنزيلها في منازلها اللائقة بها، وصدق رب العالمين حين قال: ﴿تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت:٤٢].

---

(١) تفسير الصابوني ٣/ ١٦٣٨، وابن كثير ٤/ ٤٤١، والدر المنثور للسيوطي ٨/ ٣٢٤ .

- وفي الفريدة إيماءات كثيرة ذكرناها في مثيلتها ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ وندعو القارئ الكريم أن يحاول استنباط أسرار أخرى يجلِّي بها سمعه وبصره ويسعد بها قلبه وعقله فالتأمل في القرآن، واستشفاف أسراره غاية عظمى يجب أن تكون نصب عين كل مؤمن.

* * *

الفريدة الحادية عشرة: ﴿لَا تُحَرِّكْ﴾، وجاءت في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة:١٦].

بعد الحديث عن أهوال القيامة وشدتها في الآيات السابقة انتقل الذكر الحكيم في تلك الآية إلى الحديث عن تعليم الرسول ﷺ طريقة تلقي الوحي عن جبريل، ومعنى الآية: لا تحرك بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحي عليك؛ لأجل أن تتعجل بحفظه مخافة أن يتفلت منك.

وقد ذكر الراغب معنى تلك الفريدة فقال: «الحركة ضد السكون، ولا تكون إلا للجسم، وهو انتقال الجسم من مكان إلى مكان»[(١)].

ويقول الشيخ صديق خان: «﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾؛ أي: لا تحرك بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحي لتأخذه على عجل مخافة أن يتفلت منك، ومثل هذا قوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤]»[(٢)].

يتضح مما سبق أن النهي عن تحريك اللسان معناه: السكون عند تلقي الوحي.

فلماذا عدل المولى ﷻ عن ذلك إلى تلك الفريدة؟

---

(١) مفردات الراغب ١١٣، ومختار الصحاح ٥٦، والمصباح المنير ٥١ .

(٢) فتح البيان ١٠/ ١٥٤، وتفسير الألوسي ١٨/ ١٩٨ .

أرى -والله أعلم- أن هذا يعود لأمور عديدة منها:

- أن تلك الفريدة أقوى صيغة، وأدق تعبيرًا عن المعنى المراد؛ لأنها تنص على المطلوب صراحة؛ من حيث أن النهي عن تحريك اللسان واقع على الحال والاستقبال، أي: لا تحرك به لسانك من الآن ومستقبلًا، ولا تخش شيئًا مما يساورك؛ لأن الله ﷻ تكفل بحفظه، وأعفاك من مؤنة التعب في تحصيله.

وهذا النهي للمصطفى ﷺ نهي على سبيل الرحمة والشفقة لما كان يلاقيه من شدة في بادئ الأمر قبل ورود النهي عن ذلك.

- في التعبير بتلك الفريدة إشارة إلى خصوصية لنبينا الكريم عليه أفضل الصلوات والتسليم تفرد بها عن غيره من الأنبياء في كيفية تلقي كلام ربه وتبليغه لأمته، فالقرآن كان ينزل على الرسول ﷺ وفق الحوادث والوقائع المختلفة ألفينة بعد ألفينة، وبلغ من شدة حبه ﷺ له، وحرصه على ما يتنزل عليه من القرآن، وخوفه أن يتفلت منه شيء أنه ﷺ كان يحرك لسانه، ويردد ما يقوله جبريل أثناء نزوله ليستوثق من حفظه، فنهاه الله ﷻ عن ذلك، وطمأنه بأنه يجب عليه الاستماع فحسب، والمولى - سبحانه - كفيل بنقشه في صدره كما ورد فيما مضى من سبب النزول.

وهذا كله - والله أعلم - خصيصة لرسولنا الكريم في كيفية تلقي القرآن الكريم عن جبريل تفرد بها عن كيفية تلقي (إبراهيم وموسى وداود وعيسى) عليهم السلام لكتبهم السماوية (الصحف والتوراة والزبور والإنجيل)؛ إذ لم يرد في القرآن شيء عن كيفية تلقيهم لتلك الكتب السماوية، والله أعلم.

- تومئ الفريدة إلى شغفه ﷺ بالقرآن وحبه الشديد له وخوفه أن يتفلت من

صدره كلمة أو عبارة، وأنه كان يأخذ هذا الأمر مأخذ الجد لأن القرآن كان روحه وحياته وكيـانه كله، وهكذا أضحت أمته، فقرآنها روحها، ومحـور حياتها، ومركز الدائرة عندها به تعلو وترتقـي، وبالبعد عنه تسفل وتنحدر.

- في الفريدة إيماءة أخرى هي أن القـرآن الكريم معجزة وقع بهـا التحدي مذ نزل، وإلى يوم القيامة، بخلاف الكتب السماوية الأخرى ما اندثر منها مثل: (صحف إبراهيم وزبور داود)، وما بقي محرفا مثل: (توراة موسى وإنجيل عيسى)؛ إذ لم يقـع فـي تلك الكتب التحدي بحسب طبيعتها فكان هذا التحدي خصيصة للقرآن تفرد بها.

وهذا ليس افتئاتًا على الفريدة وتحميلها أكثر مما تحتمل؛ لأن ما استنبطناه ينسجـم مـع كون الفرائد تومئ إلى أمـور فريدة، وخصائص عجيبة مستقلة لا يشترك فيـها أحد مع من وردت الفريـدة في حـقه، والله أعلم.

***

الفريدة الثانية عشرة: ﴿بِضَنِينٍ﴾، ووردت فـي قـوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير:٢٤]، ومعنى الآية: «وما محمد علـى الوحي ببخيل يقصر في تبليغه وتعليمه، بل يبلغ رسالة ربه بكل أمانة وصدق»[(١)].

والفريدة ﴿ضَنِينٍ﴾ كما يقول السميـن بمعنى: «بخيل من الضنة، وهي البخل... وقيل: الضِّنة: البخل بالشيء النفيس، فهو أخص، وفلان علق مضنة بالفتح والكسر، والمعنى أنه عليه الصلاة والسلام ليس ببخيل فيما يوحى إليه بل يبلغ

(١) تفسير الصابوني ٣/ ١٦٩١ .

جميع ما أنزل إليه امتثالًا لقوله تعالى: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ الآية، وفلان ضِنِّي من بين أصحابي أي: هو ممن أبخل به لعزته ونفاسته»[1].

وفي تفسير الألوسي يقول: «بضنين من الضن بكسر الضاد وفتحها بمعنى البخل، أي: لا يبخل بالوحي، ولا يقصر في التبليغ والتعليم، ومنح كل ما هو مستعد له من العلوم على خلاف الكهنة فإنهم لا يطلعون على ما يزعمون معرفته إلا بإعطاء حلوان»[2].

وإذا كانت الفريدة -كما مر- بمعنى (بخيل) فلم لم يأت بها ومادة البخل وردت في القرآن على أكثر من صيغة؟

لابد أن يكون وراء هذا الإيثار أسرار منها:

- أن الضن ليس هو البخل تمامًا بتمام إنما الضن هو البخل بالشيء النفيس كما مر عند السمين الحلبي، والمضنون به - في زعم الكفار وهو ما أوحي به إلى رسولنا الكريم من أمور الغيب -لا ريب- نفيس عزيز غاية في النفاسة والعزة.

فانسجمت هذه الفريدة مع مقام الكلام أشد انسجام، ولا يمكن لغيرها مما يقاربها في معناها أن يؤدي هذا المعنى بدقة متناهية كما أدته تلك الفريدة، والله أعلم.

---

(١) عمدة الحفاظ ٢/ ٤٤٨ ـ ٤٤٩، ومفردات الراغب ٣٠٨، ومختار الصحاح ١٦١، والمصباح المنير ١٣٨ .

(٢) تفسير الألوسي ١٨/ ٣٧٣، وفتح البيان١٠/ ٢٥٨، وقد أورد الألوسي والشيخ صديق خان، وكثير من المفسرين قراءة أخرى وهي (بظنين) بالظاء أي بمتهم، وعلى هذه القراءة فإن اللفظة لا تعد من الفرائد؛ لأن مادة الظن وردت كثيرا في القرآن.

- نفي الضن عن رسول الله ﷺ أبلغ في المدح من نفـي البخل؛ لأن البخل هو منع الشيء أي شيء بوجه عام، أما الضن فهـو البخل بالشيء النفيس العزيز على صاحبه فهو أخص من البخل، وإذا انتفى عن المصطفى ﷺ البخل بالشيء النفيس العزيز فهو لما دونه لا يبخل فكانت الفريدة أقوى وأبلغ في المدح كما ترى.

- وفي إيثار تلك الفريدة أيضًا مراعاة لحسن الحديث عن رسول الله ﷺ ففيها من هذا الأمر منتهاه؛ لأنه لو عبر بالبخل - عند من يرى ترادفهما - لما كان لائقًا بمقامه ﷺ حتى ولو كان منفيًا عنه لما له من إيحاءات لا تتناسب مع شرفه وعلو قدره ﷺ.

- تشير هذه الفريدة المنفية إلى اختصاص النبي ﷺ - من بين الأنبياء لطبيعة رسالته الخاتمة - بأمر عظيم هو أنه كان لا يهدأ ساعة، ولا يفتر هنيهة بعد مغادرة جبريل له حتى يبلغ ما وعاه وحفظه في صدره فهو ضنين بالمعنى الإيجابي أي: يضن بهذا الأمر النفيس أن يحتفظ به في صدره بل يبلغه من فوره لأصحابه، وهـذه الصـورة من كيفية البلاغ لم يحكها القرآن عن أي نبي آخر.

هذا، ومن ينعم النظر في تلك الفريدة يجدها متصلة بما قبلها في سورة القيامة أقوى اتصال فهناك أُمر عليه السلام بعدم تحريك لسانه خوفًا من تفلت ما يسمعـه من جبريل؛ لأن الله عز وجل سينقشه في صدره ويحفظه، وهنا تدل الفريدة على أن الذي وعاه وحفظه بلغه، ولم يضن به فالتأمت الفريدتان في موقعهما أشد التئام، والله أعلم.

❊ ❊ ❊

الفريدة الثالثة عشرة، والرابعة عشرة هما: (انحر - الأبتر)، ووردتا في سورة

الكوثر المكيـة في قوله تعالـى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر٢:٣].

وقد ذكـر السميـن الحلبـي معنـى هاتين الفريدتين فقال: «﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ قيل: المراد انحر الهدايا، والنحر: قطع الشيء المنحور، وأصله من نحرت أي: أصبت نحره، والنحر في الإبل غالبًا، والذبح في البقر والغنم»[(١)].

و«الأبتر: الـذي لا عقـب له ولا نسل، وأصله من البتر وهو القطع، ومنه نهي عن المبتورة في الضحايا وهي التي انقطع ذنبها، وفي الحديث: «كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر»، أي أقطع، وروي (أجذم)، وذلك أن العاص بن وائل كان يقول: إنما محمد أبتر فإذا مات انقطع ذكره، أي: ليس له ولـد يذكر به إذا رئي فأكذبه الله تعالى، وجعله هو الأبتر إذا ذكر لا يذكر إلا بشر»[(٢)].

وقد فصل المفسرون القول في هاتين الفريدتين أكثر وأكثر يقول العلامة النسفي: «وانحر لوجهه وباسمه إذا نحرت مخالفا لعبدة الأوثان في النحر لها ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ إن من أبغضك من قومك بمخالفتك لهم هو الأبتر المنقطع عن كل خير لا أنت؛ لأن كل من يولد إلى يوم القيامة من المؤمنين فهم أولادك وأعقابك، وذكرك مرفوع على المنابر وعلى لسان كل عالم، وذاكر إلى آخر الدهر، يبدأ بذكر الله، ويثني بذكرك، ولك في الآخرة ما لا يدخل تحت الوصف، فمثلك لا يقال له أبتر، إنما الأبتر هو شانئك المنسي في الدنيا والآخرة»[(٣)].

(١) عمدة الحفاظ ٤/ ١٧٢، ومفردات الراغب ٥٠٥ .
(٢) عمدة الحفاظ ١/ ١٧٦، ومفردات الراغب ٣٢، ومقاييس اللغة ١/ ١٩٤ .
(٣) تفسير النسفي ٤/ ٣٦٠، والواحدي ٢/ ٢٣٦ .

وبعد ففي إيثار هاتين الفريدتين على ما يقاربهما أسرار كثيرة. فمن أسرار اختيار النحر دون الذبح:

- أن النحر في لغة العرب يختص بذبح البُدنِ التي هي خيار أموال العرب ففي الفريدة نص على المطلوب، ولو عبر بالذبح لما فهم منه جواز نحر الإبل، بخلاف التعبير بالنحر فإنه يفهم منه جواز ذبح البقر والغنم أيضًا؛ لأن أصل النحر هو موضع القلادة من الصدر، أو موضع النحر من الحلق، والمرء عند ذبحه البهيمة أو الدابة فإنه ينحرها من حلقها، فالتعبير بالنحر في هذا المقام أدق وأشمل دلالة.

- في اصطفاء التعبير بالنحر - وكذلك الأبتر - اتساق مع فواصل السورة المبنية على حرف الراء، وهذا الاتساق له ما له من قوة وفخامة في نظم الكلام كما أومأنا قبل.

- التعبير بالنحر هنا جاء في سورة الكوثر المكية - على أرجح الآراء في مكان وزمان نزولها - ولم يكن الحج قد شرع بعد، ومن ثم فإن عطف ﴿وَٱنْحَرْ﴾ على ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ يقتضي متعلقًا تقديره وانحر له، والمعنى كما تصلي لربك وحده انحر له وحده أيضًا فهو أمر بالتوحيد والإخلاص، وإشارة جلية إلى بطلان ما كان عليه المشركون من النحر قربانا للأصنام.

- قد تشير الفريدة أيضًا -والله أعلم- إلى تفرد شريعة المصطفى ﷺ دون الشرائع الأخرى بإباحة نحر الإبل؛ لأن النحر لا يكون إلا في الإبل غالبًا كما يقول اللغويون، وما كان قبل ذلك في ملة إبراهيم ربما كان قاصرًا على الضأن، والله أعلم.

❊ ❊ ❊

- وفي التعبير بالأبتر دون الأقطع نص واضح -كذلك- على المطلوب؛ لأن القطع عام في كل ما يقطع، والبتر خاص بقطع معين وهو «المقطوع ذنبه من الدواب ويستعار لمن نقص منه ما هو من الخير في نظر الناس تشبيها بالدابة المقطوع ذنبها تشبيه معقول بمحسوس»[١] أي: تشبيه من انقطع نسله بالدابة التي انقطع ذنبها، فكانت هذه الفريدة أدق في اختيارها من غيرها.

- نفي صفة ﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾ عن النبي ﷺ، وإثباتها لغيره عن طريق أسلوب القصر فيه دلالة على أن شانئه هو الأبتر كما يدل على ذلك سبب النزول، وفي هذا تنويه بانحطاط قدر شانئه، وتسفل منزلته، وإيماء إلى ارتفاع شأنه ﷺ، وعلو صيته، وذكره في العالمين.

وليس أدل على ذلك من أن ذكره ﷺ صار خفّاقًا مدويًّا على المآذن والمنابر مذ بدأت الدعوة الإسلامية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وليس ذلك لأحد من شانئيه، حتى وإن كان لهم أولاد فقد طُوي ذكرهم، وإذا ذكروا لا يذكرون إلا بشر.

- تومئ الفريدة إلى تفرده ﷺ بدوام ذكره على ألسنة أتباعه في كل وقت وحين، وليس ذلك موجودًا بتلك الكيفية لدى أتباع الأنبياء الآخرين، فأتباع موسى وعيسى من اليهود والنصارى لا يجري ذكر أنبيائهم على ألسنتهم بمثل تلك الصورة الفريدة التي يذكر فيها النبي ﵇ على لسان أتباعه في كل عصر ومصر، وفي كل مكان وزمان وهذه خصيصة تفرد بها ﷺ دون الأنبياء جميعًا.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/ ٥٧٥ .

- كما تومئ الفريدة أيضًا إلى تفـرده ﷺ دون الخلائق جميعًا بذكر اسمه مقرونًا بذكر ربه سبحانه في الآذان في اليوم والليلة خمس مرات، وليس ذلك لأحد من البشر كائنًا من كان.

فكيف بعد كل هذا يكون مبتورًا مقطوعًا؟!

فأوحت هذه الفريدة بكل تلك الدلالات، والله أعلم.

المبحث الثاني عشر

أسرار التعبير بالفرائد القرآنية في قصص قرآني متنوع

ويضم هذا المبحث في طياته ثمانيَ قصص قصيرة تحدث القرآن الكريم عنها بإيجاز في عدة سور هي: (المائدة – الكهف – لقمان – سبأ – القلم – الفيل).

وقد وردت في تلك القصص الثمانية إحدى عشرة فريدة، هي: (يَبْحَثُ – فَجْوَةٍ – أَيْقَاظًا – تَبِيدَ – رَدْمًا – تُصَعِّرْ – الْعَرِمِ – خَمْطٍ – أَثْلٍ – حَرْدٍ – الْفِيلِ).

وسنقوم بدراسة تلك الفرائد على حسب ترتيب سور المصحف الشريف.

ونبدأ بما ورد في قصة ابني آدم قابيل وهابيل.

وقد حُكيت قصتهما في سورة المائدة، **ووردت فيهما فريدة واحدة هي:** ﴿يَبْحَثُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة:٣١].

وذكر اللغويون لهذه الفريدة أكثر من معنى يقول السمين الحلبي «البحث: التنقيب عن الشيء، والاجتهاد في معرفة باطنه وخفيه، ومنه بحث المسألة، وأصله من بحث الأرض لمعرفة ما بداخلها، وإثارة ما كان كامنا فيها، قال الله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾، أي: يثيرها، ويوقع الحفر بمنقاره، وذلك؛ ليعلم قابيل كيف يدفن أخاه، وقيل: البحث الكشف والطلب»[1].

ويقول الشيخ صديق خان: «﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: يحفرها، وينثر ترابها، وينبش بمنقاره، وبرجليه، ويثيره على غراب ميت معه حتى واراه»[2].

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا آثر الذكر الحكيم هذه الفريدة؟

أرى أن لذلك أسرارًا عديدة منها:

- أن تلك الفريدة تصور بحروفها هذا المعنى المراد بدقة فائقة، وقد فطن لذلك العلامة ابن جني في قوله: «الباء في بحث لغلظها تشبه بصوتها خفقةَ الكف على الأرض، والحاءُ لصحلها[3] تشبه مخالب الأسد، وبراثنَ الذئب ونحوهما إذا غارت في الأرض، والثاءُ للنفث والنبث في التراب»[4].

---

(١) عمدة الحفاظ ١/ ١٨١-١٨٢، ومفردات الراغب ٣٤، ومقاييس اللغة ١/ ٢٠٤، ولسان العرب (بحث)، والقاموس المحيط ١/ ٢١١، والمصباح المنير ١٤، ومختار الصحاح ١٧ .

(٢) فتح البيان ٣/ ٧، وتفسير القرطبي ٦/ ١٤١، وتفسير الألوسي ٦/ ١١٦ .

(٣) الصحل: البحة في الصوت .

(٤) الخصائص لابن جني ٢/ ١٦٣، وانظر فقه اللغة وخصائص العربية د/ محمد المبارك ١٠١ - ١٠٢ .

وحروف الألفاظ الأخرى لا تنهض بتصوير هذا المعنى بخلاف تلك الفريدة فهي أوفى في تصوير الحدث بحروفها من غيرها وهذا من أسرار اختيارها، والله أعلم.

- هذه الفريدة تضم في طياتها المعاني السابقة جميعَها؛ فالغراب حينما شرع في مواراة أخيه فتش عن أصلح مكان لمواراة هذا الجثمان ثم بدأ في الحفر، واجتهد في إثارة كوامن الأرض ليخفي جثة أخيه بعيدًا عن الأنظار، وفعل قابيل مثلما فعل الغراب.

فالفريدة أبانت عن كل هذه المعاني من التفتيش والتنقيب والحفر والاجتهاد، فكانت أوسعَ دلالة، وأكثرَ ثراء.

وبهذا يتبين كما يقول الشيخ دراز رحمه الله أن «القرآن الكريم يستثمر دائما برفق أقل ما يمكن من اللفظ في توليد أكثر ما يمكن من المعاني، أجل؛ تلك ظاهرة بارزة فيه»(١).

- تومئ تلك الفريدة إلى تفرد هذه القصة في القرآن العظيم، فلم ترد إلا في هذا الموطن فحسب، كما تومئ إلى أن قتل قابيل هابيلَ كان جرمًا فظيعًا فريدًا لم يُسبق به من قبلُ فهي أول حادثة قتل في تاريخ الإنسانية فتناغى تفرد هذه اللفظة مع تفرد هاتين الحالتين.

- تُلمح تلك الفريدةُ من طرف خفي إلى أن البحث في باطن الأرض وإثارة

(١) النبأ العظيم د/ دراز ١٢٧، ومناهل العرفان ٢/ ٢٣٥ .

كوامنها، والاجتهاد في معرفة باطنها من أوائل الأشياء التي تعلمها الإنسان الأول من طائر صغير ضعيف لا يعتد به، وهي دعوة للإنسان في كل زمان ومكان أن يتلقى العلـم من أي مصدر كان، فالحكمة ضالته أنى وجدها التقطها.

- في مجيء هذه الفريدة علي صيغة المضارع دون الماضي تصوير لهذه الصورة العجيبة باستحضارها أمام القارئين والسامعين فتكون أكثر قوة وتأثيرًا، كما تدل الفريدة بهذه الصيغة على أن البحث في الأرض لمواراة القتلى، ودفن الموتى سنة مستمرة بين بني آدم إلى يوم القيامة وهكذا كانت تلك الفريدة أملأ بالمعاني، وأغزر إيحاءً من غيرها، ولن تصلح لفظـة غيرها أن تقوم مقامها، أو تسد مسدها، والله أعلم.

❊ ❊ ❊

القصة الثانية قصة أصحاب الكهف، وقد وردت في تلكـم القصة فريدتان (**فَجْوَةٍ - أَيْقَاظًا**)، وجاءتا في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الكهف١٧-١٨].

وقد ذكر السمين معنى فجوة فقال: «﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: ناحية متسعة من الكهف، والفجوة المتسع من الأرض بين جبلين أوتلَّين، أو نحوهما»[1]، وإلى ذلك ذهب المفسرون، وزادوا معنى آخر يقـول الشيخ صديق خان: «﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ

(١) عمدة الحفاظ ٣/ ٢٤٥، ومفردات الراغب ٣٨٧ .

﴿مِّنْهُ﴾ الفجوة المكان المتسع، وما يدل على أن الفجوة المكان الواسع قول الشاعر:

أَلْبَسْتَ قَوْمَكَ مَخْزَاةً وَمَنْقَصَةً * * حَتَّى أُبِيحُوا وَخَلُّوا فَجْوَةَ الدَّارِ

وقال سعيد بن جبير الفجوة الخلوة من الأرض، ويعني بالخلوة الناحية منها»[1]، ولكن الراجح هو المعنى الأول كما يفيده سياق القصة.

وآثر الذكر الحكيم التعبير بهذه الفريدة لما فيها من نكات عديدة، منها:

- أن حروف تلك الفريدة تحكي معناها بوضوح تام، أنعم النظر في الفاء المفتوحة السهلة اللينة التي ينفتح معها الفم، ثم الجيم الشجرية التي تخرج من أعلى الحنك، ثم الواو بما فيها من طول واتساع كل ذلك يحكي - بوضوح - سعة المكان الذي آووا إليه في هذا الكهف.

- هذه الفريدة - لا شك - أوجز مما لو قال: وهم في متسع من الكهف، أو في ناحية منه، ومع كونها أوجز فهي أفصح وأسلس لفظًا وأعذب وردًا مما يقاربها، فاكتملت فيها شروط الفصاحة والإيجاز، ومن ثم فقد جاءت في محلها الأليق بها.

- تومئ هذه الفريدة إلى حالة عجيبة فريدة، وهي أن الشمس لاتساع مكانهم كان ينبغي أن تصيبهم، وترسل ضوءها وشعاعها عليهم، ولكن ذلك لم يحدث خرقا للعادة، وإلى ذلك أشار الزجاج بقوله: «صرف الله تعالى الشمس بيد قدرته عن أن تصيبهم على منهاج خرق العادة كرامة لهم، وجيء بقوله: ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ حالًا مبينة لكون ما ذكر أمرًا بديعًا كأنه قيل ترى الشمس تميل عنهم يمينًا وشمالًا،

(١) فتح البيان٥/ ٤٣١، والكشاف ٢/ ٤٧٥، والقرطبي١٠/ ٣٦٩، والألوسي ١٠/ ٢٩٣.

ولا تحوم حولهم مع كونهم في متسع من الكهف معرض لإصابتها لولا أن كفها عنهم كف التقدير، واحتج عليه بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ حيث جعل الزجاج ذلك إشارة إلى ما ذكر من التزاور والقرض في الطلوع، والغروب يمينًا وشمالًا»[1].

- تشير تلك الفريدة إلى تفرد هذا المكان باحتضان هؤلاء الفتية طيلة ما يزيد على ثلاثمائة عام، فقد تبارك بهم هذا الكهف الذي خلده الله ﷻ في القرآن، كما تفرد بشهود تلك المعجزة الربانية، وهذا ليس بغريب فقد تفردت أماكن أخرى بمشاهدة أمور إعجازية مثل جبل الطور في سيناء، والوادي المقدس طوى، وغير ذلك كثير مما أومأنا إليه قبلُ.

* * *

أما عن الفريدة الأخرى في تلك القصة فقد أشار السمين الحلبي إلي معناها بقوله: «قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾ هم جمع يقظ بكسر العين وضمها، واليقظة التنبه ضد النوم»[2].

وهذا هو المعنى الذي دار في كتب التفسير يقول العلامة الجمل «أيقاظًا منتبهين؛ لأن أعينهم منفتحة جمع يقظ بكسر القاف»[3].

وإذا كان الأمر كذلك فلم عبر بقوله أيقاظًا دون منتبهين؟

أقول: إن ذلك عائد لما تحمله الفريدة من نكات جمة منها:

(١) تفسير الألوسي ١٠/ ٢٩٣، ٢٩٤ .
(٢) عمدة الحفاظ ٤/ ٤١٠، ومختار الصحاح ٣١٠، والمصباح المنير ٢٦١ .
(٣) الفتوحات الإلهية للجمل ٣/ ١٢، وتفسير القرطبي ١٠/ ٣٧٠ .

- أن في تلك الفـريدة قوة وفخامة ومتانة تتشاكل مع نظمها وأسلوبها الفخم القوي، وضعْ إن شئت غيرها مكانها ثم انظر إلى الفرق بين اللفظتين ستحس بمصداق ما أقول بوضوح، وهذا من شيم ألفاظ القرآن الكريم عامة، والفرائد خاصة، لا يمكن أن يوضع غيرها مكانها ألبتة.

- تدل هذه الفريدة دلالة ساطعة على مبلغ القدرة الإلهية العجيبة؛ فإن الناظر الذي يطلع علي هؤلاء الفتية يحسبهم يَقْظى مفتوحي العين في حالة من الحذر والانتباه، ولكنهم في الحقيـقة نيام جعلهـم الله ﷻ يتقلبون يمنة ويسرة حتـى لا تأكل الأرض أجسادهم: «قال الواحدي: وإنما يحسبون أيقاظًا؛ لأن أعينهم مفتحة وهم نيام، وقال الزجاج: لكثرة تقلبهم يظن أنهـم أيقاظ، والدليل عليه قولـه تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾»[1].

- تشير الفريدة إلى أن قصة أصحاب الكهف كانت حدثًا فريدًا وعجيبًا في تاريخ البشرية كلها، وقد صرح بذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف:٩]، وهي حادثة قاصرة على هؤلاء الفتية المؤمنين لم تحدث لأحد قبلهم، ولن تحدث بعدهم، كما تشير إلى تفـرد تلك القصة في القرآن فهي قصة فريدة وحيدة لم تأت في أي سورة أخرى تلميحًا أو تصريحًا، والله أعلم.

* * *

القصة الثالثة قصة صاحب الجنتيـن، وقد عرضها القرآن الكريم في سورة الكهف من الآية (٣٢- ٤٣).

(١) مفاتيح الغيب ١٧/ ٢٧٣ .

وقد وردت في تلك القصة فريدة واحدة فقط هي ﴿تَبِيدَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [الكهف:٣٥].

وقد تحدث السمين عن معنى هذه اللفظة بقوله: «باد يبيد بيدًا فهو بائد، أي: هلك، قال تعالى: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾، وأصله من باد في البيداء أي: تفرق وتوزع، وذلك إنما يكون غالبًا في الهلاك، والبيداء: المفازة التي لا شيء بها، ثم عبر عن كل هالك بالبائد، وإن لم يكن في البيداء، وجمعها بيد»[(١)].

وهذا هو المعنى الذي ذكره المفسرون يقول الألوسي: «﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ﴾، أي: تهلك وتفنى، يقال: باد يبيد بيدًا وبيودًا وبيدودة إذا هلك»[(٢)].

وإذا كانت الفريدة بمعنى تهلك وتفنى فلم عدل إليها؟

لابد أن وراء هذا الاختيار أسرارًا منها:

- أن الفريدة أفصح لفظًا، وأقوى تعبيرًا، وأشد ملائمة لمقام الكلام، وجرب ذلك بنفسك تلمس ما أقول لك.

- قد تشير تلك الفريدة - والله أعلم - إلى أن جنته هذه كانت في بيداء من الأرض شاسعة واسعة لا تطال، ولا يقترب منها لعزِّ صاحبها وقوته فهو يرى جنته فريدة في نوعها وجنسها ليست ككل الجنان. فهي لا ضريب لها ولا نظير في سعتها وثمرها وظلالها، وهي في نظره تستعلي على الفناء والهلاك مدة حياته ووجوده «وذلك اغترار

(١) عمدة الحفاظ ١/ ٢٨١، ومفردات الراغب ٦٥، ولسان العرب (بيد)، والمعجم الوسيط ١/ ٨١.

(٢) تفسير الألوسي ١٠/ ٤٠٥، ومفاتيح الغيب ١٩/ ٣١٠.

منه لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها ظن أنها لا تفنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف وذلك لقلة عقله، وضعف يقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها وكفره بالآخرة»[1]، ولكن الله ﷻ خيب ظنه، وأحاط بثمره في غمضة عين جزاء وفاقا لكفره وتكذيبه.

- تعكس تلك الفريدة تفرد هذه القصة في الذكر الحكيم فلم ترد إلا في هذا الموطن فحسب من سورة الكهف، كما تعكس تفرد تلك الحالة في تاريخ البشرية المقروء والمسموع.

كما تدل الفريدة من -طرف خفي- على عنجهية شخصية صاحب هذه الجنة، وعلى سفاهة فكره، وحمق فعاله، وفيها أيضًا إزراء على منطقه المعوج الملتوي في نظرته لجنته باستعصائها على الفناء مما لا يتصور عاقل حدوثه، والله أعلم.

* * *

القصة الرابعة قصة ذي القرنين، وقد ضمت هذه القصة فريدة واحدة مادة وصيغة هي: ﴿رَدۡمًا﴾.

وقد ذكرت في قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا﴾ [الكهف:٩٥].

والردم -كما يقول السمين الحلبي-: «سد الثلمة ونحوها بالحجر ونحوه، وعنى بذلك: السد، والردم يطلق على المردوم كإطلاق الضرب على المضروب،

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٨٣، وتفسير النسفي ٣/ ١٤ .

والخلق على المخلوق، وأردمت عليه الحمى أطبقت»[1].

وقد أفاض المفسرون في معاني تلك الفريدة يقول الألوسي: «﴿رَدۡمًا﴾ أي: حاجزًا حصينًا وحجابًا متينًا، وهو أكبر من السد وأوثق، يقال: ثوب مردم، أي: فيه رقاع فوق رقاع ويقال: سحاب مردم، أي: متكاثف بعضه فوق بعض، وذكر أن أصل معناه سد الثلمة بالحجارة ونحوها، وقيل: سد الخلل مطلقًا، ثم أطلق على ما ذكر، وقيل: هو والسد بمعنى، ويؤيد الأول ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال: هو كأشد الحجاب، وعليه يكون قد وعدهم بالإسعاف بمرامهم فوق ما يرجونه وهو اللائق بشأن الملوك»[2].

وعلى ذلك فاصطفاءُ الردم على السد في هذه الآية يشير لأمور عدة منها:

- أن التعبير بالردم فيه دلالة قاطعة على أنه بخلاف السد. فالردم هو: «السد المنيع وهو أكبر من السد؛ لأن الردم ما جعل بعضه على بعض حتى يصبح كالحجاب المنيع»[3].

فبين اللفظتين فرق واضح في الدلالة -كما ترى- وكل منهما يتسق مع مقام الكلام الوارد فيه، فالسد ورد على لسان القوم الذين اشتكوا إلى ذي القرنين هجوم يأجوج ومأجوج عليهم في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا﴾ [الكهف:٩٤]، وكان رده أنه سيبني

(١) عمدة الحفاظ ٢/ ٩٣، ومفردات الراغب ١٩٩ .
(٢) تفسير الألوسي ١٠/ ٦٣٤، وتفسير الكشاف ٢/ ٤٩٩، والقرطبي ١١/ ٥٩ .
(٣) تفسير الصابوني ٢/ ٧٨٨ .

لهم ردمًا، وهذا فوق ما يطلبونه، وكأنه يرى أن الردم خلاف السد فهـو أقوى وأعظم وأشد متانة، وهذا ما أدركه العلامة الشيخ الشعراوي رحمه الله حيث يقول: «﴿أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا﴾ ولم يقـل سدًّا؛ لأن السد الأصم يعيبه أنه إذا حصلت رجة مثلًا في ناحية منه ترج الناحية الأخرى، لذلك أقام لهم ردمًا أي يبني حائطًا من الأمام، وآخر من الخلف ثم يجعل بينهما ردمًا من التراب ليكون السد مرنًا لا يتأثر إذا ما طرأت عليه هزة أرضية مثلًا، فيكون به التراب مثل السوست التي تمتص الصدمات، والردم أن تضع طبقات التراب فوق بعضها حتى تردم حفرة مثلًا وتسويها بالأرض»(١).

- تومئ الفـريدة إلى أن هذا الردم، أو ذاك السد المنيع كان أعجوبة عصره، وأحدوثة زمانه؛ لأن من بناه وهو ذو القرنين قد آتاه الله من كل شيء سببًا، وقد مكنته تلك الأسباب من إقامة سد منيع فريد عجيب في بنائه منع شر يأجوج ومأجوج عن هؤلاء القوم الذين اشتكوا لذي القرنين، وهذا ما حدث؛ يـدل عليه قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبًا﴾ [الكهف:٩٧] «أي ما استطاع المفسدون أن يعلوه ويتسوروه لعلوه وملاسته، وما استـطاعوا نقبـه لصلابته وثخانته، وبهـذا السد المنيع أغلـق ذو القرنين الطريق على يأجوج ومأجوج»(٢).

- تدل هذه الفريدة على تفرد تلك القصة برمتها في القرآن العظيم إذ لم تأت في أي سورة أخرى، كما تدل على تفرد هذا البناء في تاريخ البشريـة جمعاء «وهو الآن في جبل القوقـاز ضمن جمهوريـات الاتحاد السوفيتي كما تشير الوثائق الجغرافية

(١) تفسير الشعراوي ١٤/ ٨٩٩٠.

(٢) تفسير الصابوني ٢/ ٧٩٠ـ ٧٩١.

والتاريخية لا يستطيع أحد أن يتسلق فوق ظهره أو ينقبه كما صرحت بذلك آيات الكهف الأخيرة... وهكذا فإن الإبداع البشري صنع سدًّا حديديًّا نحاسيًّا رهيبًا استغرق قرابة عشر سنوات موجود فعلًا في فتحة (داريال) بجبال القوقاز التي كانت القبائل المتوحشة تغير منها على مناطق جنوب القوقاز، وشرق البحر الأسود، وغرب بحر قزوين وهو لهـذا أشبه بجدار أو حصن لحماية السكان الآمنين»(1)، والله أعلم.

* * *

القصة الخامسة قصة لقمان الحكيـم، وعرضها المولى ﷻ ضمن سورة سُميت باسمه، وفيهـا أوصى لقمـان ابنه بوصايا جامعة لكل أنواع الفضائل.

وقد احتوت هذه القصة على فريدة واحدة هي: ﴿تُصَعِّرْ﴾، وجـاءت فـي قوله تعالـى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان:١٨].

وقد عرض السمين الحلبي لهذه الفريدة، فقال: «قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ﴾ أي: لا تمل به تكبرًا عليهم، يقال: صعر خده ولوى جيده، وثنى عطفه، ونأى بجنبه أي تكبر، وقرئ ﴿تُصَاعِرْ﴾، وهما لغتان (صعَّر وصَاعَرَ)، وأصله من الصعر وهو ميل في العنق وقيل: داء يصيب البعير في عنقه فيلتوي، ويقال فيه الصيد أيضًا، أي: لا تلزم خدك الصعر، وفي الحديث: «يأتي علـى الناس زمان ليس فيهم إلا أصعر أو أبتر، أو معرض بوجهه تكبرًا»، يعني رذالة الناس، وفيه: «كل صعار ملعون»، أي:

(١) الظاهرة الجمالية في القرآن ٣٢٥: ٣٢٧.

كل ذي أبهة وكبر»[1].

وقد ذكر المفسرون ما قاله اللغويون في هذا المضمار، وزادوا آراء أخرى يقول الألـوسي: «أي: لا تمله عنهم، ولا تولهم صفحة وجهك كما يفعله المتكبرون، قاله ابن عباس وجماعة، وأنشدوا:

وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ ❊ أَقَمْنَا لَهُ مِنْ مَيْلِهِ فَتَقَوَّمَا

فهو من الصعر بمعنى الصيد، وهو داء يعتري البعير فيلوي منه عنقه، ويستعار الصيد للتكبر كالصعر، وقال ابن خويز منداد: نهي أن يذل نفسه من غير حاجة فيلوي عنقه، ورجح الأول بأنه أوفق بها بعد»[2]، أي: في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾.

هذا، وفي التعبير بتلك الفريدة نكـات جمة لا توجد في غيرها منها:

- أن حروفها تصور بوضوح حالة هذا المتكبر المتعجرف المحتقـر لغيـره، فالصاد بما فيها من استعلاء وتفخيم، ثم العين المكسورة، والراء الساكنة وما في دلالتهما من جهر وقوة كل ذلك يومئ بوضوح إلى هذه النفسية المستعلية التي تعتقد في نفسها أنها أعلى وأرفع من غيرها.

- الفريدة ﴿تُصَعِّرْ﴾ أوجز معنى مما أورده لها المفسرون واللغويون وفي هذا دلالة مؤكدة على أن القرآن ينحو نحو الوجازة والاختصار ما أمكن، فضلًا عن

---

(١) عمدة الحفاظ ٢/ ٣٩٠، ومفردات الراغب ٢٨٩ .

(٢) تفسير الألوسي ١٤/ ٣٣٩، وانظر تفسير الكشاف ٣/ ٢٣٤، والقرطبي ١٤/ ٦٩، وفتح البيان ٢١/ ١٦٦.

أنه لو عبر بالمقارب، وقال: (لا تمل خدك للناس تكبرًا) لكـان كلامًا ساذجًا باهتًا لا فصاحة فيه ولا ملاحة، وحاشا القرآن أن يشتمل على ذلك، فأساليبه الغاية في الإعجاز والإيجاز.

- تصور هذه الفريدة -دون غيرها- تصويرًا دقيقـًا هيئة المتعاظم المنتفخ المنتفش الممتلئ نفاجة وغرورًا، وهو يتمايل بعنقه، ويشيح بوجهه كأن داء الصعر أصابه، فالصعر في الأصل كما مر: «داء يصيب البعيـر فيلوي منه عنقه، ثم استعمل في ميـل العنق كبرًا وافتخارًا»[1].

فأصل اللفظة في الاستعمال اللغوي -كما رأينا- هو إمالة عنق البعير لداء أصابه، ثم نقلت من هذه الدلالة الحسية المشاهدة للعيان إلى معنى حسي آخر نشاهده لدى الموتورين من الآدميين حين يتشامخون فيميلون أعناقهم كبرًا وغرورًا وتيها وصلافة، وكأن ما بهم في الحقيقة ليس إلا داء أصابهم فأمال أعناقهم.

وهكذا لو أدرت كلام العرب كله لن تحصل على لفظة تؤدي هذا المعنى بدقة كما أدته هذه الفريدة، وهي تحمل في طياتها بوضوح معنى التنفـير من هذه الخصلة الذميمة، والمسلك المَرَضِيِّ القبيح.

- تومئ الفريدة إلى تفرد تلك القصة في القرآن؛ فإنها لم تذكر ألبتة في أي سورة أخرى تلميحًا أو تصريحًا.

كما تومئ إلى أن القرآن يخلد الشخصيات الفريدة التي حافظت على الأخلاق والمثل العليا -عبر مسيرة التاريخ- وإن لم يكن نبيًّا، فقد روي: «لم يكـن لقمان

(١) تفسير الصابوني ٢/ ١٠٧٦ .

نبيًّا، ولكن كان عبدًا كثير التفكر حسن اليقين أحب الله تعالى فأحبه فمن عليه بالحكمة»(١).

* * *

القصة السادسة قصة أهل سبأ، وهم قبيلة من العرب سميت باسم جدهم سبأ بن يشجب بن قحطان: «وقد كان أهل سبأ يعيشون في نعمة ورخاء وسرور، وكانت مساكنهم حدائق وجنات، فلما كفروا النعمة دمرهم الله بالسيل العرم، وجعلهم عبرة لمن يعتبر»(٢).

وقد وردت هذه القصة في موطن واحد فحسب في سورة سبأ التي سميت باسمهم.

وقد ضمت هذه القصة التي لم تتجاوز خمس آيات ثلاثَ فرائد هي (الْعَرِمِ - خَمْطٍ - أَثْلٍ)، وسُلكت هذه الفرائد في آية واحدة في قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ:١٦].

هذا وقد تعددت أقوال اللغويين والمفسرين في معنى تلك الفرائد على آراء شتى يقول السمين الحلبي في العرم: «﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ قيل: العرم: اسم الوادي، وقيل: اسم الخُلْد الذي نقب السد حتى فُتِح وسال ماؤه فغرَّقَ ديارهم وأهلك بساتينهم، وقيل: العرم المُسَنَّاة (وهي ما يبنى في وجه السد)... وقيل:

---

(١) السابق الصفحة نفسها.

(٢) تفسير الصابوني ٢/ ١١٢٩ .

العـرم: المطر الشديد، وأصل العرامة: الشـدة والشراسة، وصعوبة الخلق ومنه رجل عارم»[1].

وعن الخمط والأثل يقول: «الخمط أُكُل شجر له ثمـر ذو مـرارة، وكل ما أُخذ طُعما من ذلك فهو خمط، وقيل: هو شجر لا شـوك له قيل: الأراك، وقيل: غيره»[2].

و«الأثل شجر معروف، الواحدة أثْلة، ولما كان ثابت الأصل شُبِّه به غيره من الشجر فقيل: شجر مؤثـل أي بثبوته»[3]، وفي المصباح المنير قال: «الأثل شجر عظيم لا ثمر له الواحدة أثلة»[4].

وقد أفاض المفسرون في الحديث عن هذه الفرائد يقول الألوسي في العرم: «﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ﴾، أي: الصعب من عرم الرجل فهو عارم، وعرم إذا شرس خلقه وصعب، وفي معناه ما جاء في رواية عن ابن عباس في تفسيره بالشديد، وإضافة السيل إليه من إضافة الموصوف إلى الصفة، ومن أباها من النحاة قال: التقدير سيل الأمر العرم، وقيل: العرم المطر الشديد، والإضافة على ظاهرها، وقيل: هو اسم للجرذ الذي نقب عليهم سدهم فصار سببًا لتسلط السيل عليهم وهو الفأر الأعمى الذي يقال له الخلد، وإضافة السيل إليه لأدنى ملابسة، وقال ابن جبير العرم المسناة بلسان الحبشة، وقال الأخفش هو بهذا المعنى عربي... وعن ابن عباس وقتادة

(١) عمدة الحفاظ ٣/ ٧٨ بتصرف، ومفردات الراغب ٣٤٤، ومختار الصحاح ١٨٠

(٢) عمدة الحفاظ ١/ ٦١٨، ومفردات الراغب ١٦٠ .

(٣) عمدة الحفاظ ١/ ٦٤، ومفردات الراغب ٥ .

(٤) المصباح المنير٢ .

والضحاك ومقاتل هو اسم الوادي الذي كان يأتي السيل منه، وبُني السد فيه، ووجه إضافة السيل إليه ظاهر»[1].

وتحدث الشيخ صديق خان عن الخمط والأثل فقال: «قال الخليل: الخمط ضرب من الأراك وله حمل يؤكل، وبه قال ابن عباس، وكذا قال كثير من المفسرين، وقال أبو عبيدة الخمط كل شجرة مرة ذات شوك... و(الأثل) هو الشجر المعروف الشبيه بالطرفاء، كذا قال الفراء وغيره، قال: إلا أنه أعظم من الطرفاء طولًا، وورقه كورق الطرفاء، ومنه اتخذ منبر رسول الله ﷺ»[2].

ويرى الفخر الرازي أن الخمط هو: «كل شجرة ثمرتها مرة، أو كل شجرة ثمرتها لا تؤكل، والأثل نوع من الطرفاء ولا يكون عليه ثمرة إلا في بعض الأوقات يكون عليه شيء كالعفص أو أصغر منه في طعمه وطبعه»[3].

بعد هذا العرض المستفيض لكلام بعض اللغويين والمفسرين حول معنى هذه الفرائد نقول: لا يهمنا في هذا السياق تحديد المعنى المراد من هذه الفرائد بدقة؛ لأن الأمر -كما ترى- وقع فيه اختلاف شديد، ولا يمكن ترجيح رأي على آخر، وما يهمنا هو محاولة الوقوف على أسرار التعبير بتلك الفرائد.

وأرى أن للتعبير بها دلالات عدة منها:

- أنها تضم في جنباتها المعاني السابقة، فمن ينظر في الدلالات السابقة يجد أن

(١) تفسير الألوسي ١٤/ ٧١٥.
(٢) فتح البيان ٧/ ٤٤١.
(٣) مفاتيح الغيب ٢٤/ ٦٥٣، وانظر تفسير الكشاف٣/ ٢٨٥.

لكل فريدة معانيَ عديدة ومتنوعة، وكلها مرادة ولا يرفضها سياق الكلام، مثلما رأينا من توجيه الألوسي لمختلف معاني العرم فإنها كلها انسجـمت مع سياق الكـلام، كما أن المعاني التـي ذكرت للخمط والأثل لا يرفضها المعنى العام لسياق الكلام أيضًا؛ لأن المراد أن تلك البساتين المثمرة، والرياض الغناء المبهرة، والحدائق الوارفة قد انقلبت أجمة التفت أشجارها بعضها ببعض فلا يستنفع من ثمرها إن كان لها ثمر لمرارته، أو لا يستنفع منها إن لم يكن لها ثمر، فعلى أي معنى أدرت الكلام تتأتى جميع المعاني التي ذكرها اللغويون والمفسرون كما رأينا بوضوح.

فبان أن هذه الفرائد أوفق، وأوفى دلالة، وأغزر معنى، ولا يستطيع غيرها أن يحل محلها، والله أعلم.

- هذه الفرائد الثلاث أوجز وأخصر كما رأينا من كثرة معانيها، وهذا الإيجاز يتواءم مع السياق الذي يقوم على الوجازة في عرض أحداث هذه القصة القصيرة، التي خوطب فيها كفار قريش أهـل الفصاحة والبلاغة قصدًا إلى وعظهم بما حل بجيرانهم ممن أعرض وطغى وتكبر، وتحذيرًا لهم أن يصيبهم مثل ما أصابهم.

- تومئ الفرائد الثلاث إلى تفرد هذا الموضع في القرآن فصًّا ونصًّا فلم يرد الحديث عن كيفية هلاك هؤلاء القوم من أهل سبأ بأي صورة من الصور في موضع آخر ألبتة.

- تدل هذه الفرائد على أن ما حدث لتلك البلدة من عقـاب لم يحدث نظيره لبلدة أخرى في تاريخ البشرية، فقد دلت الفرائد على تبدل عيشة هؤلاء من عيشة رغدة هنية تحيط بهم الحدائق المزدهرة، والبساتين المخضرة، والثمار اليانعة إلى عيشة

صعبة مزرية؛ حيث انقلبت هذه الجنات الطيبة المنظر والمأكل أشجارَ خمط وأثل وشيء من سدر قليل جزاء بغيهم وعتوهم واستكبارهم.

- تدل هذه الفرائد -كذلك- على أن هؤلاء القوم عندما أراد المولى ﷻ أن يعذبهم لم يهلكهم بأعيانهم كما أهلك قوم نوح وقوم هود وقوم صالح، وفرعون وجنوده بل أبقاهم أحياء، وأرسل عليهم سيلًا عرمًا شديدًا «حطم السد، وانساحت المياه فطغت، وأغرقت، ثم لم يعد الماء يخزن بعد ذلك فجفت الأرض، واحترقت، وتبدلت تلك الجنان الفيح صحراء تتناثر فيها الأشجار البرية الخشنة»[(١)].

وصاروا يضرب بهم المثل في تبدل الحال فيقال: (صاروا أيادي سبأ)، وكان هذا أمرًا عجيبًا غريبًا تفردوا به بين الأمم الهلكى.

ولعل ذلك راجع إلى أنهم لم يرسل لهم رسول كما أرسل لهؤلاء الأمم، والله أعلم.

* * *

القصة السابعة قصة أصحاب الجنة، وقد وردت في سورة القلم من الآية (١٧: ٣٢)، ويروي المفسرون أنه «كان لرجل مسلم بقرب صنعاء بستان فيه من أنواع النخيل والزروع والثمار، وكان إذا حان وقت الحصاد دعا الفقراء فأعطاهم نصيبًا وافرًا منه، وأكرمهم غاية الإكرام فلما مات الأب ورثه أبناؤه الثلاثة فقالوا: عيالنا كثير والمال قليل، ولا يمكننا أن نعطي المساكين كما كان يفعل أبونا، فتشاوروا فيما بينهم، وعزموا على ألا يعطوا أحدًا من الفقراء شيئًا، وأن يجنوا ثمرها وقت الصباح

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٠٠ .

خفية عنهم، وحلفوا على ذلك فأرسل الله نارًا على الحديقة ليلًا أحرقت الأشجار وأتلفت الثمار، فلما أصبحوا ذهبوا إلى حديقتهم فلم يروا فيها شجرًا ولا ثمرًا، فظنوا أنهم أخطأوا الطريق، ثم تبين لهم أنها بستانهم وحديقتهم، وعرفوا أن الله عاقبهم فيها بنيتهم السيئة فندموا، وتابوا بعد أن فات الأوان»[(١)].

وقد ورد في ثنايا تلك القصة القصيرة فريدة واحدة فقط هي: ﴿حَرْدٍ﴾، وذكرت في قوله تعالى: ﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ [القلم:٢٥].

والحرد له أكثر من معنى ففي مفردات الراغب: «الحرد المنع عن حدة وغضب، قال الله ﷻ: ﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ أي: على امتناع من أن يتناولوه قادرين على ذلك»[(٢)].

وفي كتب التفسير نالت الفريدة عناية أكثر يقول الشيخ صديق خان: «﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ الحرد يكون بمعنى: المنع والغضب والقصد قال قتادة ومقاتل والكلبي والحسن ومجاهد: الحرد هنا بمعنى القصد لأن القاصد إلى الشيء حارد، يقال حرد يحرد إذا قصد، تقول حردت حردك أي قصدت قصدك، وبابه ضرب... وقال أبو عبيدة والمبرد والقتيبي ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ على منع من قولهم حردت الإبل حردًا إذا قَلَّت ألبانها... وقال السدي وسفيان والشعبي ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ على غضب»[(٣)].

واصطفاء تلك الفريدة لما فيها من إشارات ودلالات جمة منها:

---

(١) تفسير الصابوني ٣/ ١٥٩٢.

(٢) مفردات الراغب ١١١، ومختار الصحاح ٥٥، ومقاييس اللغة ٢/ ٥١، والتفسير البياني بنت الشاطئ ٢/ ٦٣.

(٣) فتح البيان ١٠/ ٣١، وتفسير الألوسي ٩/ ٧٢٥، والتحرير والتنوير ٢٩/ ٨٤.

- أن الفريدة تحمل في جعبتها جميع المعاني التي ذكرها المفسرون واللغويون فهي من باب المشترك اللفظي المستعمل في كل معانيه؛ بدليل أنك لو أدرت نظم الآية على أي معنى -مما سبق- لاستقام المعنى العام لسياق الكلام، وقد أشار إلى ذلك العلامة ابن عاشور بقوله: «الحرد يطلق على المنع، وعلى القصد القوي أي: السرعة، وعلى الغضب. وفي إيثار كلمة حرد في الآية نكتة من نكت الإعجاز المتعلق بشرف اللفظ ورشاقته من حيث المعنى»[1].

وقد أخذ ابن عاشور في توجيه كل معنى من هذه المعاني فراجعه هناك حتى لا يطول بنا القول، والذي يهمنا هنا أن اصطفاء تلك الفريدة يعود لوفرة دلالتها، وامتلائها بالمعاني ومن ثم فلا يمكن لغيرها أن يحل محلها مطلقًا.

- حروف الفريدة لمن يتأملها تحكي المعاني السابقة جميعها، انظر إلى الحاء المهموسة الرخوة تصور انطلاقهم، وهم يتخافتون، ثم تأمل الراء المجهورة الساكنة، وما فيها من عزم وتصميم على تنفيذ مبتغاهم ثم الدال المجهورة الشديدة، وزادها قوة وشدة تنوينها كل ذلك يحمل شدة العزم، وقوة القصد، وأنهم كانوا ممتلئين بالحنق والغيظ والغضب على المساكين، ولن تستطيع لفظة أخرى بجرس أصواتها أن تؤدي بوضوح هذه المعاني المتكاثرة، فحلت الفريدة في مكانها الأليق بها.

- تعكس الفريدة تفرد تلك القصة -على هذا النحو الدقيق- في القرآن فلم ترد في أي مكان آخر، كما تعكس تفرد تلك الحالة في تاريخ الإنسانية؛ لأن ما حدث للحديقة كان تدبيرًا إلاهيًّا، وحكمة ربانية لا دخل للمرء فيها، فقد انقلبت الحديقة

(١) التحرير والتنوير ٢٩/ ٨٤.

في ليلة وضحاها من البهجة والخضرة والنضارة إلى الظلمـة واليبوسة والقتامة، والخراب اليباب حيث بُيت لهم بليل جـزاء وفاقًا على نيتهم الخبيثة فـي حرمان الفقراء والمساكين من حقهم الذي شرعه الله لهم، والله أعلم.

* * *

القصة الثامنة والأخيرة قصة أصحاب الفيل، وهي مشهورة معروفة مما يغنينا عن ذكر تفاصيلها.

وقد وردت فيها فريدة واحدة هي: ﴿ٱلۡفِيلِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ﴾ [الفيل:١].

ويقول السمين الحلبي في دلالة تلك الفريدة: «الفيل: هو هذا الحيوان المعروف، وجمعه فيلة وفيول، وله فهم عجيب يقرب من فهم الآدمي»[(١)].

ولم يخرج المفسرون في معناه عما قاله اللغويون[(٢)].

أما لماذا جاءت تلك اللفظة وحيدة في القرآن فلذلك أسرار منها:

- الإيماء إلى أن قدوم هذا الفيل مُحاربًا إلى أرض العرب كان شيئًا غريبًا عجيبًا بالنسبة لقاطني الحرم؛ إذ لم يكن لهم دراية بحروب الفيلة بالرغم من حروبهم الكثيرة التي استمرت سنوات وسنوات؛ لأنها كانت المرة الأولى التي يدخل فيها فيل إلى رحاب الحرم محاربًا، يدل على ذلك أن عبد المطلب جد الرسول ﷺ انسحب بقومه إلى شعاب الجبال، وقال: «للبيت رب يحميه»؛ لأنه كان على يقين بأن قومه لا طاقة

(١) عمدة الحفاظ ٣/ ٣١٠، ومفردات الراغب ٤٠٣ .

(٢) فتح البيان ١٠/ ٤٤٧، وتفسير الألوسي ١٨/ ٦٨٠ .

ولا خبرة لهم بملاقاة ومحاربة الأفيال في المعارك؛ إذ لم يعتادوا ذلك ألبتة، فكان هذا الأمر لهم غريبًا فريدًا عجيبًا.

وإلى ذلك أشار ابن عاشور بقوله: «لم يكن الفيل معروفًا عند العرب فلذلك قل أن يذكر في كلامهم، وأول فيل دخل بلاد العرب هو الفيل المذكور في هذه السورة»[1].

- تشير الفريدة إلى أن العام الذي ولد فيه المصطفى ﷺ حدثت فيه أمور فريدة ومعجزات خارقة للعادة؛ لأن قصة أصحاب الفيل بوجه عام «تدل على كرامة الله للكعبة وإنعامه على قريش بدفع العدو عنهم، فكان يجب أن يعبدوه، ويشكروه على نعمائه، وفيها مع ذلك عجائب وغرائب من قدرة الله على الانتقام من أعدائه، قال في البحر: كان صرف ذلك العدو العظيم عام مولده السعيد عليه السلام إرهاصا بنبوته، إذ مجيء تلك الطيور على الوصف المنقول من خوارق العادات، والمعجزات المتقدمة بين أيدي الأنبياء عليهم السلام، وقد أهلكهم الله تعالى بأضعف جنوده وهي الطير التي ليست من عاداتها أن تقتل»[2].

- في هذه الفريدة عجيبة أخرى أشار إليها صاحب الظلال حيث يقول: «ومما تعظم به القدرة أن يؤخذ من استعز بالفيل -وهو أضخم حيوان من ذوات الأربع جسمًا- ويهلك بحيوان صغير لا يظهر للنظر، ولا يدرك بالبصر حيث ساقه القدر، لا ريب عند العاقل أن هذا أكبر وأعجب وأبهر»[3].

(١) التحرير والتنوير ٣٠/ ٥٤٧.
(٢) تفسير الصابوني ٣/ ١٧٧٠.
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٧٦.

- وأخيرًا نقـول إن تلك اللفظة تشير بوضوح إلى أن للفرائد إيحاءات وإيماءات تستنبط من التعبير بها قد لا يدل عليها منطوق لفظها، فنحن في تلك الفريدة لا يمكننا أن نقارن بينها وبين غيرها من فروق دلالية. فلم يرد في المعاجم لفظة مقاربة للفيل يجري بينهما المقارنة على نحو ما فعلنا قبلُ مرارًا وتكرارًا، فبقي أن الفـريدة لها في سياقها إيماءات وإشارات جمة بعيدًا عن أسرارها اللغوية، وهذا متحقق في كثير من الفرائد فتأمله مليًّا.

وبعد فتلك هي نهاية المطاف في حديثنا عن أسرار الفرائد في القصص القرآني التي تكفل هذا الجزء من الكتاب بدراستها، وقد بان لكل ذي بصر وبصيرة أن فرائد الذكر الحكيم قد وضعت في موضعها الأليق بها الذي لا يمكن لغيرها أن يحل محلها، كما بان أن لكل فريدة في القرآن هوية خاصة تفترق بها عن غيرها من الألفاظ التي قد يظن بعض الناس أنها مرادفة لها؛ كما ظهر بوضوح أن الفرائد علاوة على ما لها من أسرار لغوية، وقيم تعبيرية، وخصائص فنية، وأسرار جمالية، لها كذلك إيحاءات وإشارات واضحةٌ حينًا، ومُدركَةٌ من طرف خفي حينًا آخر، وهذا سر آخر دقيق من أسرار إيرادها والتعبير بها بجانب الأسرار الأخرى، وسنعرض فيما يلي لأبرز نتائج البحث التي توصلنا إليها في هذا الجزء، فنقول وبالله التوفيق:

❁ ❁ ❁

الخاتمة

بعد هذا التطواف الرحيب في ساحة الفـرائد القرآنية المليئة بالخصائص الجمالية، والسمات التعبيـرية، المشحـونة باللطائف الكثيرة، والدقائق الغزيرة توصل البحث في هذا الجزء -بحمد الله وتوفيقه- إلى أبرز النتائج التالية.

أولًا: بعد جمـع المادة العلمية لهـذا البحث بجزئيه لوحظ أن ثمانيًا وعشرين سورة من سور الذكر الحكيم خلت من الفرائد مطلقًا هي على الترتيب: (الفاتحة - يـونس - فصلت - الزخـرف - الجاثية - الحديـد - الحشـر - الممتحنة - الجمعة - الطلاق - الملـك - الانفطار - الانشقاق - البروج - الأعلى - الليل - الشرح - القدر - البينة - الزلزلة - القارعة - التكاثـر - العصر - الهمزة - الماعون - الكافرون - النصر - الناس).

ثانيًا: لوحظ من خلال جمع المادة العلمية أن عدد الفرائد في سور القرآن الكريم قد تفاوتت تفاوتًا واضحًا فأكثرها في سورة البقرة حيث ورد فيها ثلاث وعشرون

فريدة، وأقلهـا فريـدة واحدة في سور مثل العنكبوت، وغافر، والدخـان، والمجادلة، والملك، ومجموع الفرائد كاملة خمس وأربعمائة فريدة تقريبًا.

ثالثًا: يدل هذا العدد الجم من الفرائد دلالة ساطعة على أن القـرآن الكريم من لدن حكيم عليم؛ إذ يستحيل على أي إنسان كائنًا ما كان أن يأتي في مجموع كلامه بطائفة متنوعة من الألفـاظ لا يكررها مطلقًا علي أي وجه آخر مادة وصيغة، ولو فُرض وحدث ذلك لأتي بكلمات لا تتجاوز أصابع اليـد الواحدة، ولم ولن يقدر علـي حشد مثل هذه الطائفة المتنوعة في صياغتها ودلالتها وبنيتها فدلت الفرائد دلالة عقلية منطقية علي أن الذكر الحكيم من لدن لطيف خبير.

رابعًا: التأكيـد بما لا يـدع مجالا للشك على أن الترادف بمعنى التطابق الكامل، والتماثل الشامل لا يوجد ألبتة في القرآن، وقد اطرد هذا بوضوح في جميع الفرائد التي قيل فيها إن لها مترادفات من لفظها واستطاعت هذه الفرائد أن تهـدم هذا الرأي، وتستأصله من جذوره كما أكدنا عليه مرارًا وتكرارًا.

خامسًا: أكد هذا البحث علي أن الترادف بمعنى التقارب، واشتراك لفظين في أصل المعنى ثم اختصاص كل لفظة بجزئية من المعنى لا تكون في غيـره موجود ومسلم به في القـرآن والحديث الشريف، واللغـة العربية، ولا يسطيع عاقل جحده وإنكاره لأنه ظاهر ظهور الشمس في رائعة النهار.

سادسًا: أبان التحليل البلاغي لهـذه الفرائد إبانة تامة عن أن الذكر الحكيم في نظمه وأسلوبه ومفرداته ناهيك عن فرائده يضع كل شيء في موضعه الأحق به الأجدر بوجوده الذي لا يصلح غيره أن يحل محله، أو يسد مسده، وإلا فسد نظم

الكلام، وضاع رواؤه وبهاؤه.

سابعًا: كشف البحث عن أن أكثر الفرائد في قصص الأنبياء استعملت في معناها الحقيقي، واستخدم قليل منها في المعنى المجازي مثل (يَزِفُّونَ - يَرْتَعْ - اشْتَعَلَ).

ثامنًا: وضح من خلال القصص المعروضة أن الفرائد تعكس تفرد أقوام بعض الأنبياء بسمات خِلقية وسلوكية لا توجد لدي غيرهم، فعلى سبيل المثال قوم نوح تفردوا بسمة الازدراء والسخرية من المؤمنين المتبعين لنوح عليه السلام دل على ذلك الفريدة ﴿تَزْدَرِيٓ﴾ وقوم هود زادهم الله في الخلق بصطة فتطاولوا في البنيان، وقالوا - تكبرًا وتجبرًا - من أشد منا قوة أومأ إلى ذلك الفريدتان (رِيعٍ - إِرَمَ) اللتان تشيران إلى علوهم في البنيان، وبنائهم إرم في كل ريع ومكان، وقوم صالح تفردوا دون غيرهم بأنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتًا، فقد وردت جملة ﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا﴾ مرتين ﴿وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗا﴾ مرة في القرآن، وكلها متصلة بقوم صالح عليه السلام، وكان نحت هذه البيوت قوة وفراهة وخيلاء دل على ذلك الفريدة ﴿فَٰرِهِينَ﴾، وتعكس الفرائد (بَقْلِهَا - وَقِثّائِهَا - وَفُومِهَا - وَعَدَسِهَا - وَبَصَلِهَا) طباع بني إسرائيل الدنية، واستبدالهم الذي هو أدنى وهي تلك الأشياء بالذي هو خير وهو المن والسلوى الذي كان ينزل عليهم دون كد أو تعب، كما تعكس الفريدتان (فَاقِعٌ - لاشِيَةَ) طبع بني إسرائيل المتشدد في عدم استجابتهم للأمر من أول وهلة وتشديدهم على أنفسهم فشدد الله عليهم، وقد انفردوا بتلك الصفات الذميمة كظاهرة جماعية من بين العالمين، وغير ذلك من الفرائد الواردة في حقهم.

تاسعًا: كما دلت بعض الفرائد على تميز كثير من الأنبياء بصفات اختصوا بها لم

تذكر في القرآن لدى نبي آخر قط حيث تفرد خليل الله إبراهيم عليه السلام بالكرم الشديد وضيافة الملائكة دل على ذلك الفريدة ﴿حَنِيذٍ﴾، كما تفرد إسماعيل عليه السلام بتسليمه لمشيئة الله عز وجل، وإطاعته أمر أبيه في ذبحه دون تردد أو تلعثم أو تفكر دل على ذلك الفريدتان ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾، كما تفرد نبي الله يوسف عليه السلام بخصوصيات ذكرناها في ثنايا البحث دلت عليها الفريدتان (دَرَاهِمَ - خُبْزًا)، و تفرد نبي الله موسى عليه السلام بسمات كثيرة دل على ذلك الفرائد (بِالسَّاحِلِ - فَوَكَزَهُ - يَجُرُّهُ - لا تُشْمِتْ - بِلِحْيَتِي - سَكَتَ) فالفريدة ﴿بِٱلسَّاحِلِ﴾ أومأت إلى انفراده بإلقائه في اليم وليدًا لا حول له ولا طول تحرسه عناية الله ورعايته، والفريدة ﴿فَوَكَزَهُۥ﴾ تعكس قوة موسى عليه السلام، وشدة بنيانه حيث صرع المصري بلكمة واحدة غير مقصود بها القتل، والفرائد (يَجُرُّهُ - لا تُشْمِتْ - بِلِحْيَتِي - سَكَتَ) تومئ إلى شدة موسى عليه السلام في الدفاع عن الحق، وغضبه الشديد من أخيه هارون عليه السلام، وعكست الفريدتان (فَتَبَسَّمَ - فَفَهَّمْنَاهَا) خاصتين لسليمان عليه السلام كما ذكرنا هناك، وأشارت الفريدتان (أَبَقَ - فَسَاهَمَ) إلى ما تفرد به نبي الله يونس عليه السلام، ودلت الفريدتان (اشْتَعَلَ - رَمْزًا) على ما اختص به نبي الله زكريا عليه السلام، وقد انفرد خاتم الأنبياء سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام بأنه أكثر الأنبياء الذين وردت في حقهم فرائد لم ترد لدى غيره من الأنبياء كما مر ذكره، وهذا يتوافق مع كونه عليه السلام أفضلهم، وكونه «سيد ولد آدم ولا فخر».

عاشرًا: دلت بعض الفرائد على أن العذاب الذي نزل بالأمم الكافرة لم يكن واحدًا بل تفردت كل أمة بعذاب يتلاءم مع طبيعة عنادها، وشدة عتوها، فقوم نوح أُغرقوا في ماء الطوفان الذي طهر الأرض من رجسهم وكفرهم دل على ذلك الفريدة

﴿مُّنۡهَمِرٖ﴾ من قوله تعالى: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ﴾، وقوم هود عُذبوا بريح صرصر عاتية دل علي ذلك الفريدة ﴿حُسُومٗا﴾ من قوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗا﴾، وقوم صالح عُذبوا بالطاغية والصاعقة والرجفة والصيحة أومأ إلى ذلك كله الفريدة ﴿دَمۡدَمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا﴾، وفرعون وقومه عُذبوا بالغرق في البحر أشار إلى ذلك الفريدة ﴿رَهۡوًا﴾ من قوله تعالى: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ﴾، والفريدة ﴿الطَّوۡدِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، كل هذه الأنواع من العذاب عُبر عنها بألفاظ فرائد عكست تفرد كل قوم بعذاب خصوا به كما ذكرنا، وقد أبانت الفرائد كذلك عن أن فرعون مصر وقومه عُوقبوا وهم أحياء بعقوبات كثيرة دل علي ذلك الفريدتان: ﴿الۡقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ﴾، ولقد خصوا بذلك من بين الأقوام المعذبين، ولما أصروا على كفرهم أهلكهم الله جميعا في مشهد مريع فظيع يأخذ بالعقول، كما تفرد هؤلاء الطغاة من بين الأقوام بذكر مآلهم يوم القيامة دل على ذلك الفريدة ﴿ٱلۡمَقۡبُوحِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ﴾.

حادي عشر: ومن عجيب أمر هذه الفرائد أنها في كثير من قصص الأنبياء تشير من طرف خفي إلى العمل أو الحرفة التي كان يعملها كل نبي، فالفريدة ﴿وَدُسُرٖ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ﴾ دلت على أن نوحا عليه السلام تفرد بمهنه النجارة من بين الأنبياء المذكورين في القرآن، والفريدة ﴿ٱلسَّرۡدِ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِ﴾ أشارت إلي تفرد داود عليه السلام بمهنة الحدادة، والفريدة ﴿أَهُشُّ﴾ من قوله

تعالى: ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾ أومأت إلى اشتغال موسى عليه السلام بمهنة الرعي، فهـذه الفرائد علاوة على ما فيها من أسرار أخرى جمة إلا أنه يمكن استنباط ما سبق ذكره منها كما رأينا.

ثاني عشر: ومن عجيـب أمر هذه الفرائد أيضًا أن التعبير بها دون غيرها لا يخلو من الدلالة على ثلاثة أسرار: الأول: **إما أن تدل** على تفرد الموضع الذي وردت فيه الفريدة في القرآن بمعنى: أنه لم يتكرر في الذكر الحكيم مطلقـًا كقصة ابني آدم، وقصة أصحاب الكهـف، وقصة صاحب الجنتين، وقصة الخضر، وذي القرنين، وقصة لقمان الحكيم، وقصة أهل سبأ، وأصحاب الجنة في سورة القلم، وقصة أصحاب الفيل، **أو تدل** علـى أن الموضع الذي وردت فيه الفرائد لم يتكرر بنصه وفصه في القرآن، ويندرج تحت هذا السـر جميـع الفرائـد المذكورة في هذه الدراسة، الثاني: الدلالة على اختصاص النبي الذي وردت فيه الفريدة بشيء تميـز به لـم يعرف لغيره من السابقين عليه واللاحقين به، الثالث: الدلالة على تفرد بعض الأنبياء بأشياء لم تحدث إلا لهم في تاريخ الإنسانية مذ كانت إلى يوم القيامة مثـل الفـرائد (وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ - حَنِيذٍ - السَّاحِلِ - اخْلَعْ - نَعْلَيْكَ - فَانْبَجَسَتْ - فَتَبَسَّمَ - عِفْـرِيتٌ - أَبَـقَ - يَقْطِينٍ - رَمْزًا - قَابَ - قَوْسَيْنِ)، وقد اطرد ذلك في كل الفـرائد السابقة، وغيرها كمـا بينا في ثنايا البحث.

ثالث عشر: أبان البحث عن أن جميع الفرائد قد تلاءمت مع سياقها وتجاوبت مع ما قبلها وبعدها، ولو حاولت وضع غيرها مكانها لأبى عليك ذاك الكلام، ورفضه المعنى العام، خذ مثلًا في قصة نوح عليه السلام فقد عبر بالفريدة ﴿مُّنْهَمِرٍ﴾؛ لأن

السياق هو الذي استدعاها حيث سبقت بقوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ١٠ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ﴾، فانهمار الماء جاء نتيجة الدعاء، وانفتاح أبواب السماء، والفرائد ﴿تَبَسَّمَ﴾، ﴿ٱلۡخَبۡءَ﴾، ﴿عِفۡرِيتٞ﴾، ﴿جِفَانٖ﴾ في قصة سليمان كلها تتناسب مع مقاماتها، و ينادي عليها سياقها، وهكذا الحال في كل الفرائد التي عرضنا لها كما أوضحت تلكم الدراسة.

رابع عشر: أظهر البحث بجلاء السرَّ وراء احتواء قصة موسى عليه السلام على أكثر الفرائد في قصص الأنبياء؛ ذاك لأن موسى عليه السلام أرسل إلى فريقين: إلى فرعون وقومه لينخلعوا عن الفرعنة والطغيان، ويؤمنوا بالواحد الديان، وإلى بني إسرائيل ليخلصهم من ظلم فرعون واستعباده لهم، وليصحح لهم عقائدهم المنحرفة، ويُقَوِّم طباعهم المرذولة التي ألفت الذل والهوان، والتي فيها من العجائب والغرائب ما جعلتهم يتفردون بصفات ليست في غيرهم من بني البشر فعكست تلك الفرائد الكثيرة الجوانب الفريدة المتعددة لدى الفريقين، ومن ثم كانت قصة موسى عليه السلام أوسع القصص في القرآن.

خامس عشر: توصل البحث إلى أن الفرائد الواردة في قصص الأنبياء لم يكن القصد منها تغطية كل الجوانب المذكورة في القرآن عن هذا القصص المبارك بل وردت الفرائد في الجوانب العجيبة الغريبة التي تفرد بها كل نبي عن غيره، وكذا المواقف التي انفرد بها أقوامهم دون سواهم من أقوام الأنبياء الآخرين، وقد اطرد هذا في جميع القصص القرآني الذي ورد فيه فرائد كما بينا في ثنايا البحث.

سادس عشر: كشف البحث عن اتساق الفرائد الواردة في قصص الأنبياء

اتساقًا عجيبًا من حيث ذكرها أو عدم ذكرها في قصص بعض الأنبياء، فآدم عليه السلام لم تذكر في قصته أيُّ فريدة؛ لأنه لم يكن مسبوقًا بأحد من البشر يتفرد عليه، فضلًا عن أن خلقه من تراب كان متميزًا به عن المخلوقات الأخرى من الملائكة والجان، وإدريس عليه السلام ذكره القرآن عرضًا، ولم يتفرد بشيء يختص به ليشير القرآن إليه بلفظة فريدة كما في قصص الأنبياء الآخرين، وإسحاق عليه السلام كذاك الحال، ومثلهما اليسع وإلياس عليهما السلام لم تذكر لهما فرائد لأنهما ذكرا عَرَضًا في القرآن دون شيء يميزهما، وكذلك شعيب وأيوب عليهما السلام لم يذكر لهما في القرآن فرائد؛ إذ لم يوجد في جوانب قصصهما ما يمكن أن يتفردا به، وفي هذا دليل واضح على أن الفرائد القرآنية ترد في قصص الأنبياء الذين تفردوا بأشياء استحقت أن يشار إليها بتلك الفرائد كما بين البحث، والله أعلم.

سابع عشر: كشف البحث عن اتساق عدد الفرائد في قصص الأنبياء اتساقًا عجيبًا، فقصة موسى عليه السلام من أكثر القصص المذكورة في القرآن، وقد تناولها الذكر الحكيم في سور عديدة مكية ومدنية، ومن ثم كان عدد الفرائد فيها أكثر من أي قصة أخرى كما ظهر في ثنايا البحث، وكذلك قصة يوسف وداود وسليمان وإبراهيم جاءت فرائدهم على قدر الاتساع في قصصهم، وهكذا الحال كثرة وقلة لدى الآخرين.

ثامن عشر: كشف البحث كذلك عن شيء عجيب في قصة موسى عليه السلام حيث لم ترد فرائد خاصة ببني إسرائيل في مصر قبل خروجهم منها بل اقتصر الأمر على الفرائد الخاصة بموسى وهارون عليهما السلام مع فرعون اللعين، وهذا - إن دل - يدل على أن بني إسرائيل لم تكن لهم في مصر مواقف فريدة أو عجيبة، وهذا ما أكده

الذكر الحكيم فإن شخوصهم كانت غائبة في القرآن قبل الخروج، ولم يُورد لهم القرآن مشاهد أو مواقف غريبة إلا بعد خروجهم من مصر وهم في تيه سيناء حيث حدثت منهم أمور غريبة وعجيبة حكاها الذكر الحكيم، وأدل دليل على صحة ما ذهبنا إليه أن قـارون هو الشخص الوحيد المذكور في القرآن من بني إسرائيل إبان وجودهم في مصر، وقد ذكر له القرآن فريدة واحدة لِما صدر منه من أمور عجيبة كما أثبتنا في ثنايا البحث.

تاسع عشر: كشف البحـث عن أن اللفظـة القرآنية عامة والفرائد خاصة تتميز بدقة الاختيار، وجمال التصوير، وشدة الانسجام، وقوة الالتحام بينها وبين جاراتها، ولا يمكن أن تُستبدل بها غيرها، فكأنها خلقت لهذا المكان وخلق لها، وتزيد الفرائد علي ذلك كله بأنها عنوان البلاغة والإعجاز، وآية القدرة الإلهية التي أحاطت بمفردات اللغة، واختارت منها ألفاظًا هي الأدق معنى، والأوفى تصويرا، والأنسب لسياقها من غيرها مما يقاربها مما هو مذكور في القرآن في مواطن أخرى.

عشرين: كشف البحث عن أن التعبير بهذه الفرائد القرآنية ينم عن سمات فنية، وجمالية عديدة، وهذا ينسحب على ألفاظ القرآن بوجه عام فإنها زاخرة بهذه السمات، وتلك الخصوصيات الفنية البارعة، فيبقى أن لهذه الفرائد خصوصية اتسمت بها عن بقية ألفاظ الذكر الحكيم وهي دلالتها -كما مر- إما على تفرد موضعها في القرآن، أو تفرد ما تدل عليه في تاريخ الأنبياء، والإنسانية جمعاء.

وبعد، فهذا أبرز ما توصلتُ إليه من نتائج في هذا الجزء من الدراسة، وهناك نتائج أخرى ستظهر عند دراسة بقية الفـرائد في الجزء الثاني إن شاء الله تعالى.

وينبغي أن أشير هنا إلى أن موضوع تلك الدراسة على النهج الذي سرت عليه موضوع بِكْر في بابه لم يسبقني إليه - على حد علمي والله أعلم - أحد يُعبِّد الطريق، ويذلل ما صعب وشرد، ومن ثم فإن ما ذكرناه من أسرارٍ لتلك الفرائد كان نزرًا يسيرًا مما أقدرنا المولى ﷻ على استنباطه واستشفافه من كوامن تلك الفرائد، ولن نقدر على قول الكلمة الفصل فيها؛ لأن ألفاظ القرآن عامة، والفرائد خاصة لا يحاط بأسرارها؛ ولا يمكن الوصول لمنتهاها، ولكني أرجو أن يجد القارئ في هذا البحث ما يجعله يضع يده على نوع من أنواع الإعجاز في القرآن الكريم التي لا تتناهى، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ثبت بالمصادر والمراجع

أولًا: المصادر

- القرآن الكريم.

- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم بحاشية المصحف الشريف وضعه/ محمد فؤاد عبد الباقي – دار الحديث – القاهرة – الطبعة الثالثة ١٤١١هـ – ١٩٩١م.

ثانيًا: المراجع

- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي وبهامشه إعجاز القرآن للباقلاني المكتبة الثقافية – بيروت – ١٩٧٣م.

- أحكام القـرآن لابن العربي – تحقيق/ محمد على البجاوي – دار الفكر العربي – القاهرة.

- أسرار التنزيل للبيضاوي – شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي الطبعة الثانية – ١٣٧٥هـ – ١٩٥٥م.

- أساس البلاغة للزمخشري الهيئة المصرية العامة للكتاب - الطبعة الثانية - ١٩٨٥م.

- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية - تأليف/ مصطفى صادق الرافعي - ضبطه وصححه وحقق أصوله/ محمد سعيد العريان - الطبعة الرابعة - مطبعة الاستقامة بمصر - ١٣٥٩هـ ١٩٤٠م.

- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق دراسة قرآنية لغوية وبيانية - د/ عائشة عبد الرحمن - دار المعارف - القاهرة - الطبعة الثانية ١٩٨٧م .

- الإعجاز الفني في القرآن عمر السلامي، طبع بمصنع الكتاب للشركة التونسية للتوزيع - تونس - مايو ١٩٨٠م.

- الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية - تأليف/ محمود السيد حسن مصطفى - تقديم الأستاذ الدكتور/ حسن عون، الناشر مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية - الطبعة الأولى - ١٩٨١م.

- الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني، تحقيق د/ عبد القادر حسين مكتبة الآداب - ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادي - تحقيق الأستاذ / عبد العليم الطحاوي - المكتبة العلمية - بيروت.

- البرهان في علوم القرآن للزركشي - تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم - المكتبة العصرية - بيروت - ١٣٩١هـ - ١٩٧٢م.

- البيان في غريب إعراب القرآن للأنباري تحقيق د/ طه عبد الحميد مراجعة / مصطفى السقا - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.

- تفسير أبي السعود - إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن العظيم - المطبعة المصرية ١٣٤٧هـ - ١٩٢٨ م.

- تفسير البحر المحيط - لأبي حيان الأندلسي الغرناطي - الطبعة الثانية - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م - دار الفكر.

- تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل و أسرار التأويل - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

- تفسير الثعالبي - الجواهر الحسان في تفسير القرآن - عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي - مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت.

- تفسير الجلالين محمد بن أحمد المحلي - وعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي - دار الحديث - القاهرة.

- تفسير الشعراوي - خواطر حول القرآن الكريم - طبع إدارة الكتب والمكتبات - أخبار اليوم - القاهرة.

- تفسير الطبري المسمى جامع البيان عن تأويل آي القرآن - محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري - دار الغد العربي - القاهرة.

- تفسير القرآن العظيم - لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي - مكتبة الدعوة الإسلامية - شباب الأزهر - ١٤٠٠هـ - ١٩٨٣م.

- تفسير الكشـاف للزمخشري - مطبـعة مصطفى الحلبي وأولاده بمصر - الطبعة الأخيرة - ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢م.

- تفسير المنـار للشيخ/ رشيد رضا - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢م .

- تفسير النسفي - للإمام الجليل العلامة / أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي دار إحياء الكتب العربية - عيسى الحلبي.

- تفسير الواحدي - الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - علي بن أحمد الواحدي - تحقيق/ صفوان عدنان داوودي - الدار الشامية - دمشق ١٤١٥ هـ.

- التحرير والتنوير لابن عاشور - دار سحنون للنشر - تونس.

- التصوير الفني في القرآن لسيد قطب - دار الشروق - القاهرة - الطبعة الثامنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

- التفسير البياني للقـرآن الكريم د / عائشة عبـد الرحمـن - دار المعارف القاهرة - الطبعة السابعة ١٩٩٠ م.

- جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير - إعداد/ أحمد يا سوف - إشراف وتقديم د/ نور الدين عتر - دار المكتبي للطباعة والنشر سورية - دمشق - الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ١٩٩٤م.

- الجامـع لأحكام القرآن للقرطبي - مطبـعة دار الكتب المصرية ١٩٣٥ م.

- خزانة الأدب - تقـي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي - تحقيق/ عصام شعيتو - دار ومكتبة الهلال - بيروت - ١٩٨٧م.

- الخصائص تأليف أبي الفتح عثمان بن جني - حققه/ محمد علي النجار - دار الهدى للطباعة والنشر - بيروت - الطبعة الثانية.

- دراسات جديدة في إعجاز القرآن مناهج تطبيقية في توظيف اللغة د/ عبد العظيم المطعني مكتبة وهبة - القاهرة ـ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.

- دلائل الإعجاز تأليف عبد القاهر الجرجاني - قرأه وعلق عليه / أبو فهر محمود محمد شاكر الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ـ١٩٨٤م.

- الدر المنثور للسيوطي - دار الفكر - بيروت - ١٩٩٣م.

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي - تحقيق/ طه عبد الرؤوف سعد - الطبعة الأولى - دار الغد العربي.

- زاد المسير فـي علم التفسير - عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي - المكتب الإسلامي بيروت - الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ.

- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء للقلقشندي - تحقيق د/ يوسف علي طويل - دار الفكر - دمشق - الطبعة الأولى - ١٩٨٧ .

- صفوة التفاسير تأليف/ محمد علي الصابوني - طبع على نفقة السيد حسن عباس الشربتلي - مكة المكرمة ١٣٩٩هـ.

- الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم - نذير حمدان - دار المنارة - جدة - السعودية - الطبعة الأولى ١٤٢١هـ ١٩٩١م.

- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ - معجم لغوي لألفاظ القرآن الكريم

- صنفه الشيخ / أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي. حققه وعلق عليه د / محمد التونجي - عالم الكتب - بيروت - ١٤١٤هـ ١٩٩٣م.

- فتح البيان في مقاصد القرآن للشيخ/ صديق خان - دار الفكر العربي القاهرة.

- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير - تأليف محمد ابن علي بن محمد الشوكاني - الناشر / دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت.

- الفتوحات الإلهية للجمل - طبع بمطبعة عيسى الحلبي بمصر.

- فقه اللغة وخصائص العربية د/ محمد المبارك - دار الفكر - بيروت - الطبعة السادسة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

- في ظلال القرآن لسيد قطب - دار الشروق - القاهرة - الطبعة السابعة ١٣٩٨هـ ١٩٧٨ م.

- قصص الرحمن في ظلال القرآن - أحمد فائز الحمصي - مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥ م.

- قصص الأنبياء والتاريخ تأليف د/ رشدي البدراوي الأستاذ بجامعة القاهرة.

- قصص الأنبياء والمرسلين لفضيلة الشيخ / محمد متولي الشعراوي. المكتبة التوفيقية - القاهرة.

- القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته - د/ فضل حسن عباس - دار الفرقان - الأردن - عمان - ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

- القاموس المحيط للفيروز آبادي - المؤسسة العربية للطباعة والنشر - بيروت .

- كتب ورسائل وفتاوى ابن تيميه في التفسير - تحقيق / عبد الرحمن قاسم النجدي - دار النشر مكتبة ابن تيميه.

- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون - مصطفى بن عبد الله الرومي الحنفي المعروف بحاج خليفة - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

- كلمات القرآن تفسير وبيان - للشيخ/ حسنين مخلوف - دار المعارف - القاهرة.

- لسان العرب لابن منظور - دار صادر بيروت ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الأثير/ تحقيق د/ أحمد الحوفي، و د/ بدوي طبانة - دار نهضة مصر للطبع والنشر - الفجالة - القاهرة.

- مجاز القرآن لأبي عبيدة - تحقيق / محمد فؤاد سزكين - مؤسسة الرسالة - الطبعة الثانية - بيروت ١٩٨١م.

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الغرناطي. تحقيق الأستاذ / أحمد صادق الملاح - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

- مختار الصحاح للشيخ الإمام/ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي - مكتبة لبنان بيروت - أعيد طبعه ١٩٩٣م.

- المشاهد في القرآن الكريم دراسة تحليلية وصفية د / حامد صادق قنيبي - مكتبة المنار - الأردن - الزرقاء - ١٩٨٤م.

- المصباح المنير تأليف العلامة أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقرئ - مكتبة لبنان - بيروت ١٩٩٠م.

- مصر في القرآن دراسة بلاغية للمؤلف - بحث منشور في حولية كلية اللغة العربية بالقاهرة العدد (١٩) ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

- معجم البلدان لياقوت الحموي - دار الفكر - بيروت.

- معجم مفردات ألفاظ القرآن للعلامة الراغب الأصفهاني. تحقيق/ نديم مرعشلي - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م.

- المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية - القاهرة - الطبعة الثالثة.

- معاني القرآن للأخفش دراسة وتحقيق د/ عبد الأمير محمد أمين الورد - عالم الكتب - الطبعة الأولى ١٤٠٥ - ١٩٨٥ م .

- معاني القرآن للفراء تحقيق / أحمد يوسف نجاتي - محمد علي النجار - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠م - الطبعة الثانية.

- مع الأنبياء في القرآن الكريم تأليف / عفيف عبد الفتاح طبارة - الطبعة التاسعة عشرة - دار العلم للملايين، بيروت - لبنان. ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

- مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير للرازي - دار الغد العربي - القاهرة .

- مفاريد الألفاظ في القرآن دراسة لغوية (رسالة ماجستير) للباحث / محمود عبد الله عبد المقصود يونس - مكتبة كلية اللغة العربية بالقاهرة ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .

- مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا - تحقيق وضبط عبد السلام هارون - الطبعة الأولى بالقاهرة ١٣٦٦هـ. دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه.

- ملاك التأويل للغرناطي - تحقيق / سعيـد الفلاح - دار الغرب الإسلامي - ١٩٨٣م - ١٤٠٣هـ

- من إعجاز القرآن العلم الأعجمي في القرآن مفسرا بالقرآن وجه في إعجاز القرآن جديد - بقلم رؤوف أبو سعدة - دار الهلال .

- من بلاغة القرآن - تأليف أحمد أحمد بدوي - دار نهضة مصر للطبع والنشر - الفجالة - القاهرة.

- مناهل العرفان في علوم القرآن - للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني تحقيق مركز البحوث والدراسات - دار الفكر - بيروت ١٩٩٦م.

- منهج القصة في القرآن - محمد شديد - شركة مكتبة عكاظ للنشر والتوزيع - السعودية ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م.

- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن د/ محمد عبد الله دراز - دار القلم - الكويت - الطبعة الثانية - ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

- وحي الحرف والحركة في الصورة الأدبية في دراسات القدامى والمحدثين - د/ غانم السعيد - ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

- يوسف في القرآن - تأليف أحمد ماهر محمود البقري - مؤسسة الثقافة الجامعية - الإسكندرية - ١٩٧١م.

❁ ❁ ❁

فهرس الموضوعات

من منطلق أن العلم رحم بين أهله فإني أرجو من القارئ الكريم بعد الانتهاء من قراءة الكتاب أن يمدني بملاحظاته القيمة، ونقداته الدقيقة حتى نتلافاها في الطبعات اللاحقة إن شاء الله تعالى، وذلك على بريد المؤلف الالكتروني

sarhan40@hotmail.com

أو على الجوال رقم

(٠٠٢٠١٢٠٧١٥٨٥٥٨)

❁ ❁ ❁